لورينزا جينتيله

الأشياء التي تنقذنا

ترجمتها عن الإيطالية:
أماني فوزي حبشي

رواية

لورينزا جينتيله

الأشياء التي تنقذنا

في قلب ميلانو النابض، تنسج لورينزا جينتيله، خيوط روايتها الساحرة "الأشياء التي تنقذنا". تأخذنا في رحلة روحيّة مع بطلة تتنفّس الوحدة بعد رحيل جدّتها، لتكتشف سحر الحياة في أبسط تفاصيلها.

تتراقص الكلمات على صفحات الرواية لترسم لوحة فنيّة من المشاعر، حيث تتحوّل الأشياء العاديّة إلى كنوز ثمينة. يحمل كل غرض في طياته قصّة، وتنبض كل زاوية في المنزل بالذكريات. وكأنّ البطلة تمسك بريشة سحريّة، تحوّل بها الأشياء الصامتة إلى أصدقاء يؤنسون وحدتها ويمنحونها القوّة.

تدعونا الرواية، بعيون مفتوحة على اتّساعها، لاكتشاف العالم من جديد. فجأة، تصبح علبة الذكريات القديمة بوّابة سحريّة لعوالم منسيّة، ويتحوّل وشاح الجدّة إلى معطف من الدفء والحنان. وبين ثنايا الصفحات، نتعلّم كيف نواجه عواصف الحياة بقارب مصنوع من أبسط الأشياء وأكثرها إنسانيّة.

تنقل لنا أماني فوزي حبشي، بترجمتها الرشيقة، هذه التحفة الأدبيّة بكلّ روعتها. تتدفّق الكلمات كينبوع عذب للأدب الراقي. ليست هذه مجرّد رواية، بل هي دعوة للتأمّل، للحبّ، وللحياة بكلّ ما فيها من سحر وجمال.

فلنغص معًا في عالم "الأشياء التي تنقذنا"، لنكتشف كيف يمكن لأصغر التفاصيل أن تكون طوق نجاة في بحر الحياة المتلاطم، ولنتعلّم كيف نرى الجمال في كلّ ما يحيط بنا، مهما كان بسيطًا أو عاديًا.



ISBN 978-1-958320-33-4



DarShafaqBooks
www.DarShafaq.com



إلى مارتينو



الحياة مُغامرة مُستمرّة.

جواو كيماريس روزا

إصلاح الأشياء يعني الانحناء عليها بِحُبّ.

ناتاليا غينزبورغ

مُباركةٌ هي تفاصيل الأشياء الصّغيرة وميلليمتراتها وظِلالها.

فرناندو بيسوّا



(1)

التخلُّص من الأشياء هو إهدارٌ لفرصة، غالبًا ما تكون أفضل فرصة. ولكن ما الفائدة مِن مزيجٍ متنوعٍ من: كابلات التوصيل، ومصباحين متوهِّجين، وبوصلة مراسلة، وصفارة، وقفازات مطاطية، وثماني عشرة قطعة من بواقي الصابون، وخمس وثلاثين بكرة ورق تواليت فارغة، ومِنضدة قهوة روكوكو صلحت إحدى أقدامها، ومفرش طاولة مقاوم للماء، وشعلة تعمل بالطاقة الشمسية، وعصا سير منحوتة، وغطاء حامل مصباح بدون مصباح، وفتاحة رسائل محفور عليها زهرة؟

حسنًا، هذا هو المقصود بالتحديد: كلّ شيء يمكن أن يكون مفيدًا، عاجلًا أم آجلًا. إذا أنقذت شيئًا ما، يمكنه بدوره أن ينقذك يومًا ما.

هناك من يسافر إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية ليبدأ صفحة جديدة من حياته، لكنّني جئت إلى ميلانو. قبل خمس سنوات، جئت إلى هنا طلبًا للنصيحة من جدّتي. لكن في الليلة التي سبقت وصولي، ذهبت هي إلى النوم مبكّرًا بسبب صداعٍ خفيف، لكنّها لم تستيقظ ثانية، وتركتني وحدي في العالم بصحبة أحزاني وصندوق المعدّات والإوزّة الخزفيّة الصغيرة التي كنت أحتفظ بها في جيبي.

كان الحيُّ تمامًا كما رأيته أوّل مرّة في طفولتي:

المتاجر، والرّصيف المُرَصَّع بالأحجار، والترام، والجسور الصغيرة، والكنيسة. كان مثاليًا، وقد استقبلني بترحاب، لذا لا أتجاوز حدوده أبدًا، فلا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث له في الخارج.

وإلى الشمال، يفصلنا عن المركز طريق دائري صمم على شكل حلقة، ويسلكه كلّ أنواع البشر ذهابًا وإيابًا. فهناك مَن يركض إلى مكتبه بحقيبة الكمبيوتر على ظهره، وأحيانًا، بنظرة من يريد أن يكون في مكانٍ آخر، نظرة مَن يتساءل: لماذا أفعل ذلك؟ أحيانًا، يكون عدم وجود خيار أمرًا مريحًا، لأنّه عندما تكون سيد مصيرك، يتحول كلّ شيء إلى معركة: إذا خسرت فيها، تكون أنت المخطئ. هؤلاء الأشخاص، أود أن أعانقهم، وأبوح لهم: أعرف بعض ما تمرون به.

يقضي البعض أيّامهم على الطريق الدّائري، يجرون خلفهم حقائب من أنواع شتى، وضعوا بداخلها كامل حياتهم، لأنّهم فقدوا مسكنهم؛ أناس امتصت المدينة الضخمة رحيقهم ثم بصقتهم. إنّهم وحيدون ومسطحون كالأشباح. لديهم دائمًا قصة ليرووها. أعرف هذا من أنجلينا، لأنّهم عندما يمرّون على مقهاها (١) «Il Nulla» ، تنصت إليهم. أخبرتها يومًا ما، أنّ الإنصات إليهم، طريقة لإعادتهم للوجود، فوافقتني على ذلك.

أحيانًا، عندما يمر عليّ يومٌ كاملٌ دون أن ينظر

أحدهم في عيني، أتساءل عمّا إذا كنت لا أزال موجودة في العالم. إذا سقطت شجرة في الغابة، ولم يسمعها أحد، هل تصدر صوتًا؟ أعتقد لا: لا يمكن للعالم أن يكون موجودًا، ما لم يكن هناك من يدرك وجوده. وبالتالي، نحن أيضًا نوجد فقط عندما ينظر إلينا شخص ما، عندما يستمع إلينا شخص ما، عندما يعترف شخص ما بوجودنا. لهذا السّبب أيضًا، أحبّ المرور على أنجلينا في «Il Nulla» لمساعدتها. ربّما لا أتحدّث كثيرًا، لكنّني أنصت، وهكذا أشعر أنّني على قيد الحياة.

على الطريق الدّائري المُزدحم بحركة المرور، يتحرك أيضًا العديد من الأشخاص بصعوبة، كاليرقات الّتي لا تعرف بعد ما إذا كانت ستصبح فراشات. هل سيحملون يومًا ما نظرة من يقوم بعمله على مضض؟ هل سيجرون خلفهم عربة تحمل جميع أغراضهم؟ أم سيقضون أمسياتهم في مراقبة الأفق من سطح إحدى بنايات وسط المدينة؟ هل سيعودون من حيث أتوا؟ هل سأعثر عليهم مرّة أخرى في مدخل البناية؟

يتميّز الحيّ الّذي أعيش فيه بالهدوء، وتحدّه من الشّرق والغرب قناتا ماء، وهي ميزة لا يُستهان بها. فالمياه تذكّرك بإمكانيّة الإبحار دائمًا. بينما أقف في مكاني ثابتة، تبحر نظرتي مع المياه، مانحةً إيّاي شعورًا بالخفّة والحريّة، وكأنّني سأتمكّن يومًا

ما من البدء من جديد، وتفكيك الماضي كخزانة قديمة وصنع واحدة أخرى جديدة.

يظن من يفاجئني أصطاد من القناة أنه أمر غريب، ولكن أليس من المفارقة تناول الحساء المجمد من السوبر ماركت والذي يحتوي على ثمانية أنواع من الأسماك والقشريات المستوردة من الهند والصين وبيرو واليونان والأرجنتين واندونيسيا، لتجمع بعدها في مكان مختلف وتضاف إليها الحمضيات واضافات أخرى؟ ربما يستحق الأمر التعبير عن وجهة نظري، لكنني لا أجرؤ على هذا. أحب الناس وأود أن أنال إعجابهم، لذلك ألتزم الصمت عندما ينظرون إلي باستغراب، وأبتسم كأنني أعتذر عن كون شخصيتي متفردة.

بكل صدق، لا أحتاج إلى سوبر ماركت في فلك نوح الخاص بي. لماذا أبتاع من هناك شامبو، على سبيل المثال، يحتوي على البارافين المشتق من النفط، إذا كان ممكناً استخدام عصيدة من دقيق الحمص والمياه الفاترة؟ لماذا أشتري مزهرية من الزهور مصنعة في الخارج، إذا كان كافياً استخدام زجاجة منظف فارغة، وأعني بذلك زجاجة وجدتها في الشارع، لأنه لا داعي حتى لشراء المنظف، نظراً لوجود الخل وصابون مارسيليا وبيكربونات الصوديوم؟

فنحن نقضي وقتنا في القيام بأعمال لا نحبها

لشراء أشياء لا نحتاجها. في النّهاية، يكفي أن يتحلّى المرء بالذكاء. لنعمل أقلّ ونبتكر أكثر، هكذا كان أبي يقول دائمًا.

يعجّ العالم بالأعمال، وأنا أعمل كلّ شيء في مبنانا، لكنّ النّاس لا يثقون غالبًا، حيث لا يعتبرونه عملًا نسائيًا. فعادةً من يفعل كل شيء هم رجال مكتنزون يرتدون العفريتة. حسن، أنا أرتديها أيضًا، عفريتة من الجينز خيطت على ساقيها جيوب. وعندما يكتشف النّاس كمّ الأشياء التي يمكنني إصلاحها وتجميعها وتفكيكها وتنظيفها وإعادة ضبطها، فإنّهم عادة ما يعاودون الاتصال بي.

يكفي القليل ليعيش المرء بشكلٍ جيّد. إلّا أنّه يلزمه قدر من المزاج الجيد، فضلا عن المهارة. ولكن لا يمكن صناعة المزاج الجيد، ومن الصّعب العثور عليه في أيّ مكان.

يقول البعض إنّ العيش بمفردك أمر محزن، خاصةً إذا كان عمرك سبعة وعشرون عاما مثلي. ما أعتقده هو أنّه لا أحد ينزعج عندما أبتسم والسّلطة بين أسناني أو أرتدي جوارب غير متطابقة. وفي النّهاية، لست وحدي. ففي حياتي توجد السيّدة داليا، حارسة المبنى السكني بأكمله، وكذلك تروفيو جاري الستينانيّ الذي لا يفتح فمه أبدًا، وأنجلينا، صاحبة مقهى «اللاشيء»، وابنها أوجينيو، الّذي يريد أن يصبح سائق

حافلة؛ ناهيك عن أصحاب المتاجر في الحيّ وكل الأشخاص الّذين ألتقي بهم في جولاتي، حيث نتبادل الابتسامات وأحيانا «صباح الخير!». كلّها تصرفات ودودة مهمة، شرارة تضيء اليوم. في تلك اللحظات أشعر أنّني متوحدة مع الحياة وأن مستقبلي يخيفني بدرجة أقل.

أحيانًا، أستيقظ في قلب اللّيل مفزوعة، يلفّني إحساس بأنّني ما زلت في الريف، أرى أبي بلحيته المشعثة وقميصه المربعات واقفًا أمام الباب، ليخبرني بضرورة مواجهة الكوابيس، لأنها جزء من الحياة. يواجه أبي كوابيسه منذ عشرين عامًا، بينما أجمع أنا الجديد منها كلّ يوم، في فترات معينة، كانت تُخيفني بشدة، لكنّني كنت أبوح بها إلى أخي أندريا. قرأ أندريا في كتاب عثر عليه في الطريق، أنّ الكوابيس عادة ما تكون نتيجة الإجهاد النفسي. قال إنّني أعاني على الأرجح من هذا الإجهاد، لذا توقفت عن الحديث معه في هذا الموضوع. وصرت عندما تنتابني الكوابيس، أحتفظ بذلك لنفسي وأحاول نسيانها. فكرة أنّني أعاني من أمر ما لا يمكن التعافي منه، تسبب لي باضطرابات في القلب.

ما زلت أعاني من الكوابيس، بعضها مُتكرّر، ولم أتعلّم كيفية مواجهتها. أسوأها يجبرني على أن أعيش ليلة تلو أخرى، شيئًا حدث بالفعل، خطأ ما ارتكبته.

أستيقظ، والعرق ينساب من جسدي، ويداي ترتجفان بعنف إلى درجة أنني لا أستطيع التقاط كوب الماء الذي أحتفظ به على الطاولة الجانبية. عندئذ، لا بدّ أن أشدّ نفسي لأجلس وأتنفس بعمق حتى أهدأ ويعبر عني خوفي أو على الأقل يقل. يمكن للعالم أن يخيف الجميع، بل وأكثر قليلا بالنسبة إلى من هم على شاكلتي.

تنتابني نوبات الهلع أثناء النهار أيضًا، في لحظات غير متوقعة أبدًا: أثناء تقطيع الكوسة، أو إصلاح خلل في تدفق المرحاض، أو حمل بعض الكنوز المكتشفة إلى المنزل. يتدفق الدم نحو أطرافي، وينفجر قلبي داخليًا في ثقب أسود، ويجف حلقي، وينقطع حبل أفكاري، ولا أكاد أتذكر من أنا. أفكر في أن أهرع إلى المستشفى، لكنها فكرة مرعبة جدا إلى درجة أنها تهدئني.

لا أعرف إذا كان الناس من حولي يلاحظون ذلك. أنا أركز فقط على نقطة محددة، وأتخيل الذهاب إلى غرفة الطوارئ حتى تمرّ النوبة. لا يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة، لكنه يبدو لي دهرا.

كنت قد قرأت أنه يجب عليّ الانتباه إلى ما يحدث قبل النوبة. على سبيل المثال، يلتقط النصل شعاعًا من ضوء الشمس، بينما أقطع الكوسة إلى شرائح، وأفكر في أن ذلك قد يؤدي إلى قطع إصبعي. عندئذ تنتابني نوبة هلع، أو

يتدفّق المرحاض ويعود إلى وضعه الطبيعي، ولكن ماذا لو لم يتوقّف عن مراكمة الماء، وفاض وأغرق المبنى؟ نوبة من الهلع.

هذا إذن ما يحدث قبلها، كلّ شيء يكمن في «ماذا لو إذا». مجرّد فرضية، كارثة محتملة: ماذا لو. ماذا لو خرج القطار عن مساره؟... ماذا لو لم يتوقّف المطر؟... ماذا لو لم أحصل على مهام جديدة؟... ماذا لو ترك الجيران الغاز مفتوحا؟ ماذا لو لم أجد الحبّ؟ وماذا لو ضاعت حياتي كلّها سدى؟

لو، كلمة واحدة صغيرة تبتلع روحي، وتنتزعني من نفسي، وتدفعني إلى التساؤل: ماذا لو لم أكن موجودة؟ وهكذا أوجد فقط في ذهني، على أمل ألّا يلاحظ من حولي اختفائي.

ومن ناحية أخرى، إنّ كلّ زلزال يبدأ بهزّة صغيرة. مثلما حدث عندما جئت إلى ميلانو لأطلبَ النّصيحة من جدّتي ولم أجدها.

وعدْتُ نفسي من جديد: «يجب أن أنكمش لأتجنّب المشاكل».

يقولون في هذه المنطقة: Staa schisc per avegh minga rogn (2)

ومع ذلك، كان لديّ شعورٌ بأنّ هذا هو المكان الصحيح، ويبدو أنّني لم أكن مخطئة. على الأقلّ، ليس خطأً فادحا. لا بدّ أنّ الحظّ سيحالفني في

شيء ما. فالعالم مكانٌ موحشٌ، والكوارث على الأبواب، والحظ يساعد على النجاة.

(2)

عندما ينشب حريقٌ ما، تُصبح نقطة الالتقاء وسط الفناء.

لقد وضعت خطًّا بالقلم الأحمر السّميك على الإشعارات البلاستيكية المُعلّقة حول المبنى السّكني. لقد ثبت علمياً، أنَّ عينَيك، بعد فترة، تتوقفان عن رؤية شيءٍ اعتادتا رؤيته كثيرا، لذا، بين الحينِ والآخر، أُعيد كتابة الإشارة بلون مختلف. من الضّروري معرفة كيفيّة التّصرف في حالة الطوارئ. يجب أن يكون الجميع على علم. الجميع. لذلك كتبت لافتة وعلّقتها عند المدخل:

كُن حذرًا دائمًا، الخطر على الأبواب، انتبه إلى العلامات!

شخصٌ ما، للسّخرية، غيَّر «العلامات» إلى «الحلاليف»، وبعد بضعة أيّام، أزال شخصٌ آخر اللافتة. في الواقع، ليس هناك الكثير ممّا يمكن المزاح بشأنه: فهناك أماكن يتعيّن عليك فيها الحذر من الحلاليف، مثل المكان الّذي نشأت فيه. لا يمكن إيقاف الثّدييّات ذات الأنياب المشعرة، عندما تغادر الغابة لتدمّر أحد الحقول. يمكن أن تكون عدوانيّة جدًا، وجائعة تمامًا، لذا من الأفضل أن تتجنّب التّعامل معها، إذا كنت غير مستعد مثلي. الكوابيس والخنازير البرّية والكائنات الفضائيّة... لقد دربنا أبي على التّعامل

معها جميعًا. ولكنّ الأمر هنا مُختلف، أيّ شخص يتحدث عن الخنازير البرّية في ميلانو فهو يمزح. على الرّغم من ذلك، أعتقد، يجب ألّا نستبعد أي شيء أبدًا، إذا كان الإنسان قد وصل إلى القمر فعلًا، فالخنازير البرّيّة يمكنها أن تغزو منطقة النافيلي في ميلانو.

يحتوي كلّ درج في المجمع السكني على ورقة معلومات مغلفة بالبلاستك خاصّة به:

إذا لاحظت وجود حريق، اتّصِل برقم 115 في أسرع وقت، وافصل الغاز عن منزلك، وكذلك لوحة المفاتيح الكهربائيّة، نبِه المستأجرين الآخرين إلى عدم استخدام المصعد. أثناء إخلاء المبنى، لا تركض، ولا تصرخ، لا داعي للذّعر، إذا استطعت، افصل المفاتيح الرّئيسية للمبنى، ولا داعي لِعرقلة مخارج الطوارئ.

وأضفت إلى كلّ منها بالقلم: إذا علقتَ في المنزِل، أغلق النّوافذ حتّى لا تغذّي النيران، سدّ الشّقوق تحت الأبواب بقطعة قماش مبلّلة. الجأ إلى الحمام واملأ الحوض والبيديه وحوض الاستحمام بالماء، اغمر الأرض وأغلق الباب وبلّله للحدّ من انتشار النّيران.

لا أعتقد أنّ إغلاق النوافذ وسدّ شقوق المنزل أمرٌ بديهي في حالات الحريق، ولهذا أجد أنّه من الضروري إبلاغ الجيران بذلك.

يوجد أيضًا إشعارٌ عند سلّة المهملات، أعلى السلّة مباشرةً. في كلّ مرة أقوم فيها بإزالة القمامة، أتحقّق من وجوده من أجل السيدة داليا وتروفيو. عندما يلقي شخص ما الزجاج إلى الأسفل، أدفن رأسي بين كتفيّ لحماية طبلة أذني من الدوي الذي يحدثه.

ربّما لا يعلم الجميع أنّ النوافذ أو الغلّايات يمكن أن تنفجر أثناء الحريق، محدثةً ضجيجًا مدمّرًا. في هذه الحالة لن أستطيع دفن رأسي بين كتفي، لأنّني سأكون مشغولة للغاية، ولن أعير طبلة أذني كبير اهتمام.

ففي هذه الحالة، على سبيل المثال، يجب أن أفتح باب منزل السيّدة داليا، لأنقذها. سأجد مفتاحها أسفل مزهرية نبات الدراسينا الأريجية بجوار الباب، ثمّ سأضمّها أسفل ذراعي وأرافقها إلى وسط الفناء. هناك ستلتقي بتروفيو، الّذي سأقرع جرس بابه وأنا في طريق النزول.

بعد ذلك، ونظرًا لخلوّ المبنى السكني من صافرات الإنذار، سأركض إلى موقف السيّارات، لإطلاق أجهزة الإنذار ضدّ السرقة. سأبدأ بدرّاجة فيكوبريلو. غالبًا ما سأجد بها جهاز إنذار، إنّه يحرس أغراضه وكأنّه يعيش في وكر لصوص وينظر إلى الجميع بريبة واحتقار. بعد ذلك على الفور، يحين دور سيارة الـ«سيدة» السمارت، أتمنّى ألا أجد كلبها «سكر» التشيواوا

راكدًا في المقعد الخلفيّ مرّة أخرى. في هذه الحالة، سأضطرّ إلى كسر النافذة بالمطرقة التي أحملها دائمًا في أحد جيوب الأوفرول.

جعلت تروفيو يقسم أنه، في حالات الطوارئ، سيلتصق بالجرس الداخلي، ويحثّ الجميع على الجري إلى أسفل دون أن يضيعوا دقيقة واحدة، وأن يكمّوا أنوفهم وأفواههم، وأن يتجنّبوا استخدام المصاعد. وجعلته أيضًا يكرّر ذلك على مسامعي عدّة مرّات. أو بالأحرى سألته عدة مرّات، فأومأ برأسه في كلّ مرة بقناعة أكثر حتى يرضيني.

يبلغ تروفيو من العمر خمسة وستّين عامًا، ويمتلك فأرًا أمهق، ويرتدي دائمًا بدلة رياضيّة، ولا يتفوه ببنت شفه مع أيّ مخلوق، ولا حتى معي، فقد هربت منه الكلمات ولم يعد لديه ما يضيفه. من المدهش حقًّا، أن نكتشف مقدار ما يمكن للمرء قوله دون أن يفتح فمه، بل يستخدم عينيه وثنية شفتيه فقط. أعلم أنه يحب شروق الشمس ويخاف غروبها، ويغضب من الإداريين والسياسيين وعروض التوفير وجرّاحي عمليّات التجميل وتواريخ انتهاء الصلاحيّة.

في مطلع كلّ شهر، يقف في طابور مكتب البريد للحصول على معاش العجز الخاص به. بعد الراحة المبدئيّة لحصوله عليه، يخيم عليه حزن كئيب، إذ يتذكّر كيف كان بإمكانه أن يصبح

بطلًا رياضيًا، لو أنّه أخذ والدته إلى طبيب العظام بدلًا من الذهاب إلى التدريب في ذلك اليوم الملعون. ليته كان أقلّ تصميمًا، وأنصت إلى ملاكه الحارس الّذي همس له بشيءٍ في أذنه، لكنّه لم يكترث له. والآن، لا وجود لكؤوس الفوز على أثاث الصالون، ولا لماضٍ مجيد. ولا يتذكّر سوى عددٍ قليلٍ من كبار السّن ذلك الصّبي ذو الأقدام الذهبية، والمستقبل المضمون. من المؤسف أنّ ذلك كُتب بالقلم الرصاص حيث محا حدثٌ لا إرادي في يوم مُمطر ذلك الوعد.

أقول دائمًا لتروفيو إنّه هو الجائزة الحقيقيّة. فيهزّ كتفيه، وينظر إلى خفيه، متفحصًا النّدبة الباهتة المُمتدّة على طول كاحله. ثمّ يُدلّي زاويتَي فمه، ويشغل التلفاز.

في فترةٍ ما، اعتاد متابعة البرامج الرّياضيّة فقط، لكنّه مؤخرًا أصبح مولعًا بأفلام الحيوانات الوثائقيّة، وخاصة مشاهد الصيد في السافانا. يظلّ يراقبها ويسجلها ويشاهدها بالسّاعات. بفضله اكتشفت أنّ أفعى البواء يمكنها ابتلاع غزالٍ كاملٍ، وتستغرق في هضمه شهرًا كاملًا. كلانا يرى ذلك حقيقة جديرة بالملاحظة.

أثناء الاجتماع الأخير الخاص بالمبنى السكني، اقترح بعض السكان الجدد «تحسين في المساحات السكنية»، لكن الدهشة أصابتهم، عندما علموا بأننا قبلنا بوضع الإسمنت فقط في الممر، في

حين أنه كان بإمكاننا المطالبة بحديقة معتنى بها، وسلالم للمهملات، وإضاءات لمصممين مشهورين، وأرائك طُليت حديثا.

تخضّب وجه تروفيو غضباً. أفهم سبب شعوره بالإهانة. فتلك البناية موجودة منذ العشرينيات، وتضمّ أكثر من مئة وخمسين وحدة سكنيّة. بعض سكّانها ولدوا فيها والعديد من المُسنين كبروا بداخلها. كانت سكن العاملين في ورش الحي، أناس هجروا بلادهم وقدموا التضحيات في سبيل العيش، يعيشون حياة يومية مآسيها تفوق مباهجها. في ذلك الفناء، خطا أبناؤهم خطواتهم الأولى، ولعبوا بالكرة، وتشاجروا، واختبروا الحب والهجران في ما بينهم. في زمن ما، كانت مساحة الشقق عشرين مترا مربعا، وفي كلّ طابق يوجد حمّام واحد فقط في نهاية المَمر.

في الأعوام الأخيرة، اشترى بعض السّكان شققا أخرى في البناية وضموها ليحصلوا على مساحات أكبر، ثمّ أعاد أشخاص جدد على الحي تصميمها، مثل فيكوبريلو، والّذي يهتم فقط بالأرائك والمصابيح الثّمينة والنّجيلة الإنجليزيّة.

ربتُ على تروفيو لتهدئته. فالنّقود ليست مشكلة، وإذا حصلوا على الأغلبيّة، سأتولّى أنا تسديد نصيبه. سأترك له المبلغ في جَيب السّترة دون أن يدرك ذلك، حتى لا يشعر أنّه مدين بشيء. وحتى أتمكّن من جمع النّقود، يمكنني تصليح عدد أكبر

من الأدشاش، أو القيام ببعض أعمال التّنظيف المنزليّة بالسّاعة. إنّه أمر خطر إلى ذهني منذ مدة، ولكن لم تواتني الشّجاعة على القيام به. لا أعرف من يمكنه أن يعهد إليّ بعملٍ كهذا، كما أنّني لا أرتاح إلى فكرة فتح الأدراج والشبابيك في منازل ليست لي، تحسبا لما يمكنني العثور عليه.

لم أقل ذلك لتروفيو، ولكن في فُلك نوح الخاص بي، سأحتاج إلى الأرائك الخشبية. فهي تمنح الشعور بالراحة والاسترخاء والبهجة. إذا وضعوها في الفناء سيبدو الأمر كأنّنا نعيش في «حكاية الشتاء لشكسبير». أردت أن أقترح أيضا وضع حوضٍ للسمك، وربّما بعض الأشجار الحمراء الأنيقة، الّتي تغطّي أرضيّة الفناء ببساط من الأوراق الصفراء أثناء فصل الخريف.

يبدو أيضًا أنّ سلال المهملات نُزعت من الفناء في وقت ما، احتراسًا من أن توضع بداخلها مفرقعات ناريّة. حدث ذلك في فترة السّبعينيّات، حيث لم يكن الحيّ يتمتّع بالجاذبية الّتي عليها الآن، فلم تكن الحانات العائمة قد ظهرت بعد، وكذلك أسواق وزحام أيّام الآحاد.

أعتقد أنّه من الأفضل وضع أكياس بلاستيكية شفافة مضادة للمفرقعات في مكان السلال، وتعليقها على تركيبات حديدية صُنعت خصّيصًا لهذا الغرض. لن يكون مظهرها لائقًا، لكنّها ستمنع أيّ شخص من تنفيذ أيّ هجومٍ في الدّاخل،

على الرّغم من أنّ ذلك أمرًا مُستَبَعدًا. يكفي أن نفتح الصحيفة لندرك ذلك. أردت أن أشارك رأيي هذا مع السّكان الآخرين، ولكن بمجرّد أن خطرت لي الفكرة... نوبة هلع! تسارع في ضربات القلب، جفاف تامّ في الفم، ارتجاف الجسد، فضلًا عن الأعراض الباقية. فتخلّيت في الحال عن فكرة التدخّل.

أعرف آراءهم بشأني، إنّهم لا يحاولون إخفاءها. عندما أعبر بجوارهم، يعلّقون بصوت مرتفع، ويشيرون إليّ بأذقانهم. أمّا أنا فأحاول التظاهر بأنّني لم أرَ شيئًا. إذا كنت أحمل ذنبًا ما، فلا أعتقد أنّه بسبب ارتدائي الأوفرول، أو إصلاحي الصّنابير، أو إنقاذي الأشياء من الضّياع في النّفاية.

عندما وصلت السّيّدة داليا إلى هذه البناية للمرّة الأولى، بكت بلا انقطاع، فقد شعرت بأنّها سجينة. كانت قد جاءت لتوّها من الرّيف، ولم ترَ مدينة من قبل. وعدها إينزو بأنّهما سيكونان بخير في ميلانو، وأنّها مسألة اعتياد. ووعدها أيضًا بأنّهما سيخطّطان للقيام بالكثير من الرّحلات، ولن يكون المنزل سوى ميناء، والسّفينة مكانها البحر. تليق بنايتنا جدًّا بدور الميناء.

تعيش السّيّدة داليا في البناية منذ ستّين عامًا، تتلقّى الطّرود وتوقّع نيابةً عن الجميع، رغم أنّهم لا يدفعون لها مقابل ذلك. شعرها برتقالي اللون

وعيناها مُفعَمَتان بالحيويّة، حادّة الطّباع في أغلب الأحيان، لكن إذا عرفتها جيدًا ستدرك أنّ ذلك مجرّد قناع. ما تفاجأنا به الحياة مذهل حقًا، من يصدق أنني وسيّدة مثلها تجمع بيننا كلّ هذه الأشياء المشتركة؟

تنصحني بضرورة التوقّف عن القلق من احتمالية نشوب حريق، أو انفجار عرَضي، أو هجوم ما، بمعنى شامل، التوقف عن الخوف من كل شيء. لكنها مجرد كلمة صغيرة من حرفين: لو.

كان أبي يتحدّث عن سيناريوهين: الخراء يضرب المروحة (خ ي م) أو نهاية العالم كما نعرفه (ن ع ك ن)، وهي تداعيات أحداث ذات طابع مدمّر، والّتي من لحظة إلى أخرى ستطور من نموذجنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وستؤثّر على البيئة الّتي نعيش فيها. سواء تعلق الأمر بزلزال أو حريق أو تسونامي، أو حتى بحرب عالميّة ثالثة، فالقواعد لا تتغير: التوقع، التجنب، التصرف.

ولا يجب الاستهانة بأيّ من تلك القواعد.

(3)

يتمتّع ترّاس مطبخي بموقع إستراتيجي. أغلق بابه خلفي بفضل نظام مغناطيسي حتى يمنع دخول تيارات الهواء، ويوفر في التدفئة شتاءً، ويحافظ على برودة المنزل صيفاً. حسناً، أتحايل أحياناً، عندما يكون الجوّ حارا للغاية ألجأ إلى منزل تروفيو. يشاهد هو التلفاز، بينما أجلس أنا على الأرض، وأستمتع ببرودة مكيف الهواء، شاعرة بالذنب تجاه الكوكب.

في ترّاسي، بجوار الخزانة التي أحتفظ فيها بكلّ أدوات العمل في الحديقة، توجد مزهريات الفلفل والطماطم وأعشاب الطهي، ويوجد أيضا مقعد صغير للاسترخاء، وكذلك مفرش بلاستيكي قديم حولته إلى مظلّة تقيني أشعة الشمس والأمطار.

موقع الترّاس إستراتيجيّ، لأنه يُطلّ على الشارع الجانبي ويسمح لي بمراقبة السديلة الحمراء، التي تقع بين محل السجائر والمغسلة التي تعمل بعملة الجيتونه (٤). منذ خمسة أعوام، وأنا ألقي عليها نظرة الصباح الأولى والنظرة الأخيرة قبل النوم، ولا أحصي المرات اللانهائية التي أنظر فيها إليها خلال اليوم. ودون أن أنجح في منع نفسي: أتمنى دائمًا أن أجدها وقد ارتفعت، ولكن أملي يتبدد أمام المعدن البارد والثقيل. منذ خمسة أعوام

وتلك الضلفة تقف مكانها ساكنة، لا تتغيّر، وكأن لا شيء خلفها.

بهت لون اللافتة المكتوب عليها «العالم الجديد»، بفعل الطقس.

خمسة أعوام. بدأت ببطءٍ شديدٍ ومرّت في لمح البصر، إلى درجة أنّني عندما أنظر إلى الوراء أتساءل: كيف انتهت؟! وإن كنت قد عشتها حقًا أم أضعتها في انتظار حدثٍ لن يحدث أبدًا.

عندما أترك نفسي لذلك النّوع من التأمّلات، أشعر كأنّني في آلةٍ كهربائيّة معطوبة: عند وضعها على الأرض، لا تعطي إجابة شافية، فأجد نفسي معطلة. أفكّر لساعات وكأنّ دوّامة ابتلعتني، حتى أدرك أنّ اليوم قد انتهى دون أن أخرج حتى من المنزل. وهكذا أحاول التّحدّث مع أمي، أطلب منها أن تسامحني، لأنّني لم أفهمها في الوقت المُناسب، ولم أفهم إشاراتها. كنت مرتعبة جدًا من مجرّد رؤيتها، وصغيرة جدًا على أن أمدّ لها يدي.

ثمّ أتوجّه إلى أخي بالسّؤال إن كان ما زال يحبني. هل خطئي هو ما دمّر سعادتنا؟ وهل كنّا سعداء حقًا؟

عندئذ، كالعادة، أُخرج الخطاب الّذي أكتبه لأبي منذ خمسة أعوام. رغم عدم وجوده، أعجز عن التّحدّث إليه. أمسك القلم بيدي، أضيف

عبارة، أمحو أخرى، وأعيد المحاولة. تدور الكلمات في الفراغ مثل مسامير صدئة، دون أن تلهمني التفسير. وأنتهي بأن أشكّ في ما أريد قوله. أترك القلم، وكالعادة، أعيد الورقة إلى الدرج.

أعترف أخيرًا: حياتي هنا مختلفة عمّا تخيّلته. يصدح صوتي مبحوحًا في الصّمت، مثل صوت محرّك ينطلق بعد سنوات من السّكون. «أشعر أنّ حياة المدينة جيّدة حقًّا».

عندئذ، كما يحدث عادة، أملأ الكوب وأخرج إلى التّراس. أظلّ واقفةً وأصوِّب نظرتي إلى اللاشيء. أراقب جرس الكنيسة من بعيد، وكذلك النّباتات الّتي تستقبل الظلام منغلقةً على نفسها، أحيانًا أنظر إلى انعكاس صورتي في باب النّافذة: شعري المجموع في كعكة، والأوفرول والحذاء الممزّق، والشعور المضطرب والمندهش، في آنٍ معًا، أنّني ما زلت على قيد الحياة.

أيّام الإثنين، أذهب إلى الحانة الواقعة في نهاية النافيليو، أعيد زجاجتي سان كولومبانو وآخذ أخريين ممتلئتين حديثًا. أذهب سيرًا على الأقدام. وأثناء سيري بجوار الحقول أصادف نبات لسان الحمل، وزهور الأوركيد والهندب، وأحيانًا أجد قطعًا من الملابس، والأثاث، والمجلات. إذا كانت بحالة جيّدة ألتقطها وأضعها في حقيبة ظهري: فالعالم مليء بالعطايا لمن له عين خبيرة. أحتفظ بها وأصلحها بانتظار من يحتاجها.

في إحدى أمسيات يوم الأحد قال لي أوجينيو: الحجرة التي تعملين فيها أشبه بورشة.
وهو لا يحبّ الورش كثيراً.

يوجد في الحجرة: مكتب معدني، والأدوات والموادّ التي أنتشلها، وكلّ الأشياء التي أعثر عليها في الجوار وتحتاج إلى تصليح، وينير المكان مصباح صناعي أخذته من مصنع مهجور قريب من هنا.

أنام في غرفة جدّتي، أوسع من هذه قليلًا، فيها سرير أكبر من المفرد بقليل وكومود معشّق في أثاث خزانة وفوقه صليب معلّق على الجدار.

في الصالون توجد الأدوات التي رمّمتها بالفعل: مقعد زيّن قماشه بالزهور، وأباجورة مرسومة يدويًا، ومظلّتان صغيرتان من ورق الرزّ، وإطار عتيق، وعصا تمشية مقبضها على شكل رأس البطة، ولعبة دوّارة من الصفيح، وكرسي هزاز، وأشياء أخرى. كلّها أشياء تعيش معي، هي وورق الحوائط المزدان بزهور الكرز في الردهة، على سبيل المثال، واللوحات المحفورة التي عثرت عليها على الرصيف وعلّقتها في المدخل. كانت أمي تقول: حاوطي نفسك بالجمال ولن تشعري بالوحدة أبدًا.

لم يدخل أحد منزلي قطّ، فيما عدا أوجينيو.

في ذلك الصباح، لم يكن لديّ وقت للأفكار

الشّريرة، لقد حدثت فيه معجزة، رُفع الباب الجرار! كنت قد اعتدت على رؤيته مغلقًا إلى درجة أنني فقدت توازُني للحظة. نقّلت بصري باحثةً عن اللافتة، كانت لا تزال موجودة، باهتة كالعادة: العالم الجديد.

ارتفعت السديلة اللفافة! بدا لي ذلك أمرًا مُستحيلًا. أغلق عينيّ ثمّ أفتحهما، أجدها لا تزال مرتفعة. عندما أمد جذعي لأتجاوز الدرابزين، ألمح الألواح المُثبتة المُنتزعة من المتجر، هي أيضا حمراء اللون، وأرى كذلك الواجهة الزجاجية وقد استحالت إلى اللّون الأسود من أثر الغبار. أجول ببصري في المكان لأتأكّد أن ذلك ليس حلمًا: يبدو كلّ شيء مطابقًا للحقيقة. فتجر التبغ في مكانه في الزاوية، وصاحبه يدخن ويتشدق على العتبة، كالمعتاد. باب المغسلة التي تعمل بالعملات الرّمزية مفتوح على مصراعيه: لمح قدمَي أحد أولئك الّذين يستخدمونها كلما ليلٍ. في السماء، سُحب بيضاء وطائرة تتحرك ببطء. صوت الترام يُداعب أذنيَّ من بعيد. في الأفق، جرس الكنيسة يقطع البقعة الزرقاء. أمّا أنا، فأفحص السّاعة الشمسية التي صنعتها بنفسي، الظلّ يسقط كما قُدر له. وأنظر إلى يدي وأجد أصابعي الخمسة موجودة في مكانها. وأقفز لكي أرى قدرتي على رفع نفسي.

لطالما تمنيت أن ترتفع تلك المصاريع، لم أتوقف

عن تمنّي ذلك قطّ. كان يجب حدوث ذلك من أجلي أنا، وليس لأيّ سبب آخر. وها هو قد حدث بالفعل، حدث هذا بطريقة مفاجئة، حدث اليوم، أحد أيّام السبت من شهر مايو، في السّابعة والنصف صباحا.

أحاول أن أمدّ نفسي أكثر، ولكنّني في طابق مرتفع جدًا يمكّنني من رؤية ما يحدث داخل المتجر. أتساءل إن كان يجب أن أطرق الباب على فيكوريلو الّذي يسكن في الطابق الأسفل، ربّما أسقط شيئًا في تراسه، ويكون ذلك حجة لأذهب وآخذه، ولكن من يمتلك الشّجاعة لمواجهة نظرته المحقّقة؟ ثمّ إنّه لن يدعني أذهب أبدا إلى التراس، بل سيرسل زوجته ويتركني أنتظر عند عتبة الباب.

أهدتني زوجته في عيد الميلاد الماضي، والّذي كان عيدها الأول في البناية، زجاجة كحول مقطّر ماركة «ستريغا»، وعلبة بسكويت ماركة «رويال دانسك»، ومعهما بطاقة كُتب عليها: إلى جيا، عذوبة البناية. أدهشني ذلك لأنّنا لم نتبادل معا ولا كلمة واحدة. تبتسم كلّ منّا إلى الأخرى فحسب، عندما تتقاطع طرقنا في الفناء.

في الفترة الأخيرة، قابلتها في المدخل. كانت في طريقها إلى الخروج بينما أنا عائدة لتوي، لم تكن لدي أية فرصة للعودة إلى الخلف. فمنذ أرسلت إليّ تلك الهديّة، وأنا أتجنّبها، خوفًا من ألّا أمتلك

الشجاعة لأشكرها، أو التحدّث معها إن أرادت. فأنا لا أجيد المجاملات، وأشعر أنّني على راحتي أكثر مع المشاكل الملموسة، مثل إصلاح سخّان أو تركيب خزانة. أتمنّى ألّا تكون قد لاحظت ابتعادي عنها، أو على الأقلّ ألّا تكون قد أخذت الأمر على محمل شخصي.

عندما وجدتها أمام صناديق البريد، استجمعتُ قِواي وشكرتها على الهديّة وتمنيت لها الأفضل.

أجابت وهي تُشير إلى الكتاب الّذي أحتفظ به في جيب الأوفرول الأمامي: أرى أنّك تقرئين. نعم، فأنا أصطحب كتابًا دائمًا، فأوقات الانتظار غير متوقّعة في عملي، وفي الحياة عمومًا. ما الّذي يمكن أن يكون أفضل من قضاء عشر دقائق في مكانٍ ما ونسيان الوجود؟

أضافت وهي تنظر حولها وكأنّها تُفشي سرًّا: إذا أردتِ لدينا مكتبة مكتظّة بالكتب.

شعرت أنّ وجهي يتخضّب بالحمرة. كانت كما ظننت تمامًا، ترغب في فتح حوار معي. لم يكن ذلك سيزعجني إذا عرفت ماذا أقول.

أكملَت: لا أحد يقرأ كتبنا سواي. يمكنكِ أن تستعيري ما ترغبينه منها.

شكرتها، ولكنّي بعدها تحجّجت بأنّني متأخّرة ولا بدّ أن أمضي سريعًا. وهكذا فعلت، وهربت.

في الحقيقة، لو لم تكن زوجة فيكوبريلو

لاستعرت منها بعض الكتب. ولكنّه يُخيفني، لا أعرف كيف سيكون ردّ فعله حيال أمرٍ كهذا. إذا فكّر بأنّني أستغلّ زوجته لأحصل منها على خدمات أو أنّني تخصّ طفلي، ربّما سيكون الوضع أسوأ بكثير من قراءة الكتاب نفسه للمرة الثلاثمئة.

لا أعرف كيف لامرأةٍ بهذا اللطف والذّوق مع الجار، أن تتزوّج رجلًا شرسًا ومغرورًا مثل فيكوبريلو؟ على أيّة حال، لا يخصّني التدخّل في شؤون الآخرين. لديّ ما يكفي ليشغلني.

أُقيّم من جديد فكرة إسقاط شيء إلى أسفل، في تراسهم، على أمل ألّا يكون هو في المنزل، ولكننا في يوم سبت، وهو بالتأكيد في المنزل، بسيجاره وخفيه. من الأفضل قبول مخاطرة تغيير عادات صباح السبت، والذهاب إلى المتجر لزيارته بنفسي.

والعادات بالنّسبة إليّ تشبه شبكة حماية لاعب الترابيز، تسمح لي بالسير على الحبل دون التّفكير كثيرًا في الفراغ أسفلي. نخريطة الطريق تحفظ جميع الأجزاء، ليست فقط الخاصّة بي، ولكن في ما يتعلّق بسكان الحيّ أيضًا. ولكنّ المتجر مفتوح، والباب الملفوف مرفوع!

سأقوم بجولتي المُعتادة ثمّ أذهب لأرى. فمن لا يخاطر لا يصفِر، هكذا اعتاد أبي القول. وكان هو يصفِر دائمًا عندما يشعر بالرّضا عن نفسه،

أو عندما ينجح في إنجاز إحدى مهامه. يُصفِر صفيرًا مضاعفًا وعميقًا مانحًا إياي جرعة من الأدرينالين، لأنني عندئذٍ أعرف أنه بالتأكيد سعيد. أخيرًا.

(4)

«وردي ماونتباتن».

أسندت أنجلينا ذراعَيْها النّحيفتَيْن على الطاولة المعدنيّة في مقهاها «اللاشيء»، واتّسمت بالجدّية، كعادتها في كلّ مرة تحدّثني فيها عن لونٍ جديد: اخترعه اللورد ماونتباتن، فريق أول البحريّة البريطانيّة عام 1940م.

أومئ لأظهر لها اهتمامي. تُمرّر يدها في ثنايا شعرها القصير، تبدو مُجهدة، ففي الصباح، تعد وجبة الغداء، إذ تبدأ عملها قبل ساعتين من فتح أبواب المقهى في السابعة صباحًا.

تُخرج هاتفها المحمول من جيبها، وتضعه على الطاولة: بعد الضغطة الأولى، يلوّن الشّاشة باللون الوردي، وردي ماونتباتن. لا أعترف لها بأنّي أعرفه جيّدًا، فقد أخبرنا أبي بألوان التّكرّ العسكريّة ومنها ذلك اللون. سيكون هذا اللون مُفيدًا لنا إذا اضطررنا للاختباء في الغابة المُحيطة بمنزلنا.

تسألني أنجلينا: ما رأيك؟

أُجيب بابتسامة خفيفة: بكلّ صدق، لونٌ باهتٌ.

تنظر إليه من جديد: أجل، حقيقيّ، قليلًا. ولكن اخترعه لورد، لورد ماونتباتن. فهو خال دوق إدنبرا.

- آه، فعلًا.

- رجلٌ ساحرٌ للغاية.

وبحركة سريعةٍ من سبّابتها على الشّاشة، تظهر صورة رجل ودود النّظرة، مرتديًا زيّ البحرية البريطانية.

- اعترفي أنّه وسيم.

ولأنّني أفطن إلى ما سيُسْعدها، أُعلّق: يليق بشخصيّة من شخصيات مسلسل داونتن آبي (١٠).

- في كلّ يوم لونٌ مختلف، أسلوبٌ جميلٌ في الحياة، أشكرك على تعليمي إيّاه.

لم أفعل سوى أنْ حكيت لها أنّني، كلّ صباح في طفولتي، اعتدت على أن أفتح مع أمّي قاموسها الخاصّ بالألوان، ونختار معًا درجة لون جديدة لنتأمّلها ونحفظها. أخبرَتْني أمّي أنّ اللّون الوردي لا يوجد بمفرده. أيّ وردي؟ وردي أمارنت، أم وردي أزليا، أم وردي توتي. وماذا عن الأخضر؟ أخضر إسبراجس، زيتوني فاتح أم برونزي عتيق؟ كلّ لونٍ من تلك الألوان يطالب بحضوره الخاصّ، ويمتاز بتناغم معيّن مع الضّوء والظّلال. نخرج بعدها من المنزل لنميّزها في الطبيعة. معرفة كيفيّة التّعرف عليها تجعل العالم أكثر حيويّة، وأكثر واقعيّة.

أنجلينا واحدة من القلائل الّذين يمكنني مشاركتهم أفكارًا كهذه. لا تمكس الكلمات،

ولا تُلمّح إلى شيء إطلاقًا. وهكذا قرّرت العثور على لون جديد في كلّ مرة نلتقي. في الفترة الماضية، تمعّنا في الأزرق السماوي، وفي بيضة طائر أبي الحناء، وفي الصدفة التي جمعت بينهما.

أعلّق: اليوم قمت بإنجازٍ كبير: عثرتُ على لونٍ نبيل.

تُحبّ أنجلينا فكرة النُّبل، والأساليب اللّطيفة، والأشياء المصنوعة بأناقة، تمامًا مثلما أحبّ أنا البزلاء المهروسة، ومفكات ماركة ستالي، وتعليق اللافتات، هكذا تقول.

أنظر حولي: مرتادان مُعتادان يشربان النّبيذ الأبيض ويلعبان الورق، وآخر، أكثر شبابًا، يقرأ الصحيفة.

- ماذا حدث اليوم إذن؟

قالت وهي تزفر: تعطّل الميكروويف.

ثمّ فتحت لي محور الطاولة لأذهب إلى الجزء الخلفيّ، وأكملت: الطّبق يلفّ، والنّور مضاء والميقّات يعمل... ولكن لا يُسخّن شيئًا.

- فرنٌ مُخادع.

أقول لها قبل أن أنحني على الميكروويف: الآن احبس أنفاسك، لن أؤذيك، ستحتاج فقط إلى أن تتوقّف قليلًا.

أنزع الجزء الخلفي بواسطة مفكّ مقياسه 4x100 مم، ثم أنزع الغطاء. أخرج الصمام المرتبط

بالضغط العالي، فأجده مَقطوعًا، يُمكن رؤية ذلك بالعين المجردة، ولكن للتأكد أيضًا، أستخدم مقياس الاختبار: لا يوجد تيار.

أخبر أنجلينا بينما أغمز لها بعيني: لا بد من تغيير قطعة ما، ولكن لن يكلفك ذلك سوى القليل جدًا، سأذهب لأحضر صمامًا آخر.

- كم أنتِ رائعة، تصنعين المعجزات.

وبعد أن تدفع لي، تسحب أنجلينا فطيرة حلوى من الواجهة الزجاجية وتُقدمها لي قائلة: خذي يا نجمتي، بالتوت الأحمر كما تُحبينها.

أقبلها بدون مجاملة. تعطيني اثنتين إضافيتين في كيس ورقي، واحدة بالقشدة والأخرى بالشوكولاتة، لأن اليوم يوم سبت.

ثم تقول لي وقد عقدت ذراعيها: اسمعي يا نجمتي. هل يمكن أن تُسدي لي خدمة وتأخذي تلك اللازانيا لكِ أنت وأوجينيو؟ سأطلب منه الذهاب إليك غدًا مساءً. أعرف أنه كبير الآن، ولكن يحزنني أن يمكث ليأكل بمفرده.

- بالتأكيد، سيُسلّي أحدنا الآخر.

تطلب مني الإذن في كل مرة، مما يجعل ذلك الطقس أمرًا مميزًا، وينزع عنه فكرة البداهة والعادة. تحرص أنجلينا على ألا تكون عبئًا على الآخرين، وفي الوقت نفسه تسعى إلى أن ترفع عنهم أثقالهم.

أحبّ أوجينيو كثيرًا، حتّى وإن اقتصر حديثه على الحافلات. في مساء الأحد، قبل السّاعة التّاسعة بقليل، أقف خلف النّافذة، في انتظار أن يطفئ نور شقّتهم في الطابق الثّاني للسّلّم المُقابل لي، ليعبر بعدها الفناء، قادمًا إليّ.

تبتسم لي أنجلينا ابتسامة بائسة، تفتح كيسًا وتضع بداخله صينيّتين من الألومنيوم.

تُضيف وكأنّ عليها أن تُقدّم لي تفسيرًا: لأنّني أعود متأخرةً مساء الأحد.

أعرف أنّها تظلّ حتّى الفجر لتُنظّف المكان، بينما يلعب زوجها البوكر جالسًا على طاولة ما مثل أحد الزبائن.

قبل أن أذهب، استجمعت شجاعتي وسألت: هل رأيتِ متجر «العالم الجديد» مفتوحًا من جديد؟

خلال كلّ تلك الأعوام لم أُشِر إلى المتجر قطّ، لا معها ولا مع السيدة داليا، ولا حتّى مع تروفيو. في الواقع، لم أتحدّث عنه مع أحد. إذا أرادوا معرفة سبب اهتمامي به إلى هذا الحدّ، لعجزت عن الإجابة. فالوعد والحلم، والصّدمة والإحباط، وكلّ ما يدفعني لأشعر بارتباطي بذلك المكان، من الأفضل أن يظلّ طيّ الكتمان. ولكن إذا حدث شيءٌ ما في الحي، فبالتأكيد لدى أنجلينا بعض الأخبار.

بينما ترفع كتفَيها، تُجيب: يبدو أنّه ليس سوى

مَتجَر قديم، وليس عالمًا جديدًا.

- مَن يدري.

أقول وأنا مُحبَطة بعض الشيء.

ومثل كل مرة، قبل أن أبتعد، ألقِ نظرةً إلى الوراء، لأقرأ يافطة مقهى الوجبات الساخنة المطلّة على الساحة المليئة بالأشجار. لون المصابيح النيون وردي، ومكتوب بالخطّ المائل: اللاشيء.

عندما سألتها عن سبب ذلك الاسم، أجابت أنجلينا بإيجاز: كنّا قد انتقلنا لتونا إلى ميلانو، ولم يخطر على بالنا شيء آخر. واللاشيء هو كلّ ما ملكَتهُ أيدينا. وبدا لنا اسمًا صادقًا.

- ماذا عن الآن؟

- الآن لدينا مكان يخصُّنا، وهو في حدّ ذاته شيءٌ ما. ولكن مستحيل حتّى التفكير في تغيير اللافتة.

وابتسمت بتحفُّظ، أتخيّلها مثل طريقة ابتسام الملكة إليزابيث.

- هذا السّبت صباحًا... خمّن قليلًا! فطيرة حلوى بالقشدة.

يمسكها علي مبتسمًا. فهو ممّن يُفضّلون النكات. اخترت بسطته في إحدى المرات الأولى الّتي أتيت فيها إلى السوق، لأنّني عندما سألته عن الفاكهة والخضروات الّتي سيتخلّص منها، أعطاني كيسًا مليئًا دون مقابل.

- فقط أحضري لي الإفطار السّبت القادم.

ومنذ خمسة أعوام وأنا أحضر له فطيرة حلوى بالشوكولاتة من أنجلينا، بينما هو يهديني الخضروات الّتي يراها الزّبائن معطوبة، بينما أراها أنا طيبة للغاية.

الآن، أراه يساعد سيّدة، بينما أحاول أن أستجمع شجاعتي للتحدّث. قد يظنّ أنّني ابتعدت، كما أفعل عادةً، لأنّني لم أعد في مجال بصره. لديه طريقة مهذّبة في التعامل. على الرّغم من أسلوب الزبونة المتعالي، يستمر في الابتسام، ويزن الخضروات بعناية، ويفحص النقود للتأكّد من خلوّها من أيّ عيب، وعندما تبتعد، يتنفّس الصعداء، ثمّ يلحظ وجودي.

- هل وصلْنا إلى السّبت القادم؟

بدا مستمتعًا وليس مندهشًا. يبدو علي دائمًا مستمتعًا، وهذا أجمل شيء فيه. أجمل حتّى من عينيه الفاتحتين اللّامعتين مثل بحيرات جبليّة.

- هل تعرف العالم الجديد؟

أسأل في نفَسٍ واحد. وأتمنّى ألا يتخضّب وجهي بالحُمرة.

يحني عليّ رأسه: بأيّ معنى يا جميلة؟

منذ أن تعرّفت عليه لم نتبادل قطّ حوارًا بهذا الطّول.

أشرح، فقد فات أوان التّراجُع: المتجر، هنا خلف النّاصية. هل يعني لك شيئًا؟

- أنا لا أبتاع حاجاتي سوى من شارع مونته نابوليونه (5)، يا جميلة.

فرحة، جميلة، لجة... أحيانًا أحبّ أن أسمعهم ينادونني باسمي، جيا، بكلّ بساطة.

لا يعرف علي اسمي، لم يسألني عنه قطّ، ولكنّني أعرف اسمه. نادته به إحدى زميلاته أمامي إحدى المرآت، فحفظته. معرفة اسم الشّخص لا يجعله مجرّد شخص فحسب، فمعرفة أسماء الآخرين تجعلهم أقلّ غُربة، تقريبًا مثل الألوان. ويصبح العالم أكثر واقعية. ولكن، يوجد خلفي الآن صفّ من الزّبائن، لقد عطّلت عليّ أكثر ممّا ينبغي.

- اسمع سأذهب الآن، والسّبت القادم سأحكي لك.

أختم، وكأنّي أتحدث مع نفسي وليس معه.

- ستجدينني هنا كالمعتاد، يا جميلة.

- عُملة صغيرة مقابل بيت شعر رومانسي!

تصيح الشّاعرة، جالسة على الرصيف أمام السّوق، بصوتها الأجش.

أنحني لأقدّم لها فطيرة الحلوى الثالثة والأخيرة. تلعق القشدة بطرف لسانها وتسلِّم لي ورقة بداخلها

قصيدةً مكتوبةً بالقلمِ الجافّ. تُحَدّق بي بنظرة عرّافة مرهقة، عرّافة حضريّة، والّتي على الرّغم من ذلك أوْ ربّما بسبب ذلك، بقيت وحيدة. فالنّساء اللاتي يعرفنَ الكثير، يثرن الخوف.

أبياتها تُنسيك نفسك، وهذا برأيي أعظم قُدرات الأدب. فنحن نعيش محاطين بالموهبة، حتّى لو لم ندرك ذلك. أود كثيرًا أن تكون لديّ الشجاعة لأقول لها هذا.

إلّا أنّني لا أستطيع سوى أن أسأل: هل تعرفين «العالم الجديد»؟

تلك هي أوّل مرة أتحدّث فيها معها.

- عالم جديد؟ القصّة القديمة المُكرّرة نفسها.

رُبّما تلك مُجرّد مزحة، أو رُبّما شيءٌ ما يتعلّق بالمتجر، لا أستطيع التّخمين. تلوح في الهواء بالورقة المكتوب بداخلها الشّعر، بينما أنحني انحناءةً خفيفةً قبل أن أجري مبتعدة.

لا يجب عليّ الانتظار كثيرًا أمام الجسر الصّغير الّذي يعبر القناة ويؤدّي إلى الكنيسة المطليّة بلون البسكويت. تسير المرأة بالعكّاز مُتأبّطةً الصّحيفة، نظرتها هائمة في الفضاء مثل كلّ صباح. فجأةً تبدو كأنّها تتناقش بِحدّة مع شخصٍ ما، ولكن لا أحد في الجوار. بمجرد أن تصبح على الجسر تُشعل سيجارة. أظنّها تختار الجسر حيث يمكنها أن تسند العكّاز، وتستند هي على الدرابزين.

بعدها على الفور تبدأ بالاحتجاج، تطفئ السيجارة، وتمسك بورقة الشعر التي تركتها هناك من أجلها، وقبل أن تعاود السير تترك الصحيفة، بينما أنتظر حتى تبتعد لألتقطها.

تبتاعها من كشك الصحف القريب من الكنيسة، وتأخذها إلى المقهى حيث تتناول إفطارها، ولكنني لم أرها تتصفحها قط. أعرف أنها كانت قاضية صلح، ربما تبتاعها كل يوم حتى لا تنسى هويتها، ولكنها زهدت في العالم حتى تقرأ عنه أخبارا جديدة.

أقرأ الصحيفة كل صباح. فالمعرفة خير وسيلة للدفاع، هكذا اعتاد أبي القول. لا أحد يمكنه معرفة ما سيحدث، ولكن يمكن للمرء أن يفترض: فكل شيء مرتبط ببعضه، رفرفة جناحي فراشة يمكن أن يتسبب في إعصار على الجانب الآخر من الكوكب. لا بد من معرفة قراءة ما بين السطور.

إذا أخذتها من قاضية صلح، فإن الصحيفة تصبح معروفة وغير شخصية، ولكن شيئا قدريا يشعرني بأنني جزء من شيء ما، بدلا من أن أتركها للتعفن في سلة المهملات. تعدني بأنه إن عاجلا أم آجلا من بين الأخبار الكثيرة عما يحدث حولي، سيحدث أيضا شيء يغير حياتي. حتى وإن لم أرغب في ذلك، فهو أمر أتوقعه.

أعرف أن القاضية تقرأ الأشعار، حيث أراها

في الأمسيات في المقهى، وأمامها على المائدة زجاجة من النّبيذ الفوّار وورقة مكَرمشة.

أحصل على بعض الخضروات مقابل فطيرة الحلوى، وأحصل على قصيدة شعر مقابل فطيرة أخرى. وأحصل على الصّحيفة مقابل قصيدة الشعر. أسمي هذا «الاقتصاد الدوّار للحي».

عندما أقرأ الصحيفة أُعلِّم بالقلم الرصاص الأخبار الأكثر إثارة، وأقص المقالات وأحتفظ بها في ملف. ما يتبقّى أخصّصه لتنظيف الزّجاج أو لعمل أشكال أوريغامي أوزّعها في الردهة. وأكتب فوقها بعض الأقوال المأثورة. في اليوم السّابق كتبت: «ما هو أكبر طموح في الحياة؟ أن نحيا إلى الأبد، ثمّ بعد ذلك نموت». غودار، حتّى آخر نفس.

أعلم أنّ أطفال البناية يُحبّون أشكال الأوريغامي الّتي أصنعها، أراهم من النّافذة يتسابقون عليها، لذلك أحاول قدر استطاعتي ألّا أترك أيًّا منهم خالي الوفاض.

والقول المُفَضّل لدَيَّ، من الفيلم السّابق ذِكْرُه، هو: «لا أعرف إذا كنت تعيسة لأنّني لست حرّة، أم أنّني لست حرّة لما أنا تعيسة». لكنّني لم أكتبه قطّ على أيّ شكل من أشكال الأوريغامي. لماذا يجب أن نُحزِن الأطفال؟ فلا حقول لديهم في المدينة حتّى يمكنهم الجري والتّنفيس عن أعاصير المشاعر الّتي تعصف بهم في ذلك العمر

عندما تَحدث لهم أشياء لا يُمكنهم فهمها بعد. لقد استهلكت أحذيتي بينما أجري لأقطع أنفاسي في المراعي. ومع ذلك، لا يمكنني القول إنّ هذا ساعدني كثيرًا على فهم العالَم.

ولكن مَن ذا الّذي استطاع فَهمَ العالم؟ أبي؟ أم أخي؟ أم ربّما جدتي؟ تبدو معركة لا فائز فيها. وإذا خسرها أحدٌ ما، فهذا الشخص بالتأكيد هو أنا.

أخيرًا، فُتحت أبواب «العالم الجديد» مرّةً أخرى، وارتفعت السّديلة اللّفافة! يمنحني القدر الفرصة الّتي أنتظرها لأجرّب تصليح قصتي، لأرجع شريط الزمن إلى الخلف، وربّما يمكن بذلك أن تتخذ الأحداث مسارًا آخر. إذا تخلّيت عن هذه الفرصة، قد أقضي بقيّة حياتي ندمًا.

الآن لن أهرع إلى المنزل لأجلس على المكتب وقلمي الرصاص بيدي، بل سأصنع عملًا استثنائيًا. لأتحرك، يكفي أن أضع قدمًا أمام الأخرى. والتّحرك يعني -بالفعل- أمرًا. أحضر الخريطة العقليّة لتساعدني: سأبتعد عن النافيليو، وأعبر الميدان، سأدور يسارًا ثمّ يمينًا، ثمّ -من جديد- يسارًا حتّى أصل أسفل منزلي. سأعبر محل بائع التبغ، وسأخفض بصري حتى لا تقابل عيناي عين صاحب المكان فأتوقف بعدها على الفور.

سأتوقّف أمام «العالم الجديد».

(5)

كنت في الثّانية عشرة من العمر، بينما كان أخي في الرّابعة عشرة، عندما وطئت أقدامنا ميلانو للمرّة الأولى. كانت المدينة الّتي حلمت بها تبعد عن الحصن خمس ساعات بالسيارة، وهو الزّمن الّذي قضيناه أنا وأندريا جالسين على المقعد الخلفي لسيارتنا الباندا رباعية الدّفع بلون ورق السكّر، وعيوننا معلّقة بالنّافذة الصغيرة، يقبض كلّ منّا على يد الآخر.

سبق ورأيت الكثير من الطّرق السّريعة في الأفلام مع أمّي، ولكن الطّريق هذه المرّة كان مختلفًا، لقد كان حقيقيًا: المستودعات والمصانع، ومواقف السيّارات، واستراحات الطريق السّريع، والمزارع والبقايا الأثريّة المتناثرة بين حقول القمح، والسيّارات الأخرى الّتي تتجاوزنا وبداخلها أطفال يمضغون العلكة، وأشخاص يستمعون إلى المذياع، ونساء يضعن أقدامهنّ على التابلوه الأمامي.

فجأةً وجدت نفسي مُنغمسةً في الواقع حتّى أخمص قدمي، واقع جديد كليًا، وكان تقريبا أكثر ممّا ينبغي. شعرت وكأنّني نزلت إلى كوكب سمعت عنه دون أن أعرفه، الوقت غير كاف للاستدارة نظرًا للسّرعة الّتي نسير بها. ليس هذا فقط، ففي نهاية هذا الطّريق تنتظرنا ميلانو.

تنتظرنا أيضًا جدّة لم أعرفها من قبل. أحضرنا لها خوخًا وبرقوقًا ناضجين جمعتهما بنفسي لجرا. أحضَرْنا لها أيضا أوراق السلطة والخضراوات والخبز الّذي نخبزه بأيدينا. وضع أبي نتائج إمتحاناتنا الحكومية في ملف، لِيطلعها على مهارة أمّنا في التّدريس، ويُثبت لها أنّ الدراسة في المنزل أفضل بكثيرٍ من أن نُحبَس في مُكعّب إسمنتي لنتلقى دروسا عن الحياة من شخص لا نعرفه، ولا نعرف كيف يمكنه ذلك، مع مخاطرة الإصابة بمختلف أنواع الفيروسات الجسدية والعقلية. وفي النّهاية، وضعنا في الحقيبة أرنبي الفرو.

أفصحت ميلانو عن نفسها بالفعل عبر الحقول المحيطة بها. قصور عظيمة ومبانٍ تقابلنا في الطريق. بعد الحاجز أخذت أنظرّ إلى أعلى، نحو السّماء، لأنّهم في ميلانو يسكنون أيضا هناك فوق، في الطّابق الثلاثين، وربّما أعلى من ذلك أيضا. ابتسمت وأنا أفكّر من جديد في بيانشاردي (١) وكلّ الأماكن المفضّلة لدى أبي في قريته المعزولة، ففيلم «الحياة الصّعبة» كان من الأفلام القليلة الّتي أعجبته: جَعَلَنَا نُشاهده عدة مرّات ليشرح لنا كيف أنّ المدينة تُفسد كلّ رغبة، تسمح بالنّجاح والثّراء لتترك المرء بعدها وحيدا وفارغا. كان يقول لنا: في المدينة يفقد الإنسان نفسه. كان الفيلم يعجبني في كلّ مرّة

ليس من أجل لوتشانو، ولكن بالأخصّ من أجل الزوجة والابن الّذي يفقدونه بالفعل.

وأخيرًا سحب أبي المكبح اليدويّ. كان الشّارع مكتظًّا بالنّاس، والترام يضرب جرسه معلنًا عبوره، النّاس يهرولون متّجهون إلى مكانٍ ما. مجرّد فكرة وضع قدم خارج السّيارة أرعبتني.

شرح لنا أبي: الترام خير مثال عن حياة المدينة: القضبان الّتي لا يمكنك الحياد عنها. هيّا، احملوا أمتعتكم، بيت الجدّة على بعد خطوتين من هنا.

ساعدناه أنا وأندريا على إخراج الحقائب، بينما استمرّينا في النّظر حولنا مندهشين نتبادل إشارات سرّية. أمسكت من جديد بيده لأشعر بالأمان وشدّ هو عليها. أخي هو الطّفل الآخر الوحيد الّذي رأيته يكبر، فهو الجانب الأكثر قوّة وشجاعة منّي.

لم نذهب من قبل إلى المدينة قطّ، ولكن عشنا ليالي كاملة نتخيّلها، نهمس أسفل الملاءة المشدودة فوق رأسينا، ونتسابق على من يمكنه الوصول إلى تفاصيل أكثر. الحمّام، والتراس، والترام، ومصابيح الطريق، والواجهات الزّجاجيّة، والشّوارع المضاءة بالأنوار الحمراء والبيضاء في ليلة عيد الميلاد. الآن أمسك بيدي صندوقين، ولكنّني لا أشعر حتّى بثقلهما. كنت منهمكة بشدّة في النظر حولي.

كلّ شيء رماديٌّ في المدينة، هكذا اعتاد أبي أن يقول. ولكن حتّى الرّماديّ كانت له درجاته، هكذا فكّرت: أسباراجوس، وأردواز، ورماد، وقتراني، وفي الطبيعة توجد أيضًا أشياء كثيرة رمادية: السحب المحمّلة بالأمطار، والسلمون المرقّط، وطائر العقعق، والشعر حول أذنَي أمّي. ما الّذي يعيب اللون الرّماديّ؟ ثمّ لم تكن كلّها رمادية! بعض المباني من الطوب وتميل إلى الكستنائيّ القاتم، وكيف لا يمكن أن نلاحظ مياه مجرى النافيليو ذات اللّون الأخضر الزيتوني، والشّارات ذات اللّون الأزرق القاتم، والقرمزي والبنفسجي، أو السّماء بلون زهرة الذرة؟

كان لون البناية الّتي تسكن فيها جدّتنا رماديًّا أردوازيًّا فاتحًا، على الأقلّ من الخارج. شعرت أمامها ببعض الشّكّ. كنت معتادةً على المزرعة الّتي نسكنها، والمغطّاة باللبلاب والزّهور المتسلّقة، والملوّنة أكثر من ذلك بكثير، وكلّها ملكًا. نسمّيها الحصن لأنّها تقع في موقع إستراتيجي: فهي تسيطر على الحقل المحيط بها، وتحميها غابة كثيفة تعزلنا عن المساكن القليلة المحيطة بنا. لا شيء فيها يشبه متوازي الأسطح المكتظّ بالنّوافذ الّتي أراها أمامي، تشبه إحدى خلايا النّحل الّتي نحتفظ بها في نهاية الحديقة.

لم نكد نضع أقدامنا في شقّتها الواقعة في الطّابق الثّالث، حتّى فطنت على الفور أنّ جدّتنا لا

تُشبه جدّات الكتب. فرائحتها ليست كرائحة البسكويت وذراعيها لم تحتضننا بحنان. كانت سيدة صغيرة الحجم ونحيفة جدا، شعرها خفيف وتبدو معتنية بنفسها، وتُخفي حزنًا ما داخلها. توقفت أمامَ العتبة وهي تنظر إلينا، كأنها مندهشة بأننا موجودون حقًا.

كانت الشقّة تعجّ بالأثاث والصُّوَر المُقدّسة.

- ما قيمة هذه الأشياء... يا جدّتي؟

سألها أخي، بعد أن دخلنا الصالون وهو يشير إلى قطيع حيوانات صغيرة من الزّجاج موضوع على قمّة خزانة من الأدراج.

أجابت هي: لطيفة أليس كذلك؟ ابتعتها منذ أعوام عديدة... مم... عديدة بالفعل!

أصر أندريا: ولكن ما فائدتها؟

- لماذا يجب عليها أن تكون مفيدة في شيء ما؟

بدأت عَيْنَا الجدّة تفحصان أعيُنَنا بقلقٍ واضحٍ، مثل طبيب يبحث عن أعراض تفيده في التشخيص.

ظل السّؤال عالقًا في الهواء بيننا بلا أيّة إجابة.

على العشاء قدّمت لنا الجيلاتين والرّزّ بالزّعفران وقطع من اللّحم. كلّ شيء مصنوع بفن.

- أموال مهدرة.

علّق أبي، وهو متضايق إلى حدّ أنه لم يهتمّ إن

كان هذا سيجرح شعورها. أجابت الجدّة بابتسامة تعيسة، ثمّ أضافت أنّها تعرّفت أخيراً اليوم إلى حفيديها ولذلك هي سعيدة بالاحتفال بهما.

عندما سمع ذلك، أظهر أندريا على وجهه تعبيراً بالامتنان، وعندما عرضت عليه الجدّة بعض النبيذ الأحمر المخفّف بالماء، قَبِلَ. وعندما رأيت أبي سمح بذلك، قبلته أنا أيضاً.

في ذلك المساء، بينما كنت مُستلقيةً على مرتبةٍ موضوعةٍ على أرض الصالون، بجوار أخي، شعرت بحبٍ شديد تجاه تلك السيّدة اللطيفة، الوديعة، التي تعيش بمفردها في منزل يعجّ بزينة لا فائدة منها، وتحتفل بأنفر أنواع الطعام، وشعرت بسعادة غامرة لأن تكون لي جدّة، ولأكون مثل الآخرين على الأقلّ في ذلك، وشعرت برغبة في أن أظهر لها ذلك. بمجرد أن ثقلت أنفاس أندريا، وكذلك أبي الّذي يغرق في النّوم على الأريكة، تسلّلت إلى الرّدهة، وطرقت باب حجرتها بهدوء.

عندما ظهرت أمامي مُلتَحِفة بروب أبيض لامع مثل السيّدات في الأفلام، همست: لدي هدية لكِ يا جدتي.

وقدّمت لها أرنبي الفرو، بعينيه المكوّنتَين من البلي وابتسامته الشقيّة، وشرحت لها أنني خطته بنفسي. وأضفت: في اللّيل، عندما أنام، يتجوّل هو حول العالم ثمّ بعدها يحكي لي ما رآه.

ظهر الاندهاش على وجه جدّتي، وبدت حزينة قليلًا: جميل جدا يا كنزي.

من خلال الستار لاحظت أنّ صور أبي تملأ جدران الغرفة، في طفولته وفي مراهقته، وفي شبابه. وكأنّه قد مات، وربّما كان ذلك نتيجة الشّعور الّذي عاشته الجدّة في الأعوام الّتي اختبأ فيها أبي في الحصن، رافضًا أيّ تواصل مع العالم الخارجي.

أصرّيت: بالتّأكيد يمكن لأرنبي أن يحكي لكِ العديد من القصص وأن يسلّيكِ.

- علينا أن نذهب لنرى العالم بأنفسنا يا صغيرتي، وامرأة في سنّي رأت بالفعل أشياء كثيرة.

تنهّدت الجدّة وهي تشير إليّ لأحتفظ به. لكن فجأة، أضاء وجهها وكأنّه مصباح قوّته ألف وات، وأعلنت: غدا سآخذك إلى مكان سيروق لكِ كثيرا.

ربتت على وَجْنتيّ بسبابتها الباردة قليلًا. وضعتُ يدي على يدها المصبوغة بالبقع القاتمة، والّتي أراحتها على وجنتيّ. انتابني يقين أنّه يمكننا أن نصبح صديقتين.

أخشى ترْك أبي بمفرده مع الجدّة لأنّني أعرف أنّ هذا يعني بداية «الحديث»، السّبب الحقيقي الّذي لأجله أحضرنا إلى المدينة.

ففي ذهن أبي مشروعٌ، ولكن تلزمه النّقود. لا

أعرف لو كان ينّوي قول الحقيقة كاملةً لها، أم سيتجنّب التّفاصيل. لقد تناقش أبواي في ذلك كثيرًا في الأمسية السّابقة على رحيلنا. تمسّك أمّي بأنّه في حالة طلب النّقود لا بدّ من التّمتّع بالشّفافية التّامّة، أمّا أبي فيرى أنّه من الحماقة توقّع تفهّم الجدّة ما يريده. قال إنّ هذا ضروري من أجل أماننا وحياتنا وحياة أولادنا.

ثمّ همس لها: من جهة أخرى، إذا لم يعجبك هذا يمكنك أن تستعيدي علاقتك مع عائلتك، والتّصرّف معهم بالطريقة الّتي تناسبك.

ولكنّني أعرف أنّ أمّي لن تفعل ذلك، فمنذ أعوام وهي لا تتحدّث معهم.

في كلّ الأحوال، لم تأتِ إلى ميلانو بسبب معاناتها من إحدى هجمات الصداع الشّديدة، فوعدتها بأنّني سأهتمّ بأن يتمّ كلّ شيء بالطّريقة المناسبة.

في صباح اليوم التالي، أغلق أبي باب المطبخ على نفسه مع جدّتي، فوصلني صوت حديثهما مبطّنا من خلال الزجاج المجلّد، بيد أنّني استطعت التقاط بعض قصاصات من الحوار: حراسة، ضرورة، حالة طوارئ، حواجز شبكيّة، حماية، أولويّة...

إذن فقد قال لها الحقيقة كاملة في النّهاية، ولكن الجدّة لن تبيع منزلها ولن تنتقل للعيش

معنا لتموّل أيّ شيء. لا يقبل بحدوث أيّة حالة طوارئ. بل اقترحت رداً عليه: أن نمكث أنا وأندريا معها في المدينة، ستعتني بنا، لأننا نحتاج إلى حياة طبيعية، إلى المدرسة وإلى الآخرين، فهي ترى منذ الآن أننا سنخرج من هذا الوضع متضررين.

سنخرج من هذا الوضع مُتضرّرين. لن أنسى هذه العبارة إطلاقاً. بدت تحذيرية، تحمل نقداً وغموضاً. أول شيء فعلته عندما عدت إلى الحصن هو البحث عن كلمة «متضرّرين» في المعجم.

في تلك اللحظة اكتشفتُ وجود أشياء وأشخاص يمكن أن يُصابوا بعطب مستعص، ولا يُمكن إصلاحهم، وأنّها بذلك المُصطلح كانت تقصدنا بالتحديد.

(6)

لم يكن لدى الجدة نقودٌ كثيرةٌ، لكنّها كانت تنفق كل ما لديها في شراء الأشياء.

أشياء لا تفيد، أشياء تُمدَح أو تُذمّ بلا خجل ممّن يراها، على الأقلّ، هكذا يفكّر أبي. فالجدّة هي ضحيّة الوهم الرّهيب، ولهذا، حسب قوله، هي تعيسة. بالنسبة إلي، لم يبد لي هذا سبب حزنها، ولكن معارضة أبي تعني المخاطرة بتلقّي نظرة تجرح أكثر من مئة نصل، والشعور بعدها بوحدة لا يمكنني تفسيرها بالكلمات، وحدة قد تستمر لفترة زمنيّة مفتوحة، وقد تستمر هذه المرة إلى الأبد.

ذلك الصباح، أعدّت لنا الجدّة وَجبة الإفطار (قهوة باللبن، وبسكويت جاهز حلو إلى حد أنه بدا غير حقيقي)، وبعدها في الصالون، أخذت تطير من مكانٍ إلى آخر بروبها اللامع كأنها فراشة، بحثاً عن فاتورة لا بد من دفعها أو عن مفتاح المنزل، أو عن عنوان دونته على ورقة ما. في النهاية، اختفت في حجرتها ثم عادت بثوبٍ من قماشٍ صناعيّ منقوشٍ بالورود، لونه مزيج من البنفسج والأزرق، وفي قدميها جورب وحذاء من الجلد ذو الرأس المدبب.

أعلن أبي أنّه سيذهب للبحث عن تمويل، وسيصحب معه أندريا. إذا لم ترغب أمّه في

تصديقه فهناك أمل في أن يفعل ذلك بعض المعارف القدامى. فالمستقبل غير مضمون ويجب الاستعداد له، لا بدّ أن يعثر على شخص قادرٍ على فهمه. قبل أن يتبعه خارج الشقّة، نظر إلي أخي نظرة يائسة: من الواضح أنه يفضّل أن يمكث معي أنا والجدّة. أشرت له بحركتنا السرية بتقاطع السبابة والوسطى، لأقول له إنّ كل شيء سيسير على ما يرام، وأن يتشجع، وأنه ليس وحده. أومأ برأسه متجهما، ثم خرج.

سألتني الجدّة بنبرة ماكِرة: هل تتذكّرين ما وعدتكِ به ليلة أمس؟

تنهّدت، وأنا ما زلت حزينة بسبب أندريا: تبدين جميلة بملابسك هذه يا جدّتي.

ابتسمت هي، بطريقة شبه مُتدلّلة، وصدَمَني هذا، لأنه بالنسبة إليّ، فقد تعلّمت أنّ وجودنا مُهدد بالفناء بين الفينة والأخرى، ولهذا لا أهمّية لما نرتديه طالما كان مُريحاً للعمل وللهروب في حالة احتياجنا إلى ذلك، لكنّها، والتي يبدو أنه لم يتبقَ لديها الكثير لتعيشه، تبدو مهتمة بمظهرها كثيرا. بل أسعدَها مدحي لها.

فتحت باب المنزل: هيّا يا صغيرة، لنذهب إلى مكان ساحر.

أطالت الرّحلة، وأطلعتني على الحيّ. ميدان الأشجار حيث الأرائك التي يجلس عليها الصِبْيَة

الّذين يُفضّلون التّقبيل على الدراسة (شعرت بالخجل قليلًا)، ومقهى يطل على الميدان حيث يوجد «اللاشيء» الآن، وطاولاته مشغولة بمجموعة من المُرتادين الدائمين. مرَرْنا بجوار جدران رسمت عليها عرائس صغيرة، آثار عبور، رسائل حب أو غضب. شرحت لي الجدّة أنها تسمى «موراليس» (أثارت هذه الكلمة قشعريرة في جسدي وكأنّها خطيرة، لكنّها أعجبتني).

مرَرْنا أمام محلّ حلوى في واجهته الزّجاجية توجد تورتة مغطّاة بطبقة من السكّر بألوان فاتحة، وشركة سياحة تأخذك حتّى المكسيك، ومحل عطور مليء بزجاجات لامعة وأقراط من المُخمل، تمنيت لو جربتها، ومغسلة يغزوها البخار.

في كثير من الأحيان، كانت الجدّة تتبادل التحيّة مع الباعة خلف الواجهات الزّجاجية أو تتوقّف للتحدث مع أشخاص تقابلهم في الطريق.

شرحت للجميع أنّني جيا، حفيدتها، موجودة في المدينة فقط لبضعة أيام، وكانت تضمني لها بكلّ فخر. يوجّه الأشخاص إلي ابتسامات فضولية، أحيانًا يسألونني أين أسكن وكم عمري، ولماذا أرتدي سروالًا مبقعًا بالدهن.

مَرَرْنا أمام ورش كان يعمل فيها الكثيرون من سكّان المنطقة، والّتي تستعد للإغلاق والانتقال إلى مكان آخر، حيث الإيجار أقلّ. عبرنا جسر النافيليو الصّغير إلى الكنيسة الّتي بدت وكأنّها

خرجت من كارت بريدي قديم، من تلك التي تستخدمها أمي كعلامة فارقة في كتاب، ثم عدنا إلى أسفل المنزل، وسلكنا الطريق الجانبي ثم توقفنا بعد بائع التبغ على الناصية أمام متجر بنوافذ حمراء ولافتة براقة.

قالت الجدة: أقدم لكِ «العالم الجديد».

كان اسمه العالم الجديد، إلا أنه يكتظ بأشياء قديمة. في واجهته الزجاجية، كومة من العلب الصفيح موضوعة باتزان على منضدة صغيرة بجوار مصباح زيت، ولعبة طاولة، وكتاب مغلف بجلد أخضر لون الغابة. كان يوجد أيضا دب خشبي، وبعض المراوح، ومكعبا خط، وكيمونو، وإطارات ملونة. بدا شيئا يشبه سندرة مسحورة، وصندوق كنوز، وعالما موازيا... لقد فهمتني الجدة أكثر بكثير مما اعتقدت!

داخل المتجر، كانت ثلاث سيدات يثرثرن بصخب. أكبرهن سنا، ذات بشرة فاتحة للغاية يغطيها النمش، وضفيرة بيضاء طويلة وسميكة، لاحظتنا على الفور ودهشت أنا من إمكانية أن يسعد شخص ما لرؤية شخص آخر بهذا الصدق.

هتفت عندما رأت جدتي: آنّا عزيزتي، صباح الخير!

ترتدي السيدة شيئا يشبه العباءة بلون البطيخ، وبنطلونا بيجا، وحذاء رياضيا. وفي كل إصبع،

ترتدي خاتمين أو ثلاثة خواتم، برّاقة للغاية، واحد على شكل ثمرة كرز وآخر على شكل وردة... لم أرَ قطّ خواتم كثيرة غريبة كهذه.

تمتلك أمّي بعض الخواتم، ولكنّها رفيعة، ومرصّعة بأحجار كريمة صغيرة، تحتفظ بها في الخزانة ولا ترتديها أبدا. لماذا ترتديها إذا كان من تَراهم طوال اليوم هم زوجها وولديها؟

في إحدى المرّات فاجأتها في ظلال الغرفة والمصاريع مواربة، شعرها منسدل على كتفيها وتبدو مستغرقة في التّفكير، تتأمّل الخواتم كأنّها فرص ضائعة. عندما لاحظت وجودي، قبضت عليها بإحكام، وأخفتها عن نظري، وهمست بأنّها أشياء تافهة بلا فائدة، وأنّها سعيدة هكذا. اتّخذت نبرة غاضبة وربّما حزينة، لم أستطع فهم ذلك. كالعادة، كانت أمّي صندوقا مغلقا دائما، حتّى بالنّسبة إليّ.

- ومَن هذه المخلوقة الصّغيرة الرّائعة؟

سألت السّيّدة ذات الضفيرة في طريقها لاستقبالنا على باب المتجر.

تعلّمت طريقة تقديم نفسي من الأفلام، ومن أمّي أيضا: «انظري مباشرة في عيني الشخص، وشدّي على يده بحزم، وبابتسامة الفظي اسمك بوضوح وبصوت مرتفع». كانت معلومات كثيرة يصعب على الذّهن تذكّرها كلّها، وخاصّة لِمَن لم

تُتح له فرصة ممارستها. كانت النّتيجة سيئة للغاية، لم أستطع أن أرفع رأسي لأنظر إلى السيّدة، ولم يصدر عنّي أيّ صوت. اكتفيت بالانكماش على نفسي وحدقت في طرف حذائي.

- إنّها جيا، حفيدتي.

أوضحَت الجدّة وهي تدفعني خطوةً إلى الأمام.

- وأنا دوروثي.

أجابت السيّدة، وهي تنحني لتنظر إلى عينَيّ. كانت الضفيرة كالفراشة خلف ظهرها.

دوروثي، مثل بطلة كتابي المُفضّل! دوروثي الصبيّة الّتي جرفها الإعصار إلى بلدة أوز العجيبة. حول الحصن لا توجد أراضٍ مهجورةٌ مثل كنساس، ولكن ثمّة غابة على مرمى العين، ولنحمي أنفسنا لا نثق بثقب في الأرض، ولكن لدينا ملجأ جيّد. وأنا أيضًا كنت أشعر أنّني مثل تلك الصبيّة، أعيش في انتظار إعصار يحملني بعيدًا عن المنزل، لينقلني إلى العالم الحقيقي، ويغيّر حياتي. وبينما أنظر إلى المتجر، فكّرت أنّ هذا الإعصار ربّما وصل الآن.

السيّدة الّتي تقف أمامي اسمها دوروثي، ولا بدّ أنّها إشارةٌ ما. وبالغريزة التفتُ لأبحث عن نظرة أخي، بالتأكيد كان سيفهم بلا كلمات، وكان... ولكن أخي ليس هنا. فهي تجربة أعيشها بمفردي، التّجربة الأولى بالنّسبة إليّ.

تُحدّق فيَّ دوروثي. عيناها الزّرقاوان تلمعان، ولكنّني لمحت فيهما ظلالًا مثل أسماك تتراقص أسفل سطح مجرى المياه الّذي أذهب إليه مع أبي للصّيد. فكّرت في تلك اللحظة أنّني أحبّ أن أصبح مثلها وأنا عجوز، غامضة ومضيئة في الوقت نفسه. وأريد أن تتدلّى من رأسي ضفيرة بهذا الطّول، تبدو وكأنّ لها حياتها الخاصة.

وأخيرًا صاحت: تفضّلا. مرحبًا بكِ في عالمي. العالم الجديد، ولكنّه أيضًا عالم كلّ من يتمنوه.

أثناء دخولنا، كانت المرأتان الأخريان تثرثران في ما بينهما. الأصغر سنًّا تستند إلى بيانو، وترتدي نظّارة وتمسك بيدها مجموعة مجلّات. والأخرى، أنيقة على الرّغم من ملابسها القديمة، تجلس على أريكة مغطّاة بالقطيفة. تشبه الأصغر سنًّا، وفكّرت أنها ربّما تكون أمّها.

أعلنت دوروثي بإيماءة استعراضيّة: أقدّم لكما جيا!

أصبحت قدماي مثل قصب البامبو في مهبّ الريح. بدا أنّ الجدة تعرف السيّدتين الأخريين، لأنهنّ تبادَلنَ السّلام بشكل طبيعي. أو ربّما هذه طريقتهم في المدينة؟

وصاحتا بصوت واحد: مرحبًا يا جيا!

علّقت العجوز الأنيقة: نبدو كأنّنا في برنامج الكحوليّين المجهولين.

وانفجَرْنَ جميعهنّ ضحكًا.

مزحت الشّابّة: أنتِ كحوليّة قليلًا.

أمطرتني الأخريان بوابل من الأسئلة والمديح، أين أسكن، كم عمري، كم أنا أنيقة ببنطلون الصبي هذا، وكيف يبدو أنني ذات شخصية.

كنت أحبّ المتاجر، أو على الأقلّ، أحبّ محلّ المعدّات، والّذي لا يسمح لي ولأخي بالدّخول إليه إلّا برفقة أبي. الوفرة في المعدات والأدوات الجديدة اللّامعة، الأدراج المكدّسة بالبراغي والمسامير والمفكّات بمقاييسها المختلفة، ومشابك الخراطيم، والمسطرينات، والمفاصل والسنج. إذا سألني أحدهم ماذا أريد أن أفعل عندما أكبر، لأجبت أن يكون لدي متجر. تعجبني فكرة أن أمكث بين أربع جدران خلف واجهة زجاجيّة، مع وفرة كبيرة من الأشياء، ويعجبني أن يرتاد النّاس المكان باحتياجاتهم ونواقصهم، بآرائهم وشكوكهم، والّتي يمكنني أن أجيب عنها وإليها.

وأيضًا، فكرة إدارة الخزانة المليئة بالنّقود والعملات النقديّة تشعرني بأنّني مُهمّة وقويّة، جزءٌ من كيان أكبر منّي. في الحصن يوجد القليل جدًا من النّقود. يعتبر أبي النّقود وهمًا كبيرًا، فعند حدوث كارثة ما، لن تفيد النّقود في أيّ شيء، بل ستصبح عملات التّبادل هي الطّاقة والغذاء والبترول.

لم أعترف له قطّ برغبتي في فتح متجر. لا يجب أن يعرف أنني أحلم بخيانته، بسذاجةٍ مني ومن دون وعي.

قالت لي دوروني وهي تنظر إليَّ بفضول حقيقي: حكت لي جدتك أنك تُجيدين إصلاح الأشياء.

خفضت نظرتي وأنا أشعر بأذُنيَّ تشتعلان: يُعجبني إصلاح الأشياء.

في مدخل المنزل توجد دائمًا أكوامٌ هائلةٌ من الأشياء التي عُثر عليها في الجوار: أسلاك كهربائيّة، وأثاث، وزنبرك، وزجاجات، ووسادات، وحاويات، وألعاب قديمة، ومذاييع... كان عليّ أنا وأندريا واجب تصنيفها، واصلاحها أو تفكيكها للحصول منها على أجزاء يمكن إعادة استخدامها. كنّا نقضي كلّ الأمسيات تقريبا، وحتّى موعد الذهاب إلى الفراش، في العمل في الجراج. تعجبني فكرة أنّ لكلّ شيء حياة سعيدة، ربّما أكثر من حياة، وأبذل قصارى جهدي لمنحه مستقبلًا ما. يمكن لصحن ملتصق أن يصبح حامل الأدوية، ومصباح مكسور يتحوّل إلى زينة عيد الميلاد، وبلاطة مشروخة يمكن أن تتحول إلى حامل أوان مضادّ للحرارة. كنت أنا وأخي نستمرّ في العمل حتى نشعر أنّنا حقّقنا معجزة صغيرة، واذا لم نستطع العثور على استخدام فوري لها، نتأكّد من توفير مكان لها في غرفة الكنوز، وهي مخزن ملحق

بالجراح. سنحتاج إليها عاجلًا أم آجلًا. ألجأ كثيرًا إلى غرفة الكنوز: فهي غرفتي المفضلة، إلّا أنها لا تقارن على الإطلاق بالمتجر الذي أوجد فيه حاليًا.

أعلنت دوروثي، بنظرة لامعة: إذن أعتقد أنكِ في المكان المناسب.

تمتمت: هذا المتجر؟

- ليس مجرّد متجر، إنّه مكان يمكننا فيه العثور على أنفسنا من خلال الأشياء الّتي تختارنا.

وأشارت إلى لافتة حمراء معلّقة على الجدار، بالتحديد فوق الخزانة. كان الخطّ خفيفًا وأنيقًا، ومشوشًا قليلًا: في هذا المتجر، لا يوجد ثمن للأشياء، ولكن كلّ شيء له قيمة.

- لتلقي نظرة، ثمّ سأطلعكِ على شيء..

في تلك اللحظة، طلّت من المدخل فتاة مجعّدة الشعر: دوروثي، أهلًا! أهلًا بالجميع! هل اللوحة جاهزة يا عزيزتي؟ المعذرة فأنا في عجلة من أمري...

أخرجت دوروثي من خلف الخزانة إعلانًا قديمًا: جيليت، أحدّ شفرة حلاقة في العالم.

ضحكت العميلة وهي تنظر إلينا: إنّه من أجل حماتي! كم أنت بارعة في النصائح بشأن الهدايا يا دوروثي! سأهرب الآن!

وذهبت واللوحة المرسومة أسفل ذراعها.

ثمّ استأذنت دوروثي وذهبت لتردّ على الهاتف.

أخذت تلعب بسلك الهاتف وتلفّه حول إصبعها بينما تتناقش حول خزانة قادمة من بولندا. أثناء التحدّث، كانت دوروثي تخطو بعض الخطوات ذهابًا وإيابًا، تلمس الأشياء وتنقلها بشكل طبيعي، دون تفكير، وكأنّ ميزة كهذه هي أكثر شيء طبيعيّ في الوجود.

كانت السيّدتان وجدّتي يثرثِرنَ، كما لو أنّهنّ جالسات في حجرة الصالون، عن صديقة تقضي في جواتيمالا رحلة زواجها الثاني.

اقتربت من فرقة جنود من الصّفيح مصفوفة على سطح أحد الأرفف. كانت رائعة إلى حدّ أنني لم ألحظ البطاقة إلّا بعد فترة:

كان توماس الابن السّادس لزوجين من العمّال الألمان، اللّذين يعملان في مصنع معلبات صفيح. وُلد متأثّرًا بمرض وراثي يسمح له بأن يعيش على أقصى تقدير سبع أو ثماني سنوات فقط. يأسا من حال ابنه، بدأ الأب يسرق الصفيح من المصنع ليصنع ويلوّن له جنديًا تلو الآخر في السرّ. وفي يوم عيد ميلاد توماس السابع، لم يذهب الأب إلى العمل، بل وضع تماثيل الجنود الصغيرة على طاولة المطبخ ودعا ابنه. التفّ الأخوة الآخرون أيضًا حوله. عاش توماس حتّى بلغ الثلاثين من عمره. لم يسمح لنفسه أن يموت حتّى لا ينفصل

عن كنزه. أشكّ أنّ شخصًا أحبّ شيئًا بشدّة مثلما أحبّ توماس تماثيل الجنود الصّغيرة، وكما أحبّ هذا الأب ابنه. د.

وبإمعان النّظر، لاحظت أنّ كلّ شيء تجاوره بطاقة تحكي قصّته، مكتوبة بخطّ اليد.

هرعت لأقرأ حكايات أخرى. البطاقة الخاصّة بمصباح مكتبي بغطاء زجاجي أزرق، يقول:

كانت الموسيقى هي كلّ شيء بالنّسبة إلى أماندا جيلار، مؤلّفة موسيقيّة من ويلز. بعد العمل، كانت تنزوي في حجرتها وتؤلّف الموسيقى في سكون الليل، على ضوء هذا المصباح. لم تسمح ميزانيّاتها بابتياع بيانو، ولكنّها لم تكن بحاجة فعلية إلى ذلك، لأنها كانت تشعر بالموسيقى داخلها. لم تحلّ بالشّجاعة قطّ لتطلع أي شخص على عملها. كانت فقيرة جدًا إلى حد أنها اضطرت لبيع جميع ممتلكاتها. لكنّها لم تبع هذا المصباح، الّذي رافقها إلى ملجأ المشردين ثم بعدها إلى الشارع. وبفضل كرم بعض فاعلي الخير، استطاعت إضاءته دائمًا. ذلك الضوء منحها عزف الموسيقى داخلها من جديد، وبهذه الطريقة فقط استطاعت أن تؤلّفها. اكتشفت أعمالها الموسيقيّة بعد موتها، وأثارت دهشة الجميع.

وتحكي البطاقة المعلّقة بطاقم أدوات المائدة الفضيّة أنّ «الأميرة سيسي شخصيًا قد استخدمتها، عندما حلّت ضيفة على مركيزة أتيليو في النّمسا عام

1878م».

أخذتني الجدّة إلى مكان يحرس قصصًا أكثر من أيّ مكان آخر رأيته في حياتي!

- تعالَي! فسنعِدّ الشّاي.

قالت لي دوروثي، مفاجئةً إيّاي من خلفي بينما كنت أقرأ البطاقة المعلّقة على مجموعة من التماثيل الصّينيّة الصّغيرة الّتي عُثر عليها في فندق جبلي خمس نجوم، ولم يعرف أحد صاحبها.

قفزت: الشاي؟

قادتني دوروثي إلى الجزء الخلفيّ من المتجر، حيث تشغل جزءًا منه أرفف معدنية وضِعت عليها أشياء بعضها مكسور وبعضها الآخر وضع بشكل سيئ، بحاجة إلى يد محبّة لإصلاحها وترتيبها. أميل إلى الجلوس على مقعد والتأمّل فيها واحدةً تلو الأخرى. يبدو أنّ دوروثي فهمت ذلك، لأنّها بعد أن ملأت المياه في الغلاية ووضعتها على النّار، التفتت نحوي وقالت: هل ترغبين في مساعدتي على استعادة تلك الروائع؟

تمنّيت ذلك بصدق. أردته أكثر من أيّ شيء آخر. لكن الاعتراف بذلك يعني فقد شيء مهم للغاية لم أستطع حتّى أن أضعه في الحسبان. فأنا في المنزل أيضًا أصلح الأشياء، وهناك أفوز بِحُبّ أبي.

نظرت حولي، لأتجنّب الرّدّ الفوريّ. في إحدى

الزّوايا، يوجد فِراش عليه غِطاء مُرقّع، وبجواره على الأرض كَومَة من الكُتُب على قمّتها نظّارة ذات إطارٍ أحمر، وزبدة كاكاو، وأمام المطبخ الصغير يوجد مقعد وتحت مدرسة يستخدم كطاولة.

- يبدو وكأنّنا في كوخ أحد النُسّاك.

ابتسمت هي: ربّما الأمر بالفعل كذلك. ولكن لحسن الحظّ لسنا على قمّة جبل شاهق، ويمكن للكثيرين أن يأتوا لصحبتي. لذا، لا أشعر بالوحدة أبدًا.

قالت ذلك بعين مُغشاة بالحزن، إلّا أنّها في الوقت نفسه كانت تبعث هالة من الرّضا تجذبني. بدت لي دوروثي تتمتّع بالحياة أكثر من كلّ الأشخاص الّذين عرفتهم في حياتي.

بدأت الغلاية تُصفّر: يا إلهي!

صاحت ثمّ جرت لتُطفئها.

سكبت داخلها بعض الماء البارد وخلطته بملعقة صغيرة، ثمّ أخرجت بعض الأوراق الجافّة من علبة صفيح، وضغطت على بعضها في كرة معدنية من الشّبك، وغطّستها في الغلاية. بعد أن رتّبت ساعة رمليّة، وخمسة فناجين على صينيّة، أخذتها إلى الصّالون. ونظرًا إلى أنّني لم أعرف ما يجب عمله، تبعتها.

قدّمت دوروثي الشّاي للجميع بما فيهنّ أنا. كان

الشّاي ساخناً وقاتماً، بلا سُكّر. أخذت الأخريات الفنجان دون أن يتوقّفن عن الكلام، وكأنّ ذلك طقساً يومياً.

دخل صبي، وهو يقول: هل يمكنني الدّخول؟

ثمّ جلس في إحدى الزّوايا.

أجابت دوروثي: عزيزي، هل ترغب في بعض الشّاي؟

رفض وقال: لا أريد العيش بعد الآن. إنّه يوم السبت! ماذا يفعل المرء بمفرده يوم السبت؟

- يا عزيزي، إنّ الانفصال عن الحبيب مثل الوفاة... مراحله: الرّفض والغضب، والحزن واليأس... وفي النّهاية يأتي القبول. إذا وصلت إلى اليأس فأنت على وشك الشّفاء، أؤكّد لك.

غضب هو: لن أنساها أبداً. سأظلّ أفتقدُها إلى الأبد.

تدخّلت السّيدة العجوز الجالسة على المقعد المُخمليّ، وهي تُخرج من حقيبتها رزمةَ أوراقٍ:

- هناك أشياء لا يمكن سماعها! اقتربْ إلي هنا، وسأقول لك كيف ومتى تُشفى من ألم الحب.

كانت الأوراق تحتوي على رسومات غامضة: رجل معلّق رأساً على عقب، وعجلة خشبيّة، وهيكل عظميّ، وملاك يعزف على البوق.

وأثناء ذلك دعتني دوروثي إلى الجانب الآخر

من المتجر: تعالي.

على الرّفّ العلويّ من الخزانة، وُضعت أوزتان من السيراميك. أخذتهما لتطلعني عليهما.

قلت: يقول أبي دائمًا إنّ الإوزّة هي الحيوان الحامي المنزل. فهو يؤمن بكلّ ما قاله الإغريق القدماء.

فكرت هي قليلًا في الأمر:

- أجل، هذا حقيقي. الإوزّة تحمي عالمها، لكن لديها أيضا أجنحة تمكّنها من الطيران. وهذا هو الشيء الجميل.

ثمّ غمزتني بعينها قبل أن تُسلّمني واحدة: إنّها ناسكة، ولكنها ترغب في تكوين مجموعة. لا يتناقض هذان الشيئان بالضرورة، إذا أحطتِ نفسك بالأشخاص المناسبين.

كانت الإوزّة باردة، وأكبر من كفّي. أدرتها بأصابعي ولاحظت كلّ تفاصيلها.

- إنّها إنجليزية، رسمتها يدويًا سيّدة ترمّلت في عزّ شبابها. سكنت مع مئات الإوزّات وكانت تصنع تلك التّماثيل الصغيرة لتكسب معيشتها. تبدو كلها متشابهة، ولكن كلّ منها فريدة.

كانت مُحقّة. فنقار إوزّتي أكبر من منقار إوزّتها، ولديها شريط أحمر حول رقبتها. عندما هممت بإعادتها إليها، رفضت وقالت:

- احتفظي بها. اجعليها ترى العالم. ثمّ أحضريها

إليَّ بعد ذلك، لأنّ هذا هو مكانها.

هززت رأسي. لا يمكنني قبولها لأنّني رُبّما لا أعود أبدًا. فقد حُذّرنا بأنها ستكون المرة الأولى والوحيدة لنا في المدينة، لا بدّ من معرفة ما نرفضه ثمّ بعد ذلك ننساه.

أكملت دوروثي: عندما ستعودين ستكون هنا مارجريت ابنتي. ستتولّى هي أمر هذا المكان. عِديني أن تساعديها.

- أنا؟

أجبت بصوت ضعيف. كيف يمكنني أن أقدّم مثل هذا الوعد؟

تدخّلت الجدّة التي لَحِقَت بنا: هيًّا أوعديها. فكّري كم سيكون رائعًا المكوث وسط كلّ تلك الأشياء الجميلة؟

ولكن لديّ أشياء أخرى كثيرة لأصلحها في المنزل. أشياء يمكنها أن تنقذنا: في حال حدوث كارثة...

- يكفي الحديث عن تلك الكوارث!

قالت الجدّة وقد نفد صبرها.

- نحن نعيش محاطين بالكوارث يا عزيزتي، ولا يوجد شيء يمكننا عمله لنحمي أنفسنا. لا بدّ أن نعيش اللحظة الحاضرة. ليس أمامنا سوى الحاضر.

خجلتُ ممّا قلته ومن التعاليم التي تلقّيتُها.

ثمّ خَتَمت: لنذهب وإلّا اعتقد أبوكِ أنّنا ضعنا.

أردت أن أقول إنّ أبي لن يعتبرني ضائعة أبدًا لأنه علّمني كيف أعثر على طريقي إلى المنزل أينما ذهبت. ولكنّ الفكرة هي أنّني لا يمكنني «الذهاب».

(7)

أرفع عيني نحو اللافتة، وأتشبث بحمّالتَي حقيبة الظهر بإحكام. «العالم الجديد». تضرب أشعة الشمس، المرتفعة الآن، الحروف الباهتة، وتذكّرني بالمرّة الأخيرة التي أتيت فيها إلى هنا، وأنا في يد جدتي المرتدية ثوبا بنفسجيا أزرق منقوشا بالورود، وحذاءً مستدير الطرف.

فُتحت الأبواب والشبابيك الحمراء للمتجر، في الداخل يغطّي التراب كلّ شيء. يبدو أنني أطلّ على منزل هُجر في سرعة وعلى عجل، حيث ظل كل شيء على حالته. لا يمكنني تحمل فكرة إطلالة دوروثي مرّة أخرى من الظلام. بحسبة سريعة لا يمكن أن يحدث هذا، نظرا إلى مرور خمسة عشر عاما، ولكن لا شيء مستحيل. من انتظرتها بالفعل هي مارجريت، ابنتها.

منذ ذلك الحين، لم أتوقف عن تخيُّل هذه اللحظة، وأنا أخشى، في أعماق نفسي، ألّا تحين أبدا. أقف على حافة الرصيف، أطراف قدمي على الحافة، وكعباي معلّقان في الفضاء، أهتزّ إلى أعلى وإلى أسفل. في يدي أقبض على الإوزة السيراميك، والتي لم أنفصل عنها قط. خبأتها عن الأعين في خزانة الحمّام، في الحصن، والآن أحفظها دائمًا ملفوفة في منديل حريري في الجيب الجانبي للأوفرول.

أقول لنفسي: ادخلي. المتجر تقريبًا كما أتذكّره، لكنّه أصغر، ليس أصغر حقًا، ولكن له حدود، بينما اتّسع في ذاكرتي حتّى أصبح قصرًا به عشرات الغرف. ما تزال النجفة الكريستال متدلّى في منتصف السّقف. ربّما لا يستطيع الجميع شراء نجفة بسهولة. إلّا أنّها تمتلك منظرها الخاص.

في أحد الأركان، تقبع طاولة مستديرة أنيقة من الزّجاج الورديّ، تحيط بها كومة من كراسٍ خشبية كسرت ساق أحدها. لن أندهش إذا سقطتِ الكومة في أيّة لحظة. يكفي إصلاح السّاق المكسورة بالراتيج المُركّب. في هذه المرحلة، ربّما يستحق الأمر تقوية كُلّ الكراسي وإعادة طلائها بزيت معقّد لمنحها على الأقل عشر سنوات إضافية. هي أيضًا تحتاج إلى بعض مساحيق التّجميل.

على الأرض أرى صحنًا بعيدًا قليلًا عليه كتابة لا أستطيع تمييزها. غطاؤه مُزحزح قليلًا بسبب ثقل طقم شاي كامل موضوع عليه. أتعرف إلى شكل وردة الطقم، ذلك هو الفنجان الّذي قدم لي...

وهكذا أتشجّع وأعبُر العتبة. كان الفنجان بين يدي في وقتٍ ما، وها هو بين يديّ الآن. أرى من جديد دوروثي والسّيدات وكومة الورق، والصّبي الّذي يعاني من مشكلات في الحبّ. يبدو لي أنّني أشمّ رائحة الشّاي من جديد.

تبدأ تدريجيًا الأشياء المحيطة بي في الظهور من

الظلال. واجهة زجاجيّة مليئة بمشابك الملابس والأقراط، ومصباح بغطاءٍ مرسوم يدويا، وطاولة رخامية صغيرة ورائعة، ومقعد أخضر بغطاء متهالك. على أريكةٍ ما ألاحظ كيس خياطة قديم، ودميتين توأمتين من الخزف، وروب من الحرير يبدو ناعما، وثلاثة كتب ضخمة مغلفة بالجلد، وبعض عبوات الصفيح المبهجة. على البيانو، توجد السّاعة الرّمليّة التي استخدمتها دوروثي لقياس زمن ذَوَبانِ الشّاي، تقف مستقيمة جوار فرشاة فضّية، وطفّاية سجائر شرقيّة، ومزهريّة طويلة من الأزرق السافويا. كلّ قطعة لها بطاقتها الّتي تحكي حكايتها. أثناء اقترابي من السّاعة الرّملية، أتعثر في إطار كبير موضوع على الأرض.

- مَن هناك؟

يصيح صوتٌ نسائيٌ من الخلف.

أتنحنح ثمّ أنادي والانفعال يفترسني: مارجريت؟

بعد لحظاتٍ قليلة، تظهر امرأة طويلة، شعرها مضموم من الخلف في لفّة من المخمل الوردي المشمشي. تبدو تقريبا في سني. القميص البيج الّذي ترتديه من حرير فاخر، أنا متأكدة من ذلك. فأمّي كان لديها ثوب من حرير مماثل، واحتفظت به من أيّام المراهقة. عندما كانت تخرجه من الخزانة لتهويته، تغمس وجهها داخله كما لو أنّه بحيرة. يصل بنطلونها الأسود الضّيق إلى

كاحليها المُدبّبين، مليئة بالعظام والأوتار. أظافر قدميها تظهر من الصندل ذي الكعب العالي، مطلية بشكلٍ رائع إلى حدّ أنها تبدو مصطنعة. وتصلني رائحة عطر حلو ووردي.

لا أخفي أنني أحيانًا أحبّ أن تكون هيئتي كهذه. للأسف ارتداء كعبين مثل هذا، مخاطرة كبيرة. في حالة الفيَضان، أو الزلزال، أو الحرب الأهلية، كيف يمكنني الجري سريعًا؟ وحتى إذا استطعت نزعهما عن قدمي بسهولة، إلى أين يمكنني الوصول حافية القدمين؟

في الواقع، يبدو الكعب عائقًا حتى في حالة ارتدائه هنا بالداخل، بينما تبحث عن طريقها بين الطاولات والأشياء لتقترب مني.

أجد الشّجاعة لأسألها: هل مارجريت هنا؟

تُلقي الفتاة بنظرة حائرة على بذلة عملي وتفحص حذاءي الضخمين ذوي الطرفين المقويين. أحرّك قدمي بالغريزة لأخفيهما، لكنّها ليست فكرة حمقاء، فأنا أرغب في أن أقول لها: لا يُمكنك معرفة ما قد يسقط فوقهما.

تُجيب أخيرًا: أنا شركة أب هاي UpHigh.

- آه حضرتك شركة؟

- لا لست شركة، بل من الشّركة. إذا كنتِ مُهتَمّة بالعقار، يكفي أن تُرسلي لنا بريدًا إلكترونيا على...

- بأيّ معنى؟
- بمعنى أنّ شركتنا تتولّى بيع هذا العقار.
تشرح لي بنبرة متكلّفة، بينما تُمسك بِيَدها ورقة مُغلفة ببلاستيك، مكتوب عليها بأحرف كبيرة بالفعل، للبيع. تضعها على الأرض ثم تُخرج من حقيبتها لاصقا مزدوجا.
- يتمّع المتجر بواجهة زجاجية جميلة تُطلّ على شارع هادئ، ولكنه مزدحم بالمارّة، قريب من العديد من المجمّعات السكانيّة الراقية المبنيّة حديثا. والحيّ في نمو كبير. على بعد خطوتين فقط يقع مجرى النافيليو، فيه كلّ المميّزات ليصبح استثمارا رائعا.
- لكن ماذا عن دوروثي؟ ومارجريت؟
- حَضرتك أوّل من أتوا. إذا يهمّك العقار يمكنك أن تتصلي بنا عبر البريد الإلكتروني لتحدّدي يوم وساعة الزّيارة.
أحدّق في الأرضيّة حتّى لا أضحك: لكنّني هنا بالفعل...
- أنتِ هنا، لكنّني سأغادر حالًا.
علّقت الورقة بالشّريط اللّاصق، ونظرت إلى ساعتها السمارت:
- بل كان لا بُدّ أن أغادر منذ عدّة دقائق.
أتشبّث بكيس طعام أنجلينا في يد، وبحمّالة

حقيبة الظّهر بالأخرى. لا يبدو أنّني فهمت الموقف جيدا: هل تبيع مارجريت المتجر؟

ترفع المرأة عَيْنَيها نحو السّماء: صاحبة المتجر ماتت منذ فترة، هذا ما أعرفه، والمتجرِ أصبح ملك الدّولة. الآن ابتعناه نحن ونعيد بيعه. هذا كلّ ما في الأمر.

أنظرُ حولي، نظراً إلى أنّها تتحدّث بالجمع، ولكن لا يوجد سوانا في المكان.

صدَمَني الخبر، ولم أعرف بما أجيب.

دوروثي لم تَعُدْ موجودة. يمكن إذن للمرء أن يلفّ العالم بطوله وعرضه، ولكنه لن يعثُر عليها. تلك الضفيرة البيضاء الفريدة، تمامًا كما هو فريد كلّ ملْمَح من ملامحنا الجسديّة، كما هو فريد كلّ خطّ على جلد الحمار الوحشي، وكما هي فريدة كل قطعة من القطع في هذا المتجر، تلك الضفيرة اختفت إلى الأبد. لن تعرف دوروثي أبدًا أنّني عدت، وأنّني موجودة في المدينة منذ خمسة أعوام أنتظر العودة إلى عالمها، وأنّ الإوزّة معي، وأنّني بعودتي...

أحاول: صاحبة المتجر لديها ابنة.

تتجاوزني الفتاة حتّى تخرج وتُعلّق اللّافتة. أتبعها إلى الخارج.

- لا بُدّ أنّها رفضت الإرث.

تعلّق هي بينما تحاول أن ترتفع على أطراف

أصابع قدميها لتطلّقها في أعلى موقع ممكن.

- يحدث هذا أكثر ممّا تتخيّلين. بالإضافة إلى أنّ الأثاث ضخم جدًا ليأخذه أيّ شخص معه إلى العالم الآخر.

بمجرد عودتها إلى داخل المتجر، أدخلت يدها في حقيبة وأخرجت مترا قابلًا للطيّ من النوع الاقتصادي. راقبتها وهي تحاول الوصول إلى السقف لتقيس الارتفاع ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام في كل مرةٍ يسقط فيها الشريط المعدني فريسة لقانون الجاذبية.

أفتح حقيبة ظهري وأمدّ للسيّدة المتر الّذي أستخدمه من نوعية ستانلي: إذا أردتِ يمكنكِ استخدام هذا.

تكرمش حاجبيها حائرة. لماذا تحمل هذه الفتاة معها مترا قابلًا للطيّ، بدت وكأنّها تتساءل، هل يا ترى يجب أن أستدعي الشرطة؟ بدت مشكّكة في ما يجب عليها فعله، ولكنّها في النّهاية قبلته.

أقول: أنتظر إعادة فتح هذا المتجر منذ فترة طويلة.

تؤكّد، وهي تمسح قيصها الثمين: المتجر لا يُفتح من جديد، المتجر للبيع.

تعيد إليّ متر القياس، دون حتّى أن تفتحه: سأعود بالمقياس الليزر، إنّه أفضل.

يُمكنني مساعدتها، ولكنّي لا أرغب في أن أبدو

مُتطفلة. للأسف، الأمر لا يَخصّني. أعيد المتر إلى الحقيبة.

أحاول أن أطلب: لقد تركتِ شيئًا هنا في الدّاخل قبل خمسة عشر عامًا... هل يُمكنني التأكّد إذا كان لا يزال موجودًا؟

يتجهّم وجهها، وتنشغل فجأة بإشارات الهاتف: لو يهمك كثيرا... لديك تقريبًا خمس عشرة ثانية.

- أشكرك.

أندفع إلى المكان الّذي كانت توجد فيه الخزانة، ولكنني لا أجدها. أدرك أنها نُقلت إلى الخلف. داخل الواجهة الزّجاجية، سقطتِ إوزّة دوروثي، ولكنها لم تتكسر. لقد أصبحتُ الآن أطوَل، وأستطيع لَمَسها دون أن أضطرّ للوقوف على أطراف أصابعي. أعيدها إلى وضعها الصحيح وأبدأ بالتّحديق فيها، وميض في سفينة غارقة. للبيع.

- إذن؟

أتنهّد في طريق عودتي: للأسف لم أعثر على ما كنت أبحث عنه.

- مرحبًا بك في النادي.

تُجيب الفتاة وهي تتصفّح المحمول بين أصابعها.

أحاول الابتسام.

يضعني المزاح في مأزق. ففي الحصن لم نكن

نعطي أهمّية للدعابة، فالضّحك لا يُفيد بشيء، لهذا لم أمارسه قطّ. أفضّل كثيرًا إصلاح مكيف الهواء عن إلقاء نكتة. أحيانًا يصلني الرد المناسب بعد يومين، ربّما وأنا أسفل الدوش. عندئذٍ أعيد الشريط وأصلح الجزء الذي يخصني. لوهلةٍ، يبدو لي أنني سريعة البديهة ورائعة وشخص مسلٍ لقضاء الوقت معه. ولكن في أغلب الأحيان، لا يتبادر إلى ذهني أيّ شيء، ولا حتّى بعد مرور الوقت. أحاول استعادة المواقف، أجرب عبارات متنوعة، ولكنّها لا تضحكني على الإطلاق.

مرحبًا بك في النّادي: تعني أنها هي أيضًا لا تجد ما تبحث عنه؟

- هل تعرفين أن تدلّيني على مكان في المنطقة لتجميل الأظافر؟

تسألني الفتاة الآن، وهي تدفعني بلطف حاسم نحو الباب.

أكرّر: تجميل الأظافر؟

وأنا أنظر إلى أظافري المُقرضة، والّتي لم تعرف لونًا سوى طلاء الجدران.

- لا أعتقد، ربّما خلف الطريق الدّائري.

تؤيّدني: في وسط المدينة أفضل. كما قلت، إذا كنت مهتمة بالعقار، يمكنك إرسال بريد إلكتروني على...

يُغلق باب المتجر خلفي دون أن أنجح في سماع

بقيّة الجملة. على كلّ حال، ليس لدّي بريد إلكتروني ولا حتى نقود لأستثمرها...

أثناء عودتي إلى المنزل، رحتُ أعيد التّفكير فقط في دوروثي وجدتي، في ذلك اليوم وفي وعدي. أنا هنا، لقد عدت، والإوزّة معي. لا يمكن «للعالم الجديد» أن يختفي! لا يمكنني الوقوف مكتوفة اليدين بينما الفُلك الأخير يغرق. لا بدّ أن أفعل شيئاً.

(8)

أطرق الباب مُتخيلةً تعبير الدّهشة الّذي سيُطبَع على وجه من سيفتح لي. حقيبة المعدّات المعلّقة على كتفي مليئة بالكامل، فضلًا عن مفكّات ومفاتيح سداسية وكمّاشات تطلّ من كل جيوبي، مما يبعث الطمأنينة في نفوس العملاء بعد الدهشة الأولى. حسنًا، إنّها امرأة، لكن لديها حقيبة معدّات عملاقة.

تركيب الأثاث، وتعليق اللّوحات، وإصلاح المصاريع الأسطوانيّة، وتركيب الناموسيّات، وطلاء الجدران وتسليك الأحواض... يستدعونني من أجل كلّ الأشياء الّتي لم يعد أحد يستطيع عملها، أو لديه الرّغبة أو الوقت للقيام بها. من أجل كلّ ما لا يفعله الآخرون جيا موجودة. بشكل عامّ، هم راضون عن عملي، ولكن بعد الانتهاء منه. في البداية، يشعرون بالخداع من الإعلان غير الشّخصي الملصق على لوحة الإعلانات، ويشعرون أنّهم خُدعوا من المحادثة عبر الرّسائل القصيرة. فهم لا يتوقّعون فتاة على الإطلاق.

أتنحنح وأفرد ظهري عندما أسمع صوت المفتاح يلفّ في القفل.

تظهر سيّدة على العتبة، وتترك تعبير الدّهشة الّذي أتوقّعه يظهر عليها، ثمّ تلاحظ الحقيبة

الضّخمة والأوفرول وتبدو وقد استجمعت نفسها على الفور.

أقول بتنهيدة ارتياح: أنا جيا.

- وأنا بريشيللا.

قالَتها وهي تمدّ لي يدها.

يشمّ كلبها الشيواوا، الّذي خرج على البسطة، كمي. كنت أعرف اسمها بريشيللا، وسيكون جميلا لو يمكنني مناداتها باسمها.

ترتدي بدلة متناسقة لونها زيتوني فاتح، بنطلون وبلوزة بكمّين طويلين. إنّها أنيقة حتّى في المنزل، كنت على حقّ عندما لقّبتها بـ«سيدة». لم نتبادل الحديث من قبل، حتّى وإن كنت أعلم أنّ كلبها يدعى «سكر»، على سبيل المثال، وأنّها تقود سيارة «سمارت» بيضاء، وأنّها صوّتت لصالح تركيب مقاعد في اجتماع السكّان الأخير.

- المعذرة، تفضّلي...

تراجعَت خطوة إلى الخلف وابتسمَت لي. أُدرك أنّها من النّوع الّذي يثق بالنّاس.

بعد اندهاشهم بسبب رؤيتي على عتبة الباب، قرّر أغلب الأشخاص الرّجوع إلى الخلف: البعض منهم، خجلا، تركوني لكي ألقي نظرة، طالما قد حضرت بالفعل، ولكن فقط لدعوتي بعدها أن أقيّم سعر العمل، ثمّ لا يقبلون عرضي. وهكذا، في أغلب المرّات، أحمل أدواتي دون جدوى. لا

أشعر بخيبة أمل كبيرة، فقد اعتدت على ذلك. تقريبًا لا أحد يصدق أنني أجيد عملي.

ولكن من يثق بي يستدعيني مرّة أخرى. هناك شقق دخلتها عشر مرّات أو خمس عشرة مرّة، منازل أعرف عنها كلّ شيء، أين يضع أصحابها بسكويت الكراكرز، ومتى يستيقظون، وفي أي ساعة يأكلون، ولماذا يتشاجرون، ويوم عيد ميلادهم، وسبب استقالتهم من عملهم، وماذا يقرأون. وإذا كانوا على وفاق مع والديهم، وإن كانوا يلقون ببقايا القهوة في الحوض، أو يتركون الورق المغلّف للشكولاتة مبعثرا. عندما تهتم بالأشياء تكتشف الكثير عن الأشخاص. فنحن أفيال على رمال ناعمة، نترك بصمتنا على كل شيء.

صالون بريشيللا غاية في النّظافة، لونه كريمي على بيج. يبدو كأنّه رسمة معمارية، أكثر من كونه شيئا حقيقيًا. هواء المكان منعش بفضل النباتات الّتي تنقّي الهواء. أفكّر في سلالم البناية، بجدرانها المشقّقة، والإضاءة الوسيطة على البسطات، وأتفهّم رغبة السكّان الجدد من أجل «العمل أكثر على الجدران المشتركة». إلّا أنّني أتفهّم أيضا موقف من يعيش هنا منذ الأزل ولا يملك النقود للتحسينات.

ما لم أفهمه، هو لماذا لم أعثر على الحلّ من قبل، وهو سهل للغاية: أنا. أتعهد بالاهتمام بالأمر على

الفور، ما الفائدة من طلب الإذن من المدير؟ فالمصابيح يمكن تغييرها بلمح البصر، ويكفي التردد على الورش المجاورة للحصول على الطلاء المتبقي. ولدي بالفعل الأدوات والسلّم.

أريكة برشيلا مغطّاة بفراء فاتح اللون يبدو ناعمًا للغاية. أريد إخبارها أنّ عليها الاحتفاظ بطفاية حرائق أو على الأقل دلو مياه في متناول يدها، مع هذا النوع من القماش، ولكنها ستعتقد أنني أمزح.

ربما أضفت، وأنا ألاحظ خلاط السحب المُدمج في حوض المطبخ المفتوح: أنصتي إليّ، إذا لم ترغبي في طفاية حريق، أعلم أنّ شكلها قبيح، في حالة نشوب حريق، يمكنك استخدام الجزء الموجه في حوض المطبخ، ورش الماء باتجاه الصالون في دفقات مستمرة. من يدري، ربما تجد ذلك فكرة جيدة. ولكنني أدرك أنّ برشيلا تراقبني.

- منزل حضرتك جميل.

تخرج مني هذه العبارة إذن، وأنا أشعر أن أُذنيّ تشتعلان خجلًا، آمل أن يكون ذلك كافيًا لإنهاء الرسميات وإخباري بما يجب عليّ فعله.

تؤكد هي: ولكنني لا أريده بهذا الجمال. ولكن دعينا نتخلى عن صيغ التوقير، هل يضايقك هذا؟ فأنتِ تُشعرينني بأنني عجوز.

أومئ موافقة. أعطوني شيئًا لأصلحه، ولا تطلبوا

منّي التحدّث، حتّى وإن كان هذا ما تريده. بعض العملاء يفعلون هذا، ونظراً إلى انعدام البدائل، أضطرّ إلى إرضائهم.

تقودني بريشيلا أخيراً في الرّدهة وتفتح الباب الأول يساراً: حمّام مغطّى بالبلاط الأزرق.

- الدوش مسدود، كلّ شيء جديد هنا في الدّاخل.

تُعلّق وهي ترفع كُمّ البلوزة قبل أن تفتح المياه لتريني ما يحدث: كلّ شيء جديد، ولا شيء يعمل. يمكن أن تعاين بنفسك.

وفي لمح البصر يمتلئ صحن الدوش، ترجع هي إلى الخلف، لكن بعد فوات الأوان، فقد أغرقت المياه طرفَي حذائها.

- اسمحي لي بإلقاء نظرة.

ترفع سبابتها: تفضّلي.

- أجل، المعذرة. يبدو أنّ الماسورة مسدودة، ربّما يكون الأمر بسيطاً.

أفتح علبة المعدّات الّتي وضعتها على الأرض، وبقطعة قماش أوقف المياه. أتمنّى أن تتركني بريشيلا بمفردي لأتمكّن من التركيز، تتركني بمفردي مع الدوش والسّدادة والماسورة، وقفّازي المطّاطين. لكنّها تجلس على المرحاض وتراقب كأنّها مسن على المعاش أمام موقع بناء.

أرفع غطاء السيراميك المعمول بدقّة، وبكمّاشتي

القديمة المُتعدّدة الاستخدامات أمسك بالحنفية الموجودة في الأسفل لسحبها.

تتنهّد هي: انتقلت هنا منذ شهرين فقط.

ربّعت قدميْها ووضعت ذقنها على يديها، وكأنّها تُثرثر مع صديقة في حديقة جميلة، بينما أنا أركع على البلاط، وأبعد شعري إلى الخلف بكف يدي. أشعر بأنّها تنتظر منّي جوابًا ما.

- منازل مثاليّة بهذا الشّكل تُرى فقط على صفحات المجلّات.

أقول عندئذ، ما أراه حقيقيًا.

تُجيب: وبارد أكثر ممّا ينبغي. لم أكن أرغب فيه هكذا. لا أعرف إذا كان كلامي واضحًا أم لا. يغلب عليه دائمًا ما يجب عليه الأشياء أن تكون، طابع جمالي. ربّما الدافع هو الخوف من الخطأ. لا أعرف، ولكنّني أشعر كأنّني محاصرة في نمط لا يمكنني كسره. هل تفهمين ما أقصده؟ مثلما تتمنّين أن تأكلي هامبرجر وبطاطس مُحمرة، وفي النّهاية تطلبين طبق سلطة بلا إضافات.

أفهم تمامًا، فهذا ما يحدث لي دائمًا في حياتي. أرتدي القفازين قبل نزع الفيلتر المسدود بالشعر والجبس، حيث تنبعث منه رائحة بشعة.

تكمل بريشيللا: في الواقع، أحلم بمنزل فوضويّ. أتمنّى... بعض الفوضى، تولد النجوم من الفوضى، هكذا تقول معالِجتي... أحيانًا، يبدو لي أنّني

أعيش في كتالوج أثاث.

- لا بدّ أن يكون لهذا بعض المميّزات. وسط كلّ هذا النّظام ستكون أفكارك منظّمة.

تضحك مستمتعة: العكس هو الصّحيح!

أشير إليها أنّني أحتاج إلى استخدام المرحاض. تقفز كأنها دمية من السوست، وتقترب من الحوض لتتركني أعمل. ترفع غطاء زجاجة عطر باهظة الثمن، وترشّ القليل منها في الهواء. تداعب رائحة ياسمين جميلة أنفي.

عندها فقط أدرك أنّ رشة من الوسخ لطّخت إحدى المناشف المعلّقة على الجدار.

أصيح بخجل: آسفة!

- أوه لا تقلقي.

تجيب وهي تخفّف بإشارة من يدها وقع ما حدث.

- هذا أفضل. كلّ شيء جديد هنا. جديد وفي غاية النّظافة. إنّه مخيف. أقسم لك، أحيانا أبقى مستيقظة ليالي كاملة أحدّق في السّقف، مرتعبة من الأدوات المحيطة بي. لم تستخدم قطّ، لم يلمسها أحد. تنتظر شيئا ما... ماذا تريد منّي يا ترى؟

تنظر إليّ وكأنّ الإجابة عندي. لو كنت مكانها، ربّما لشعرت بالمشاعر نفسها.

- ربّما يمكنكِ بيع بعضها، أو التّخلّص منها، أو إهداء بعضها، لتفسحي لنفسك المجال.

- نصيحة جيّدة.

أبتسم لها: لم أتبعها قطّ. فأنا أعتقد دائمًا أنّ كلّ شيء سيفيد.

تتنهّد: كنت أعمل كالمجنونة، قضيت وقت فراغي في تجهيز هذا المنزل، من أجلي أنا وزوجي. اعتقدت أنّني على صواب. محامية إفلاس، منقذة الوطن. شيء بشع أن أقول هذا، ولكنّني كنت أشعر بأنّني أفضل من عملائي الّذين يفلسون أو يحاولون استعادة ديونهم. أؤسّس حياة مثاليّة، لبنة تلو أخرى، بلا ديون ولا أثمان، كلّ شيء تحت السّيطرة...

محامية إفلاس...

- في اليوم التّالي لانتقالنا إلى هنا، اختفى زوجي تمامًا، تاركًا خلفه كومة من الملابس القديمة. لم يترك خلفه ولا حتّى بطاقة صغيرة. ماذا بقي معي؟

مرّة أخرى، تبدو كأنّها تبحث في ما لديّ عمّا يطمئنها. أنظر إلى صحن الدوش، المغطّى بقطرات المياه. توجد بصمات داكنة تركها قفازاي المتّسخان... نظّفتها.

أجيب: على الأقلّ بقيت نفسكِ معكِ... على كلّ حال، يؤسفني أنه رحل.

تضمّ كتفَيها: هذا ما يفعله الأزواج عادةً. أليس كذلك؟

- لا أعرف أيّ شيء عن الأزواج.

أرفع قاعدة المرحاض: في صحن الدوش هذا، المساحة بين السدادة السيراميك والأرضيّة ضيّقة جدًا، ويكفي القليل جدًا لِيسدّها.

أطلمها على كومة الشَّعر، وبقيّة الشامبو والجير، قبل أن ألقي بكلّ شيء داخل المرحاض وأشدّ صندوق الطرد.

تجيب هي بينما تجعّد أنفها: هل ترين؟ اعتقدت أنّني الفائزة، لكنّني مَن أفلست، وكأنّ كلّ هذا لا يكفي، فقد اخترت صحن الدوش الخاطئ.

تمدّ لي قنّينة عطر الياسمين: هديّة لكِ.

- أوه، أنا...

لم أضع عطرًا قطّ في حياتي، ولكنّني أشعر أنّها ستشعر بالإهانة إذا رفضت.

- شكرًا جزيلًا.

أقول لها وأنا أضع القنّينة في صندوق المعدّات. وأعيد أيضًا الكمّاشة وقطعة القماش المبلّلة.

محامية إفلاس ...

- هل يمكنني أن أسألك عن شيء؟

أنجح أخيرًا في التغلّب على خجلي.

تجيب هي بفضول: بالتأكيد.

تتسارع ضربات قلبي، لكن حتّى إن أردت التراجع، فلن يمكنني ذلك الآن. إنه مجرد سؤال تقني، أقول لنفسي، يمكنني طرحه كنوع من الفضول. لا شيء ملزم.

- أريد أن أسألك عن الظّروف الّتي فيها يُسلّم متجر ما للدولة بعد وفاة مالكه.

تنظر إليّ بريشيللا مندهشة ثمّ تشرح لي: بمجرّد وفاة المالك، ينتقل أيّ عقار إلى الوريث المعين، أو في حالة غياب وصيّة ما، إلى الشخص ذي الدرجة الأقرب من المتوفّي. إذا رفض هذا الشخص، أو لم يجب، يؤول المكان إلى القريب من الدرجة التالية وهكذا، وإذا لم يجب أي وريث أو يقبل الورث في غضون عشرة أعوام تنقل الملكية إلى الدولة.

- والدّولة تبيعه؟

- تعرضه في مزاد. وعادةً ما يبدأ بمبلغ مُنخفض جدًا، ومن الصعب التنافس على هذا النوع من العقارات. يمكنك أن تتخيّل السبب، نظرًا إلى أن لا أحد ممّن لهم الحقّ اهتمّ بالمطالبة بملكيته... عمليًا تبيع الدولة تلك العقارات للرّومانسيين، كما يحدث في حالة منازل عمّال السكك الحديدية أو أبراج المراقبة، أو إلى المضاربين، الّذين عادة ما يكونون مهتمين بالعيون التّجارية والشّقق الّتي يُمكن بيعها مرّة أخرى.

- آه.

وأفكّر من جديد في المرأة من شركة أب هاي، لم تكن بالتأكيد لها وجه المضارب، ولكن تشبه كثيرًا طائرًا لا يتوقّف عن ضرب جناحيه وإلّا سيقع.

- أتخيّل أنّ سؤالك لا ينبع من فراغ.

- أوه، كم تمنّيت ألّا ينبع من فراغ.

ثمّ تنفّست بعمق وحكيت لها عن المتجر.

تعلّق هي أخيرًا على حكايتي: «العالم الجديد»... لم ألحظ وجوده، ولكن يبدو أنّه يهمّك كثيرًا.

أحدّق في بلاطات الأرضيّة الزّرقاء حتّى أتجنّب نظرتها: كانت للمالكة ابنة، مارجريت. هل تنازلت عن الميراث؟ ألم تجب؟ لماذا؟ أدفع أيّ شيء لأكتشف هذا.

تجيب بريشيلا: هناك طريقة لمعرفة ذلك. لديّ صديقة تعمل في السّجلّ المدني. إذا أردتِ يمكنني الاستعلام.

- يا إلهي!

لم أعتد على هذا النّوع من تصرّفات الكرم المجانيّة. هل يمكنني يا ترى اكتشاف شيء أكثر عن المتجر؟

لم تكن هذه هي الهديّة الوحيدة الّتي منحتْها لي بريشيلا. في الواقع دفعت إليّ أكثر ممّا طلبت.

أحاول الاعتذار.

تنهرني بينما أكتب لها الفاتورة:

- إنّ هذا هو عملك. هل تصنعين معروفًا فقط. ولا يجب أن تكون أسعارك منخفضة أيضًا.

أريد أن أجيب بأنّني أحبّ حلّ المشكلات، وأن أرى الآخرين مرتاحين، وهم يقفون قبالة جدار طُلِيَ بعناية، أو لوحة علّقت باستقامة، أو مكنسة تتنفّس بطريقة صحيحة، فأمام كلٍّ هذا أشعر بالاكتمال. يبدو لي آنذاك أنّني سددت ديني إلى العالم.

بينما تصحبني نحو الباب، أكملت: وأشكرك لأنّك أتيتِ على الفور. فلم يكن هذا أمرًا سهلًا. في هذه المدينة يبدو العثور على سباك أمرًا مستحيلًا، إلّا إذا امتلكتِ صبر أيّوب. ثمّ إنّني أرى أنّه يوجد بيننا أشياء مشتركة أكثر ممّا يبدو لك.

أنظر إليها: في نهاية الأمر أنا أيضًا أحمي الأشياء من الإفلاس.

تومئ بريشيلا مستمتعةً: تبدو لي طريقة جميلة لإيضاح الأمر.

بكلّ صراحة، لا أعرف طُرُقًا أخرى.

(9)

بعد زيارتنا الجدّة، تمرّد أخي الّذي كان حتّى هذه اللحظة جنديًا مخلصًا. لم تكن ثورة واضحة، بل تذمّر، وعندما يستطيع يتآمر.

فجأةً كَرِهَ مياه الدوش الباردة، والطّعام، وإعداد المؤن، والسّير في الحقول أو بطول الطريق بحثًا عن أشياء يمكن أن تفيدنا. كَرِه العمل في ملجئنا تحت الأرض. كان عليه الاهتمام بالمولّد والعزل الحراري والقيام بأبحاث من أجل البئر الارتوازية مع أبي، بدأ يختلق الأعذار ولم تعد لديه رغبة في تنفيذ التّعليمات. الشّيء الوحيد الّذي اهتمّ به هو دروس أمّي. أراد معرفة كلّ تفاصيل ما يوجد في الخارج، في ما وراء حدود الحقول الّتي تحيط بالحصن، في ما وراء الحصن، وفي ما وراء الغابة، وفي ما وراء أبي.

وَعَدتُ نفسي أن أحكي له عن «العالم الجديد» بمجرّد أن نعود إلى الحصن، لكنّني خشيت أن أزيد الوضع سوءًا. وأيضًا، لأوّل مرّة، وببعضٍ من الخجل، أستمتع بشيءٍ يخصّني وحدي. في صمت حجرتنا، كلّ مساء قبل أن أنام، أفكر في المتجر وما يضمّه من سلع، في شعور الخفّة والإمكانيّات الّتي منحها لي البقاء هناك بالدّاخل بضع ساعات فقط. تخيّلت عودتي، وقراءة كلّ البطاقات وتحضير الشاي في الجزء الخلفي، بل والعمل

هناك. لم أرغب قطّ في الاعتراف بذلك، كي يكون لدي سري.

في الحصن، كنت أنا وأمّي مسؤولتين عن المؤن. كان واجبنا مراقبة العدد الكبير من البرطمانات والعبوات المكدسة على الأرفف المعدنيّة المقابلة للجدار في نهاية ملجئنا. أرزّ، مكرونة سريعة الطهي (حتّى لا نستهلك الطاقة في طهيها)، والحبوب كاملة الحبّة (حتّى تُشبعنا لمدّة أطول)، وتوست مُقرمش، وبسكويت، وحليب طويل الأجل، والأطعمة المعلّبة مثل الطماطم والتونة، والذرة والخضروات، وجبن جامد، ولحم مقدد، وسكّر وملح وتوابل، والمعلّبات الزّيتيّة، وأنشوجة مملحة. كنّا نضع المؤن الأكثر حساسيّة في أكياس من الألومينيوم داخلها مناشف للرطوبة والأكسجين لتجنب تحللها. وعلى سبيل المثال، عندما نفعل ذلك مع الجبن، تستمر حتّى خمسة وعشرين عامًا خارج المبرد. ثمّ كان هناك أيضًا المجفف، ذلك الجهاز الّذي لا يمكن الاستغناء عنه لحفظ العديد من الأطعمة الطازجة الّتي ننتجها: البيض والخضروات واللحم، بحيث تظلّ صالحة للأكل لأعوام.

كنّا نتخلّص من المأكولات عندما يحين تاريخ انتهاء صلاحيّتها، حسب جدول أبي. القليل جدًا من الطعام تنتهي صلاحيته، يؤكّد هو، حيث كل هذا مجرد تسويق. في منزلنا نتناول الطعام كأنّنا في

حالة طوارئ. كانت دورة لا تنتهي.

لم أشعر بالجوع قطّ.

لأعوام، تخيلتنا مدفونين في الملجأ تحت الأرض، بينما تتساقط القنابل فوقنا، نأكل بيضًا ولحمًا وفواكه مُجففة. وأبي، سيحاول، منتصرًا، ضبط تردد المذياع الصغير على القنوات الأجنبية التي تبثّ الأخبار بشكل متقطع، مرددًا باستمرار «لقد أنقذتكم»، كما فعل نوح في زمنه مع زوجته والحيوانات.

بناءً على رغبته، نمكث يومين كاملين في العام دون أن نشرب، وفي الربيع نتحمّل أسبوعًا شبه صائمين. كان لا بدّ من أن نكون مستعدين دائمًا، فأيّ شيء يمكن أن يحدث.

اعتاد أخي أن يأكل خفيةً، أمّا أنا فبقيت مُخلصة للواجب. وإذا حدث أن فقدت الوعي أثناء التدريب، كانت أمّي تُمرّر الضمّادات المبللة بالمياه على جبهتي، وتربت على شعري، وتقول إنهما يفعلان كلّ ذلك لمصلحتنا، لكن بدا لي أحيانًا أنها تشكّ في ذلك، وبدا لي أيضًا أنها تخشى شيئًا ما، شيئًا غامضًا وخطيرًا لم أستطع تخمينه، شيئًا يشبه تهديدًا مماثلًا لِمَا يتحدّث عنه أبي، ولكنه سيحدث قريبًا، أو ربّما حدث بالفعل. فنحن في قلب الكارثة دون أن أدري.

(10)

تُرِيح السّيّدة داليا رأسها إلى الخلف وتسمح لي بِغسل شعرها الخفيف بالماء الفاتر. اكتسى شعرها بلون الحناء. يشعرني جلدها المُغطّى بالشّعر بالشّفقة عليها، وكأنّني أغسل رأس مولودة للتّو. أتساءل إذا كانت نتوءات أصابعي تضايقها، على الرغم من أنّني أحاول أن أغسل برِقّة.

- سيدة داليا، هل تتذكّرين «العالم الجديد»؟

- حبيبتي، أنتِ التي لا تتذكّرين أنّني تقريبًا لا أخرج على الإطلَاق من المنزل؟

لكن طريقتها في قول هذا لم تُقنعني. فلقد لمحت لمعانًا في عينيها، وحاولَت هي أن تُخفيه فأخفضت جفنيها على الفور.

- أعرف أنّ حضرتك، على الرّغم من ذلك، تعرفين أشياء كثيرة، وأنّ لديك عيون وآذان في الحيّ. ولا شيء يُخفى عنكِ: فما لا تصل إليه قدماك، تصل إليه قرونك الاستشعاريّة.

يبدو أنّها تستمتع كثيرًا بِكَونها تختلف عمّا يظنّه النّاس عنها.

فهي في الظاهر سيّدة عجوز تتمتّع ببعض الغرابة البريئة. على سبيل المثال، شعرها البرتقالي والمصفّف دائمًا كسحابة، وفكرة أنّها ترتدي ملابسها دائمًا وكأنّها على موعد لتناول الحلوى مع صديقاتها. بالإضافة إلى أعمال حياكة بسيطة

لسكّان البناية، تعيش بفضل معاش زوجها. يعجبها استضافة الجيران ليشربوا شيئًا في مطبخها. لديها زجاجات المُسكر أكثر من أيّ حانة، غالبًا ما تقدم لها كهدايا مقابل خدماتها كحارسة للعقار.

- من ذا الّذي يقول إنّ النّبيذ مُضرّ...

تُدَندِن وهي تقدّم الشّراب للضيوف، ثمّ تجعلهم يتحدّثون عن حياتهم، وتجلس للاستماع إليهم وكأنّها في قاعة السينما.

لكنّها لا تحكي شيئًا عن نفسها تقريبًا. لا أحد يعرف أنّ السيدة داليا قضت سنواتها العشرين الأخيرة في الرّسم.

المرّة الأولى الّتي حدّثتني فيها كانت عقب قدومي للعيش في البناية ببضعة أيام. فتحت باب المدخل المؤدي إلى الردهة مباشرةً، وبإصبعي السبابة والوسطى أشارت إلى صعودي السلّم: لم يعد أحد يصعد السّلالم الآن.

لا بدّ أنّها لاحظت أنّني أصعد إلى منزلي في الطّابق الثّالث درجةً تلو الأخرى.

شرحتُ: أترك المصعد لمن يجد صعوبة في السّير.

- أخيرًا فتاة ماهرة. إنّ معظمهم كان يذهب إلى المدرسة يوم الخميس.

أجابت هي بلهجة ميلانو، بينما تُشير إلى باقي سكّان البناية.

وفلتت ابتسامة من بين شفتيّ. حدّثتنا أمّي عن

واقع مفاده أنّ المدارس كانت تُغلق يوم الخميس أثناء حكم الفاشية، لذلك فهمت الدعابة.

أرادت السيّدة داليا أن تُقدّم لي كوبًا من شراب الكينا، على الرّغم من أنّ الساعة كانت الحادية عشر صباحًا. قالت إنّ ذلك حدادًا على جدّتي.

ثمّ وعدتني بأنّها ستعتني بي.

أجبت: أشكرك. لكن لست بحاجة إلى ذلك.

كنت مُقتنعة بأنّني أقول الحقيقة، وأكملت: بل الأجدى، هل تحتاجين حضرتك إلى شيء؟

وافقت بكلّ سرور. فقد كانت تحتاج إلى شخص ما ليساعدها في أشياء صغيرة كثيرة، وألّا يطرح عليها أسئلة زائدة. وكنت المرشّحة المناسبة، وأعلنت لي هذا. فاعتبرته مديحًا.

أضافت: عندما رأيتك، عرفتك على الفور.

لم أفهم إذا كانت تشير إلى جدّتي أم إلى شيء آخر، لكنّني لم أجرؤ على السؤال.

الآن أغلق الصنبور، وألفّ رأسها بمنشفة وردية مُطرّزة بالزّهور، بالية وباهتة.

أقول: فُتح باب «العالم الجديد» هذا الصّباح، إنّه للبيع.

ارتجف صوتي قليلًا، لاحظت ذلك، فالتفتت نحوي. أتنفّس بعمق لأهدأ. فأيّة معلومة ربّما

تفيدني.
تُتَمتِم هي: ماتت دوروثي من زمن...
- هل ترين؟ لحضرتك دائمًا تعرفين كلّ شيء.
تُغمض السيّدة داليا عينيها قليلًا ببعض الغموض: هذا يحدث، للمسنّين.
- هل كنت تعرفين دوروثي جيّدًا؟
- وهل مارجريت هنا؟
- يبدو أنّها لا تحتاج إلى الميراث، أو ربّما رفضته.
- ولكن ماذا تقولين يا جميلة!
أساعدها على النّهوض وأتبعها في الممرّ الضيّق ممسكةً بالمنشفة على رأسها. باب نافذة غرفة نومها يطلّ على الممر الخلفي للبناية. كلّ سنتيمتر من جدار غرفتها مغطّى بلوحاتها: مناظر طبيعية ومدن، وفي جميعها الوجه الغامض لرجل ما. بعض لوحات النّسيج تعبّر عن تفصيل واحد: معصم يد بسوار ذهبي، طرف أنف تعلو شارب، يد تربت على كنبة.
لا بدّ أنّ تلك اللوحات تعمل عمل اليوميّات، فهمت ذلك بالغريزة، حتّى وإن لم أكن أفهم نوع الحياة التي توثقها، نظرًا إلى أنّ السيّدة داليا نادرا ما تترك شقّتها، وبالتّأكيد لا تذهب لتتجوّل حول العالم. أحدّق في اللوحات معجبةً في كلّ مرّة، فالقوة الحيويّة التي تنقلها قادرة للغاية. أتساءل،

ولكن لا أطرح أسئلة. جميعنا نحرس على الأقل سرا ما، والإفصاح عنه يعني خيانته.

بعد أن جلسنا على الفراش، عليّ أن أجفف شعرها بمجفف الشعر.

- إذن اشرحي لي يا عزيزتي.

- كلّ ما أعرفه أنّ المتجر للبيع، والسيّدة الّتي تعمل في شركة العقارات لا تبدو قلقة بشأن مصيره.

تبدو مُتَضايقة: بالتأكيد ليست المرّة الأولى الّذي يحدث هذا في الحي. فهي موجة لا تتوقّف. في الماضي، كانت توجد المتاجر وليس السوبر ماركت، والورش وليس الباعة، والمطاعم الحقيقيّة وليس «البوفيه المفتوح»(7)، كما تطلقون عليه أنتم. ثمّ أتى المديرون ليعلّمونا ماذا يجب عمله... وكلّ شيء من أجل النّقود!

ألقي بنفسي: ولكن هل كنت تتردّدين إلى «العالم الجديد»؟

تلتفت إلى الجهة الأخرى وكأنّها رأت شبحها نفسه، لكنّها تختلس النّظر إليّ.

أهمس: لا يجب أن نتركهم يُغلقوه إلى الأبد، أريد أن أنقذه.

في الواقع، يبدو الأمر حقيقيًّا فقط عندما نقوله.

- ننقذ، ننقذ... لا يُمكننا إيقاف عجلة التّطوّر.

تتفوّه كلمة «تطوّر» بمرارة، وكأنّه طعام عسير الهضم.

نجلس أحدنا بجوار الأخرى على غطاء فراش مبهرج. تمدّ لي يدها بمجفّف الشعر. أفكّ السلك وأضعه في مكبس الكهرباء. في إحدى المرّات قالت لي إنّ زوجها إينزو لم يكن يحبّ الألوان القويّة، وأنّ المنزل في حياته، كان كلّه على درجات البنّي المختلفة. منذ فترة قريبة شعرت السيّدة داليا برغبتها في التغيير، فقط منذ أن مات زوجها بدأت بالرسم.

أشغّل المجفّف، فتتجاوز هي الصّخب بصوتها الأجشّ: توقّفي عن التّفكير في مشاكل الآخرين. لا تفعلي مثلي، فأنتِ يمكنك الحياة. في شبابي لم نكن نشكو. لم نكن نجلس دائمًا وعيوننا ملتصقة في المحمول!

ألمح نبرة حزن في عمق صوتها، وأتساءل عمّا إذا كانت تحاول إقناع نفسها.

- سيّدة داليا، ليس لديّ سوى هاتف بدائيّ ولا أنظر إليه أبدًا.

أطفئ المجفّف، وأخرج المحمول من جيبي وأطلعها عليه.

تتمتم: فعلًا، لكن هذا أسوأ. فليس لديك أعذار، ومع ذلك لا تستمتعين بالحياة.

أشغّل المجفّف من جديد، على أمل إنهاء

الحديث.

أكرّر على نفسي: ليس لديك أعذار، ومع ذلك لا تستمعين بالحياة، وكأنني أحاول فكّ شفرة لغة أجنبية.

بمجرّد أن أنهي عمليّة التّجفيف، يستعيد الشّعر البرتقالي كثافته المعتادة. وبخطوات هشّة لكنّها مفعمة بالحيويّة، تتقدّمني السيّدة داليا إلى المطبخ المطلّ مباشرة على ردهة البناية، يبدو منظّما، تقريبا بلا بصمة شخصيّة، بخلاف أرجاء المنزل الباقية. إنّها تستقبل السّكان هنا. فالسيّدة داليا أرملة والنّاس يتوقّعون منها سلوكًا معيّنا. الأسطح غاية في النّظافة، والمنزل ظلّ على حاله منذ وفاة الزوج.

شرحت لي في إحدى المرّات، عندما سألتها عن سبب عدم السماح لهم برؤية باقي المنزل: يريدون رؤيتي بلا أيّ تغيير، وبلا مفاجآت. يطمئنهم ذلك.

تقول لي الآن، بينما تضع المُشترَيات الّتي ابتعتها لها في مكانها: مساء أمس، رأيت الفتاة الجديدة أثناء عبورها الرّدهة... مع الطّفلة. هل تعرفين الفتاة الّتي ترتدي دائمًا ملابس ملوّنة؟

- اسمها أديلايده، قرأته على صندوق البريد، وأعتقد أنّ الطّفلة ابنتها. يسكنون في الطّابق الرّابع من السّلّم (C)، فوق، ولكن من الجهة المقابلة.

- لا بُدّ أن تُصبحا صديقتَين.
- وماذا سيهمّها من واحدة مثلي؟
- وأنتِ ماذا سيهمّك منها؟ حاوِلي اكتشاف ذلك.

تُلقي نظرة خاطفة على انعكاسها في المرآة الدّعائيّة لشركة كوانترو، المُعلّقة على الجدار: لا يُمكنكِ الاستمرار على هذا المِنوال.

أتضاءل، وأتساءل: «هذا المنوال»؟ كيف؟ لكنّني لا أسألها خوفًا من إجابتها.

عندما أراقب قريناتي وهُنّ يشربنَ فواتح الشّهيّة، والأزواج الّذين يمسكون بأيدي بعضهم البعض، ومجموعات الفتيات اللّواتي يدرسن جالسات على موائد الحانات، أتساءل عمّا يتحدّثن عنه بالضّبط، وأحاول التقاط كلّ التّفاصيل، لأعرف ماذا فاتني. يبدو زمنهم كخطّ يتّجه دائمًا نحو الهدف، بينما زمني لولب يدور حول نفسه. هل أبدو من مظهري الخارجي أنّني مختلفة عنهم؟ هل أحمل في ملامحي ما يدلّ على اختلافي؟ هل يبدو ظهري أكثر انحناءً؟ هل هي لحظة ترددي قبل التّحدث أم طريقتي في النّظر بطرف العين، حيث لم أعتد الاحتفاظ فترة طويلة بالاتّصال البصريّ؟ هل هذا ما تقصده السّيّدة داليا؟

تتحرّك قدماها بتردّد في الخفّ المُبطّن بينما تمدّ يدها لتُحضِر زجاجة «فرنت برانكا» إلى وسط

طاولة المطبخ، وكوبين صغيرين:

- بعض القطرات؟

أوافق دائمًا، فالشّرب معها يُخفّف من مُحدّدات الواقع. المشروب الكحولي ينساب في حلقي وأشعر بي سافرت إلى منطقة غريبة، في نهاية رحلة طويلة.

تفحصني السّيّدة داليا دون أن تنطق. أقبض على الطاولة السيراميك. عندما أكون مع الآخرين، أخشى دائمًا أن ينفلت مني تعبير غريب، أو نبرة عالية أكثر ممّا ينبغي، ألا أستطيع التحكّم بصوتي أو كلماتي. والصمت أيضًا يشعرني بالخجل.

- لديّ شيء أعتقد أنّه قد يساعدك.

تبوح لي فجأة، وتُشير إلى صندوق فوق الخزانات، لم أنتبه إليه قطّ.

- لكنّني أحتاج إلى المساعدة.

دون تردد، ألتقط المقعد الصغير الّذي تضعه تحت الطاولة وأصعد عليه. وبطرفي أصابعي بالكاد أستطيع لمس الصندوق.

- حضرتك تعرفين كيف تُخبّئين الأشياء!

تشير إليّ السّيّدة داليا أن أنتظر. تعود بعصا حديدية: حاولي بتلك.

بعد عدد من المحاولات، أستطيع إسقاط الصندوق والتقاطه في الهواء: يحتوي على عددٍ

كبير من الخطابات: عزيزتي مارجريت، عزيزتي مارجريت، عزيزتي مارجريت...

- أعطتني دوروني تلك الخطابات قبل موتها. لم أقرأها قطّ.

أكّدت السيّدة داليا، وهي ترفع يديها وكأنّها تقول إنّه لا دخل لها بشيء. ثم استدارت إلى الجهة المقابلة، كأنها بمجرد رؤيتها تفتح جروحا قديمة.

- ولا أرغب أيضًا في معرفة شيء عنها ولا حتّى الآن.

(11)

22 مايو 1952م

عزيزتي مارجريت،

أكملتِ أعوامكِ الإثني عشر: عام سعيد! أتأمّل صورتكِ. فيمَ تفكّرين؟ لا أستطيع أن أرفع عيني عن الصورة. طفلة صغيرة ترتدي ثوبا أبيض اللون، وتستلقي على نجيل حدائق «كيو» (8). يبدو وكأنّ الشمس خُلقت في السّماء خصيصًا لأجلك، لأجل أن تضيء ملامحك.

عملتْ صديقتي روز في حدائق «كيو» في فترة الحرب. لا أتذكّر إن كنت حدّثتك عنها من قبل. وضعوا النّباتات الأكثر أهمّية في أمان، وجندوا من أجلها علماء النّباتات وعاملي البساتين في الحرب، وحلّت النّساء محلّهم. عينت روز عام 1940م. ما زلت أتذكّر إحدى خطاباتها. «السّماء حمراء. القنابل تنير كلّ شيء»، هكذا تمود الطائرات لترى هدفها بشكلٍ أفضل..» لم تكن حدائق كيو أحد أهداف الحرب، لكنّهم قصفوها.

على الرّغم من ذلك استمرّ الناس في ارتيادها، بل أكثر من ذي قبل. لمحاولة نسيان الرّعب، كانوا يشتمون زهور النّرجس، ويغوصون في أزهار شهر مايو. كانت تلك هي عطلتهم في المدينة. من أجل التّمسّك بالحياة نفعل كلّ شيء!

كم تبدّت قيمة الحياة أثناء الحرب! ربّما علي التساؤل: كيف لم أرها قبل ذلك! قصص حب، زيجات، أعمال جسورة استثنائيّة. لقد حرِمنا من كلّ شيء ولم يبقَ لدينا سوى النفَس...

كانت روز تحبّ العمل في تلك الحدائق، تمامًا مثلما عشقت أنا قيادة الطائرات الحربية «سبيتفاير». قصصت عليكِ أكثر من مرّة كيف كنت فتاة سبيتفاير. كانَ عدد المتقدمات ألفين لشغل سبعة عشر مكانًا. وكنت أنا من المختارات السبع عشرة.

لا أعرف كيف أستطيع أن أشرح لكِ ماذا كان يعني هذا بالفعل، بالنسبة إلينا وبالنسبة إلى العالم آنذاك. قيادة طائرة في سن الثانية والعشرين، في ظروف قاسية، من أجل مهام خاصّة لسلاح الجو الملَكي. الطّيران فوق بلادٍ في حالة حرب. المخاطرة بالحياة كل يوم، مع الشعور بأنني حية أكثر من أيّ وقت مضى، كأنني أمتلك جناحين. أصبحت السبيتفاير هي رمز حريّتنا. معظم صديقاتي لم تتمكّن من الذهاب إلى الجامعة، أو اختيار شريك الحياة، أو ممارسة الرّياضة، أو شرب البيرة، بينما أنا أقود طائرة حربيّة.

تعرفت إلى أبيكِ هناك. ولكنّي لا أريد أن أحدثك عنه فأنتَ تعرفينه جيدًا. ما أرغب في شرحه لكِ هو لماذا رحلت. بعد الطلاق لم أستطع

البقاء، كنت أحتاج إلى أن أعيش يا مارجريت. كنت أحتاج إلى أن أعثر على نفسي من جديد، وأن أبني عالمي الخاصّ. لم أستطع البقاء في ظلّ رجل يحتقرني، فقط، لأنني مختلفة. كيف سأسمح لنفسي بهذا؟ فليس ذنبي أنّه تركني. حتّى وإن كان هو يفكّر في الأمر بشكلٍ مختلف. أحببته. كنت سأتبعه حتى نهاية العالم.

مارجريت، ليس ذنبك أيضًا أنّني رحلت. إذا كنت قد أتيت إلى إيطاليا. هنا عثرت على من بحاجة إليّ. في محطّة ميلانو المركزيّة، وصل الناجون من معسكرات التعذيب. بينهم نساء وأطفالٌ بحاجة إلى مكان يأويهم. وبفضل سيّدة رائعة تُدعى إيلدا، استطعنا بناء بعض الأكواخ في حديقة، واستطعنا تقديم فِراشٍ ووجبة لهم. ثم أُعيد فتح الاتّحاد النّسائيّ.

لكن لا يزال الكثير لنعمله في إيطاليا. حتّى إذا كان لدينا حقّ التصويت العالمي، فلا مجال للطّلاق بعد، والإجهاض غير شرعي، وبالنّسبة إلى النّساء حقوق ما بعد الزّواج هي من أهمّ الأولويّات. كيف يمكننا ترك الأشياء لتستمر على هذا المنوال؟ أن تظلّ النّساء مُقيّدات في الأماكن الصغيرة الّتي قرّرها الرّجال لهنّ؟ فلنا أيضًا الحقّ في الحياة! لدينا الحقّ في العمل!

الخلاصة أنّني لست هنا في إجازة، وأرغب بشدّة في أن تعرفي هذا. فأنا لا أقف مكتوفة

الأيدي. ولم «أهرب». بمجرّد أن تكبري بما بكفي، يمكنك المجيء للإقامة معي، إذا أردت. أعرف أن هذا سيحدث عاجلًا أم آجلًا. أليس كذلك؟

مارجريت، افتحي لي قلبك. لماذا تبدين حزينة هكذا في الصور؟ تنظرين نظرة جانبية وكأنّ شبحا ما يطاردك، أو كأنّك الشّبح ذاته. أين أنتِ في كل مرّة أنظر إليكِ؟ إذا لم تستطيعي العثور على مكانكِ في الحياة، هل هذا خطئي؟

هذه الأسئلة وغيرها الكثير، تعذّبني آناء اللّيل وأطراف النّهار. أتمنّى فقط أن تقرّري التحدث، أن تمسكي بيدي وتعديني بأن تدخلي حياتي، وأنا أعدك بأنّني سألتزم الهدوء. معًا سنكون أقوى. فرقصة التانجو تحتاج إلى شخصين...

محبّتي،

دوروثي

أجلس في التراس وكوبي في يدي، أراقب اللّيل أمامي. الجرس لامع، وأضواء طيّارات خفية ونابضة تلمع في السماء، والترام يظهر من بعيد يسير على القضبان. لا توجد ليلة تشبه السّابقة عليها، لكن كم تختلف هذه اللّيلة عن ليلة أمس!

اليوم أعيد فتح «العالم الجديد» وأصبح للبيع، ومارجريت لم تأتِ. مارجريت ذات الثوب الأبيض في حدائق كيو. مارجريت، أين أنتِ؟

لديك أمّ عملت كطيارة وحاربت في سبيل الكثير من الأهداف المثلى. أم صنعت لك عالما أفضل، لكن أين أنت؟ وتلك الخطابات، لماذا ظلّت هنا؟ هل هي نَسخ من خطابات أرسلت بالفعل منذ أعوام كثيرة؟

أتساءل عمّا إذا كانت بريشيللا ستُساعدني بالفعل، أو ما إذا قالت ذلك مجاملةً. هل يمكن لموظّفة في السّجلّ المدنيّ أن تُخالف واجباتها المهنيّة لتساعد سباً كة صديقتها؟ لماذا يتعين عليها فعل ذلك؟ إذا كان العالم يعتمد على الكرم غير النفعي، سيحدث كلّ شيء بطريقة مختلفة. أتمنى ذلك، لكنّني لا آمل كثيرا.

ربّما تكون هذه الخطابات هي سبيلي الوحيد، أتنهد وأقرأ خطابًا آخر.

(12)

اكتشف اليوم أنّ الحياة تُشبه بعض النّباتات. تقضي شهوراً في تسميدها، وسقيها، والاهتمام بها، ولا تعطيك أيّة إشارة حياة. وعندما تنساها، تخرج براعمها الأولى.

مرّت خمسة أعوام وأنا أنتظر أن تُفتح أبواب «العالم الجديد»، وفجأة، بالأمس، أجد المصراع مرفوعاً. وكأنّ ذلك لم يكن كافياً، في هذا الصباح تتحدث معي للمرة الأولى أديلايده، الّتي حدثتني عنها السيّدة داليا. بينما أقف على السلّم التلسكوبي، منهمكة في تغيير مصباح طابقي، أسمع: هل تعرفين أنّها فكرة رائعة؟

أنظر إلى أسفل. تُحدّق بي أديلايده بعينيّها القاتمتين ذات الرموش الطويلة جداً. شيء ما في سلوكها، وجسدها النّحيل يجعلها تبدو صغيرة جداً في السن. شعرها أشقر طويل، لامع، تجمعه في ذيل حصان مرتفع، وترتدي ثوباً فضياً، وتحمل حقيبة كتف على شكل قطعة ملبس. تمسك بيدها ابنتها البالغة من العمر حوالي ثلاثة أو أربعة أعوام، والّتي ترتدي تاجاً ورقياً على رأسها. يبدوان كمن خرجتا من مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف»، في ما عدا حذاءيهما الرّياضيين. كانتا في طريق العودة إلى المنزل وفاجأتاني.

تفتح أديلايده يدها المُغلَقة أمامي، فتكشف

عن أوريغامي على شكل عصفور: عثرت عليه في الفناء. تقرأ بصوت مرتفع الاقتباس المكتوب بالدّاخل: قبل أن يموت، أشار أبي إلى الطبيب بالاقتراب وقال له: النّاس رائعون.

توجّه نظرتها إليّ: لا بدّ أنّ هذه علامة من القدر!

تسأل الطفلة: ما معنى القدر يا أمّي؟

- إنّه عندما يتحدّث إليك الرّبّ.

تبدو الطّفلة كأنّها تفكّر في الأمر.

تستمرّ الأخرى: شيء لا يصدّق، في اللحظة الّتي بدأت أفقد فيها ثقتي في الجنس البشري، بالتّحديد في اللحظة الّتي أرى كل شيء أسود.

- ما هو الجنس البشري؟

تتنهّد أديلايده: نحن يا حبيبتي.

- كنت على وشك فقدان الثّقة بنا؟

- ليس بالتّحديد بنا. لم أقصد أنا وأنتِ.

تنظر إليّ بمكر ثمّ تعود إلى الطفلة: لن أفقد الثّقة بك أبدا. ثمّ ألم تسمعي؟ النّاس رائعون. في نهاية الأمر، ربّما هناك من هم كذلك بالفعل، رائعون. وربّما بفضل هؤلاء النّاس نتقدم إلى الأمام...

أريد أن أومئ بالموافقة، لكن لا أنجح سوى في تحريك ذقني قليلا. أريد الهبوط من أعلى السّلم

لآخذ اللّبة الجديدة، لكنّي أخجل من فعل ذلك أمامهما.

تقول أديلايده: قبلات مسروقة.

تسأل الطفلة: لماذا مسروقة؟

- أتذكّر هذا المشهد جيّدًا جدًّا من الفيلم.

تستمرّ أديلايده، دون أن تُجيبها، وتعيد نظرتها للأوريغامي.

- في الصّباح، تقف صاحبة متجر الأحذية بجوار النّافذة... سيدة أنيقة جدًّا ومُثيرة جدًّا، وأيضا حزينة جدًّا. ربّما كلّ الشّخصيّات الحزينة تثير الاهتمام.

تسأل الابنة: مَن يُثير الاهتمام؟

- مَن يصنع تلك الأعمال الفنّيّة الرّائعة...

تغمز لي أديلايده بعينها وهي تُدير الأوريغامي بين أصابعها.

تتشبّث الصغيرة بالسُّلّم، بينما أحاول الحفاظ على توازني.

- لا أستطيع القول إنّ هذه البناية تُعجبني.

تقول أديلايده دون أن تلاحظ وجود ابنتها، ثمّ تتفحّصني: ولكن هناك شيءٌ ما رائع. هل لاحظت اللافتات؟

- أيّة لافتات؟

- تلك المُعلّقة في كلّ أنحاء البناية. من نوع:

احترس من الدّرجة! فقط من لديه بصيرة يُمكنه أن يجد ما يبحث عنه، ولو بعينين مغمضتين.

- آه تلك...

أشعر بوَجنتيّ تَشتَعلان.

- مَن يا ترى كَتَبها؟

- في الواقع، ليست لديّ أدنى فكرة.

- يا خسارة، أحبّ التعرّف إلى هذا الشّخص، أراهن على أنّه الشّخص نفسه الّذي صنع الأوريغامي. إنّه شخصيّة مُبدعة. كم نحتاج إلى مثل هؤلاء هنا بالداخل!

تبتسم إليّ ابتسامة تَفاهُم. نظراً إلى أنّني لا أعرف ما يجب عليّ عمله، أبتسم بدوري لها، ولكن أعتقد أنّها تبدو كتكشيرة غريبة. لست جاهزة لِتبادُل الحديث، كنت فقط أغيّر اللعبة.

تفحص أديلايده حذاءَيّ المُضادّين للحوادث، وتمرّر بصرها بطول أوفرول العمل حتّى شعري الملفوف كبصلة والممسوك بقلم رصاص أحمر اللّون كالّذي يستخدمه البنّاؤون.

- هي أريا وأنا أديلايده.

تُخبرني وهي تضع يدها على كتف الطفلة.

أخجل من أنّني أعرف ذلك بالفعل. أيّ نوع من الشّخصيات أنا الّتي أتجسّس على سكّان البناية؟ مَن يحاول أن يضع كلّ شيء تحت السّيطرة

وكأنه مِلكه؟ ومع ذلك، لا أستطيع حتّى أن أكمل حديثًا عابرًا بين الجيران.

تمدّ لي يدها لمصافحتي فتجبرني بذلك على نزول السلّم. أنظّف كفّي على الأوفرول، قبل أن أصافحها: جيا.

- جيا! يا له من اسم جميل.

تمدّ لي الطفلة أيضًا يدها الصغيرة: هل أنتِ ميكانيكيّة؟

تشرح لها أمّها: إنّها جيا، لها اسم أحد الآلهة.

ثمّ تكمل الحديث: هل تعرفين، أقرأ حاليًا كتابًا مثيرًا للغاية، تؤكّد فيه المؤلّفة أنّنا نحن النّساء نتأثّر بالنّماذج البدائيّة وإذا أدركنا ذلك، نستطيع السّيطرة على أنفسنا، وبالتّالي على العالم المحيط بنا. وتعرف النماذج البدائيّة التي تسكننا بآلهات الإغريق. تبعًا لها، كلّ واحدة منّا تعيش تحت تأثير واحدة أو أكثر من تلك الآلهة، وتكتسب منهنّ مزايا لا بدّ أن تقبلها بامتنان، وعيوب لا بدّ من الاعتراف بها.

أينما ذهبت، حتى على بسطة طابقي، تعثّرت في الماضي، وتعثّرت في أبي. تبعًا له، الإغريق فهموا مسبقًا كلّ ما يحتاجه الإنسان والمجتمع للمضي قدمًا. فأندريا باليوناني، يعني الغالي، الشّجاع، القويّ، الجسور. كان هذا ما ينتظره من ابنه ولم يتوانَ عن أن يذكّره به يوميًا. اختار لي اسم

جيا، مثل الإلهة الأولى والأقدم، خالقة الأرض والسماء والبحر، مصدر العمالقة والآلهة الأخرى كلهم، وأصل الحياة. ربّما أضفى ذلك عليّ القوة، لكن الشيء الوحيد الذي نقله إليّ حقّاً، هو ذلك الشعور الغامض والدائم بالعجز.

لا أعترف لأديلايده بذلك حتّى لا أحبطها، ولكن إذا وجدت بالفعل إلهة تعيش داخلي، فأنا لا أعرف أين تختبئ. للأمانة، كنت أفضل أن أحمل اسماً عادياً، اسماً شائعاً لا يعني شيئاً بعينه. ربّما أمكنَني حينها أن أعني أنا شيئاً ما.

تختم أديلايده: تعجبينني.

قالت هذا وكأنّه الشيء الأكثر طبيعيّة في العالم، وليس لديها شيء آخر لتضيفه. بدت كأنها تنتظر الآن أن أعود إلى عملي. نظراً إلى أنّني لم أعرف ما يجب عمله، استمرّيت. بالتأكيد أشعر أنّني أفضل. فأنا لو أعجبتها، فهذا يعني أنّني موجودة، ووجودي له معنى، وبالتالي فأنا حية أكثر من أي وقت مضى. والشعور بأننا أحياء شعور جيد. إلّا أنّني، بينما أصعد على السلّم، تساءلت: ولكن ماذا يعجبها فيّ؟ أنّني أعتني بالبناية؟ إصراري على الصمت؟ أوفرول العمل؟ أم ربّما كانت تلك مجرّد عبارة عابرة؟ هل تريد منّي شيئاً ما؟ إذا كان الأمر كذلك، يكفيها أن تطلب.

أضع اللمبة الجديدة مكانها. أقترب من غطاء اللمبة على السّقف وأثبتها بالمفكّ الكهربائي.

الخلاصة، أكتفي بفعل ما أتقنه، وأحاول أن أفصل ذهني.

تسأل أديلايده وهي تضع يدها على مفتاح النّور: هل تُريدني أن أجرّبها؟

- أشكرك.

- إنّها تعمل!

تصيح الطفلة، عندما يُضاء المصباح.

- سحرا

أهبط من على السُّلّم وأغلقه، وأُنزل كهرباء المفكّ، وأضعه في حافظته. ولا تزال أديلايده وابنتها تقفان أمامي.

- نحن نسكن في الطابق العلويّ، ولكن في الجهة المقابلة لكِ.

تشرح أديلايده وهي تراني أفتح باب منزلي: من المؤسف أنّنا لا يمكننا التواصل بخبطات عصا المقشة... لكن على الأقلّ لن تسمينّنا عندما أجري وراء أريا لأحمّمها! اسمعي، ماذا ستفعلين الآن؟ هل لديكِ التزامات؟

كنت أريد العودة إلى «العالم الجديد» لأتأكّد من أنّه لم يبع بالفعل، فسرعة حركة البيع والشّراء في هذه المدينة أسرع من الصوت، إلّا أنّني أقول: لا شيء مهم، سأنظم بعض الأشياء...

موقف غريب للغاية، الآن يجب عليَّ الدخول

إلى منزلي. كيف سأخرج بعد ذلك، دون أن تلاحظ؟ يمكنني الانتظار حتى تضع المفتاح في قفل الطابق العلوي، وأجري بأقصى سرعة عبر الساحة قبل أن يكون لديها الوقت الكافي لتطل من التراس. أو ربّما يمكنني الانتظار قليلًا، كما لو أنّني أدركت فجأة أنّني نسيت اللّبن، أو كأنّهم استدعوني لعمل. وعلى كلّ حال، ماذا سيهم أديلايده إذا خرجت من جديد؟ لن تفكّر أنّني عدت فقط إلى المنزل لأنّني أخشى إخبارها الحقيقة.

تسألني بمكر وهي تمدّ لي يدها بالأوريغامي: هل تريدين الاحتفاظ به؟

- أه، لا، أشكرك.

تمدّ أريا يدها المفتوحة: أنا، أنا!

ثمّ تمسك به برضا.

أوشك أن أودعهما، إلّا أنّني فجأة أغيّر رأيي.

أعترف: في الحقيقة، كنت على وشك الخروج!

أضحك من الموقف المُضحك، ثمّ أضحك لأفرغ التوتّر، وأضحك على نفسي. أديلايده أيضًا تضحك معي، لا أعرف ما إذا كانت تضحك لدوافع نفسها، أم أصيبت بالعدوى.

- كان يمكنك أن تقولي! وإلى أين أنت ذاهبة؟

- آه، فقط لأرى متجرًا.

- فقط لتري متجراً.

تعيد أديلايده، وهي تتمنّى أن أضيف شيئاً آخر.

- في زمنٍ ما كان يوجد محلّ لبيع الأشياء المُستعملة، هنا في الأسفل، ولكنّهم على وشك بيعه. وأنا لا أريد حدوث ذلك، هذا كلّ ما في الأمر. لذا أنا ذاهبة إلى هناك الآن.

- لكن أمر مؤسف بيعه! إنّها جريمة. سنأتي معك.

- معي؟

(13)

في البدء كان الطوفان الكونيّ.

أوضح لنا أبي أنّه مذكور تقريبًا في كلّ الثّقافات القديمة. من إسكنديناڤيا إلى مصر، ومن الهند إلى الصين، ومن اليونان إلى إندونيسيا، اتفق الجميع على أنه حدث بالفعل، في زمنٍ ما غطّت المياه الأرض كلّها، وغمرت الجبال، وكادت أن تصل إلى السماء. فئة قليلة نجت، فقط المختارون: من أعدّ العدّة لذلك وبنى فُلكًا.

في إحدى الأمسيات سألني أنا وأندريا: ماذا ستحملان على فلككما لتنجوا؟

أجبت على الفور: مُبرِّد.

بدا محبَطًا: مُبرِّد؟ المبرِد يمكن الاستغناء عنه.

ثمّ قال بتنهيدة عميقة: لا بدّ من أنّك تعرفين هذا، فأنت تستطيعين الاستغناء عنه تمامًا.

عندئذ أردفت: المُجفّف إذن؟

على أمل أن تكون الإجابة الصحيحة.

هزّ رأسه: هراء. لديك واحد ضخم فوق رأسك. الشّمس.

ثمّ وجّه نظرة استفهام إلى أخي. بادله هو الآخر النّظرة نفسها بلا إجابة، لنفهم من هذا أنّه لا يهتمّ بالاستعداد لحدث مشابه. منذ أن زار المدينة واكتشف العالمَ خارج الحصن، لم يعد يؤمن

بذلك.

انفجر غضبُ أبي وهو يعود بعينيه نحوي: أيمكن ألّا يخطر في ذهنك أي شيء؟

عند رؤية إحباطه، انشقّت هاوية في صدري وبدا لي أنّني أهوي داخلها. وبدأ قلبي ينبض بشدّة. لأنجو... لأنجو... ماذا سأحل؟ ولكن ذهني تعطّل تمامًا.

حاولت أخيرًا: متجر مواد غذائيّة.

على الرّغم من معرفتي أنّني أخطأت.

- المتاجر اختراع فاشل! المتاجر هي سبب كلّ معاناتنا!

كانت أكثر إجابة خاطئة يُمكن التّفوّه بها. اعتدل أندريا في جلسته، ربّما ليدافع عنّي في حال رفع أبي يديه، وهو ما لم يفعله. اكتفى بالوقوف والنظر إلينا بحزن.

وأخيرًا همس: الإجابة الصّحيحة هي البذور.

- البذور؟

ردّدت بصوت واهن.

- البذور تشغل مساحة صغيرة، وتحتوي داخلها على كمّيّة طعام غير محدودة. لا بدّ من أنّكما تعرفان هذا.

كانت فكرة ذكيّة وأنيقة ومُبالَغ فيها، تمامًا مثله، ولست على مستوى يسمح لي بالوصول إليها. لكلّ

سؤال يطرحه أبي توجد إجابة واحدة صحيحة، لذلك من السهل الخطأ. إنّه يطالب بالكمال.

حاولت تخفيف وطأة الأمر: ثمّ إنّني سأحمل معي أندريا على فلكي، سيشغل حيزا كبيرا، ولكنّه لا يمكن الاستغناء عنه.

نهض أخي من فراشه ليدفعني مُداعباً، ولكن وجهه كان متجهماً.

أصدر أبي حكمه: على فُلككم لا بدّ من توفير مكان فقط للضروريات، أي شيء عدا ذلك سيصبح عبثاً.

هل يعني بذلك أنّ الآخرين يُمكن الاستغناء عنهم؟ سألت نفسي بمجرد خروجه من الحجرة. مجرد فكرة أنه سيتعين علينا البدء من الصفر في عالم غسلته المياه أو النيران، دون نقاط إرشادية، كانت ترعبني. أن أبدأ بلا أرنبي الفرو، واوزتي الفخار، وكتبي، أو الأفلام التي كانت أمي تسمح لنا بمشاهدتها، لن يمكنني أبدا عمل ذلك. ربما يمكن الاستغناء عنها، ولكنّها بالتأكيد جوهرية. برأيي، إنّ نوح المسن، بذقنه البيضاء، سيغض الطرف عن كلّ الأشياء غير الأساسيّة التي أرغب في حملها معي. في عالمه الجديد سيكون لها أيضا مكان.

تركت في الحادثة ألمًا طالما اختبرته، اليقين بأنني لا أستحق حبّ أبي أو اهتمامه، وهو الشيء

الّذي ظلّ دائمًا عزيز المنال. كأنّه إله في السّماء.
في صمت اللّيل، تشبّثتُ بذكرى «العالم الجديد». وعلى الرّغم من شعوري بالذنب، فقد فكّرت مرارا في ذلك المكان البعيد، مصدر كلّ معاناتنا، لكنّ النّاس فيه لطفاء ويفعلون شيئًا جميلًا ومرضيا، دون الشّعور بالذّنب.
فجأةً، تمنّى جزءٌ منّي أن يجد «العالم الجديد» مُغلقًا، والسديلة منزلة، كما رأيته مرارًا في الأعوام الخمسة الأخيرة، بلا أيّة لافتة. سيكون مثلما يحدث في الحلم عندما يستيقظ المرء فجأة مُدرِكًا أنّه لا يمكنه التدخّل لتعديل ما يحدث، ولكن لا يهمّ، لأنّه لا يحدث في الواقع. ولكن ماذا لو لم توجد اللافتة؟ ستقف الحياة في صفّي. وسيصبح الأمر سهلًا.

لكن اللافتة موجودة، والباب مفتوح على مصراعيه. تعرّفت إلى فتاة الشركة عبر الحاجز الزجاجي. اليوم أيضا ترتدي حلقًا مستديرا، وحذاء بكعب عالٍ. تنظر حولها، بمفردها، كأنّها فريسة توتّر داخليّ. في قرارة نفسها، هل هذا المكان يعجبها، أم تراه عبئا لا بدّ من التخلّص منه سريعا؟ هل تعبر ماركات الملابس الثّمينة عن شخصيتها أم أنّها مجرد درع حماية؟ هل تعيش محبوسة في سلوك لا ينتمي إليها في الواقع؟ ربما تكون كلّ افتراضاتي لا أساس لها من الصحة، ولكن لديّ انطباع أنّها شخصية مختلطة، حريص على

صوف. سيكون هذا اسمها من الآن فصاعدًا.

تتخطّى أديلايده المدخل وابنتها في يدها: كم جميل هذا المكان!

تنظر إلينا «حرير على صوف» على الفور، وتُشير إليّ لتفهمني أنّها تعرّفت إليّ، ثمّ تُحدّق بنظرة ممزوجة بالاضطراب والاستمتاع إلى أديلايده وثوبها الفضيّ والطفلة ذات التاج.

- هذا مكان رائع لإبداعاتي!

تصيح أديلايده، دون أن تشعر بالخجل. تُمسكني بذراعي وكأنّنا صديقتان حميمتان.

- هل تتخيّلين ذلك؟

لا أدري كيف يُمكنني تخيُّل ذلك، أفكّر مُبتسمة، فأنا لم أرَها قطّ.

- المتجر للبيع.

توضّح «حرير على صوف»، في حال إذا كانت لافتة للبيع غير كافية.

تلتفت أديلايده نحوي: أعتقد أنّ ثمنه سيكون أكبر بكثير من ميزانيتي. ليس لديّ سوى ستمائة يورو في حسابي، ماذا عنكِ؟

أشعر بوجنتيّ تشتعلان، فأنا ليس لديّ حساب مصرفي. وأحتفظ بكلّ شيء في ملفّ: الحسابات والإيصالات والدفتر الّذي أحسب فيه كلّ شيء، في نهاية الشهر. لا يتبقّ الكثير أبدًا، على الرغم

من حرصي، ولكن لديّ دائمًا بعض النقود للطوارئ والحوادث وأحاول أن أدّخر شيئًا أيضا لفترة المعاش.

كنت سآتي إلى هنا فقط لألقي نظرة من الخارج دون أن أظهر، فقط لأتأكد أنّ «العالم الجديد» فتح بالفعل، وأنّه لم يبع حتّى الآن، وأنّه ربّما تكون هناك فرصة، ولو بعيدة، لإنقاذه. لأشعر أنّني قوية بعض الشيء، لهذا فقط أتيت.

ثمّ تُلقي أديلايده بعبارةٍ على حرير على صوف: بالتأكيد هناك صفقة مهمّة تدفع إلى العمل يوم الأحد.

تجيب هي أثناء فحصها إشعارات الهاتف: البيزنيس لا يعرف الإجازات. أوّل شيء يجب عمله هو إخلاء المكان من كلّ شيء.

- إخلاؤه...؟

أردّد مُشكّكة.

إنّ إخلاء أماكن كهذه يُعتبر جريمة. ماذا سيبقى؟ فقط الجدران والرّطوبة والأتربة.

يفلت لساني: إنّ لهذه الأشياء قيمة.

تنظر إليّ أديلايده مؤيّدة.

- قيمة؟

تنظر إليّ «حرير على صوف» وهي تضبط قرطها المستدير.

- تحتاج فقط إلى قدر من العناية.

- هل تقولين إنّ بقايا مخزني يمكنها أن تجعلني مليونيرة؟

- مليونيرة أمر لا أعلمه، ولكن يمكن من خلال بيعها الحصول على بعض النقود.

تدهشني جرأتي ويبدو أنّها تُثير إعجاب أريا وأديلايده. إذا استطعت أن أكسب بعض الوقت ربّما يُمكنني التّواصل مع مارجريت، هذا ما أفكّر فيه.

للمرّة الأولى تنظر إليّ «حرير على صوف» وكأنّها تراني بالفعل: ومن سيهتمّ بابتياع تلك الأشياء؟

أرفع كتفي، وأنا أحاول البحث عن النّبرة المناسبة: كثير من النّاس...

كنت كمن ألقى بنفسه في الماء دون أن يُجيد السّباحة، لا بدّ من أن يفعل كلّ ما بِوسْعِه ليبقى طافيًا.

تُوجّه إليّ الفتاة نظرةً مُشكّكة، وتُعيد الضّغط على شاشة هاتفها. ولكنّني في مهمّة. وخطرت لي فكرة.

- إذا أردتِ يُمكنني أن أترك لكِ رقمي. وفي الوقت نفسهَ سأستعلم، فأنا أعرفُ الجميع في الحيّ... وأعرف العديد من هُواة الأنتيكات.

تنظر إليّ، تُقيّم موافقتها. ثُمّ تُجيب: حسنًا، اتركيه لي، لا أحد يعلم.

أخرج من حقيبة ظهري دفتر الأوراق اللّاصقة، وأكتبه وأعطيه لها بسرعة.

تُجيبني هي، وكأنّها لا تعرف ماذا ستفعل بتلك الورقة: اتصلي بي.

- أحبّ الكتابة على الورق، يبدو لي أنّني بذلك أترك أثرًا في العالم.

تُصفّق لي أديلايده والطفلة، فأشعر بالخجل الشّديد.

- حسنًا لنذهب.

تقول بعدها أديلايده لِتُنقِذَني من الغرق.

- لتتركْنَ الباب مفتوحًا يا مُبدِعات!

تصيح «حرير على صوف» وهي تتّجه نحو الجزء الخلفي من المتجر: ربّما يدخل أحد آخر.

ثمّ تضيف بصوتٍ منخفضٍ، ولكن ليس كثيرًا، بحيث نسمعه أيضًا:

- شخص ذو أفكار أقل ونقود أكثر!

بمجرّد أن خرجنا، طلبَت منّي أديلايده أن أترك لها رقمي.

أجيب: وفيمَ ستحتاجينه؟ يمكنك أن تنزلي وتطرقي على بابي، فأنا في الطابق الأسفل منك.

تشدّ على يدي: سأفعل ذلك أسرع ممّا تتخيّلين. بل مِن الأفضل الآن. تعالي معنا على الفور، أريد أن أطلعك على إبداعاتي الفنية.

(14)

لمدّة اثنين وعشرين عامًا لم أرَ مسكنًا بخلاف الحصن ومنزل جدتي. اعتدت أن أحلم بمنازل الآخرين، وبحياتهم. ألتهم بعيني تلك المنازل التي تظهر في الأفلام، أنتبه إلى كلّ تفاصيلها. أين يحفظون المفاتيح، ما نوع المبرد الموضوع في المطبخ، لو وضعوا إسطة أو سريرًا ذا مظلة (أنا أيضًا أردت واحدًا)، في أيّ طابق يسكنون، وما إذا كانت لديهم حديقة. في الأفلام تعكس المنازل طبيعة ساكنيها تمامًا، بينما في عملي الجديد لم يكن الأمر كذلك. فالمنازل الحقيقية تعكس جزءًا خفيًا منّا، أحيانًا تفاجئ حتّى من يعتقد أنه يعرفنا.

صالون أديلايده يعجّ بالنّباتات واللّعب، تتناثر فيه الأثواب المتنوعة الأشكال والألوان، منها المطبوع ومنها المطرّز، ومنها الحرير ومنها التل. على المبرد لصقت عشرات من البطاقات البريدية وأوراق لاصقة، وعلى مقعد عجلة طفلة تتراكم دستة من الكتب. وفي وسط الحجرة توجد أريكة مغطّاة بالمخمل الأزرق الكهربائي. شعرت بالرّغبة في أن أغوص داخلها.

ربّما بدا الجوّ خاصًا بورشة حياكة، لكنّها في الحقيقة شقّة امرأة وابنتها، شقّة شخص تقدّم إلى الأمام بخلاف ما كان عليه في شبابه خالي

الوفاض، ولا يزال مرتابًا في ما يجب عليه عمله. في حالة فوضى، لأنّ الحياة هي فوضى. كلّ شيء عكسه منزلي، حيث كلّ شيء في مكانه أمرٌ بديهي، دون أيّ أثر لعبور أيّ شخص سِواي.

تجري أريا وتختبئ في تُلّ تنورة ثوب أصفر الكاري.

- ها هي إبداعاتي الفنيّة.

تقول أديلايده وهي تُطلعني بفخر على الملابس التي تصمّمها وتخيطها في أوقات الفراغ. الطاولة التي وضعت عليها ماكينة الخياطة، توجد أسفل النافذة.

تحكي لي أديلايده أنّها تعمل موظّفة في متجر لسلسلة من الموضة العابرة، لكنّ شغفها الحقيقي هو الخياطة. ترفع الثّوب الأصفر وتضعه فوقها. يبدو الجزء الأعلى منه ناعمًا، أمّا الأسفل فعبارة عن تنورة واسعة مُكوّنة من طبقات. لا تزال أريا تختبئ فيها وتصدر من داخلها صرخاتها الصغيرة. ثوب رائع الجمال.

- أربع وعشرون ساعة عمل. تُل حريري. مُحاك كلّه يدويًا. المسيه.

أمدّ أصابعي وأتفاجأ: ملمسه مثل السحابة.

تصيح أديلايده متحدّثة مع ابنتها المُختبِئة في الثوب: هيّا اخرجي.

تخرج أريا من التّنورة وتهرع نحو غرفة النوم.

لوهلة تمنّيت أن تكون حياتهما حياتي.

تسألني أديلايده: إذن، هل أنت من أولئك الشّخصيات الّتي يمكنهما تركيب قطع الأثاث دون أن تشتم السماء وتلعنها؟

- أنا من أولئك الّذين يلعنون أنفسهم فقط.

- وهل يمكنك مساعدتنا في تركيب مكتبة؟

وفي هذه اللّحظة أطلعتني على صندوق ثقيل ومتين، مخبأً خلف الأريكة.

- عندما طلبت مكتبة، اعتقدت أنّها ستصل إليّ مكتبة، لكن هذا ما وصلني. أي أنّ أكبر قطعة فيه ستكون عشرين سنتيمترا. ولطالما كرهت لعبة الليغو.

أجيبها وأنا أشعر بقوّتي وبأنّني أكثر نضجًا من بضع دقائق مضت، فقط لأنّه يمكنني مساعدتها:

- دعيني أرى.

ولكن بينما أخرج القطع أدركت أنّ الخشب ليس متينا، بل مجرد رقائق من شجر البتولا، ولا توجد فيه حتى الثقوب لوضع المسامير.

- يمكنني تركيبها، لكنّها لن تصمد طويلًا. ولا أعتقد أنها تستحقّ الجهد. لنفعل ذلك: سأبحث لك عن واحدة في الجوار. مكتبة مستعملة ومتينة أفضل من أخرى جديدة لكن هشّة. ما رأيك؟

تحني رأسها: ما معنى في الجوار؟

- النّاس يتخلّصون من أشياء لا تزال صالحة للاستخدام. يحتاج الأمر فقط إلى بعض الحظّ.

تنظر إليّ، بنظرة بدت لي خليطًا من الإعجاب وعدم التصديق.

- بالتّسلّح بالصّبر، ومعرفة أين نبحث، يمكننا العثور على واحدة جميلة. أنا أعرف أين أبحث، والصّبر دورك أنتِ.

ترفع كتفيها: يمكث الصندوق هنا منذ قرن. لا أعتقد أنّ الأمر سيتغيّر كثيرًا إذا اضطرّت كتبنا إلى الانتظار مزيدًا من الوقت. أعتقد أنّها تحبّ أن تمكث مبعثرة هنا وهناك.

ثمّ أشارت إلى الصندوق: ولكن ماذا سنفعل بذلك؟ فقد دفعت فيها تسعة وسبعين يورو وتسعين سنتًا.

- فلنصنع بينوكيو.

- بمعنى؟

- نحوّلها إلى ألواح تقطيع، صوانٍ، قواعد أكواب، أعمال نحت... أو ربما بيت للدّمي.

أضيف في النّهاية وقد أوحى لي بذلك رؤية أريا عند عودتها من غرفتها.

تُصفّق بيديها فرحة: أجل أجل! بيت للدمي!

تصيح أديلايده، وهي فرحة تقريبًا كابنتها: هذا هو! بيت للدّمي! إنّه حلم أريا. أشكرك حقًّا. فنحن

لا نُجيد الأشغال اليدويّة. ولكنّنا لطيفتان، أليس كذلك.

ويتوجّه إليّ بابتسامة تُظهر عددًا لانهائيًا من الأسنان.

- جدًا.

أؤكّد وأنا أفحص رقائق الخشب لأخفي خجلي.

- المقاييس كلّها موجودة، يحتاج الأمر فقط إلى تصميم المشروع. هل لديكم ورقة وقلم؟

تجري أريا نحو الجهة الأخرى لِتُحضرها لي، مستعدة لتعمل كساعدتي.

يُعيدني حماسها إلى طفولتي، فأرى نفسي من جديد طفلة في الحصن. إذا تهاوى سقف المخزن، أو فقَدَ أحد أنابيبه، أو توقّف المُولِّد عن العمل، يعقد أبي اجتماعًا معي أنا وأختي لنُحلّل المشكلة ونُقدّم الحلول. لم يكن يعبّر عن رأيه، بل يجمع اقتراحاتنا ويطلب منّا أن نُحاول تنفيذها. لم تكن مُجدية في البداية، لكنّ المُهمّ أن نُظهر له أنّنا نستطيع التصرّف بمفردنا. كان يقول علينا استخدام عقلنا أوّلًا ثمّ يدينا. في كلّ مرّة يقول فيها ذلك يتبادر إلى ذهني خيال المآتة في «ساحر أوز» وهو يقول: العقل هو الشيء الوحيد المُهمّ امتلاكه في هذا العالم، سواء كنّا غربانًا أم آدميين. يضيف أبي دائمًا أنّه لن يربّينا مثل أقراننا، عبيدًا للوهم البشع دون أن يدروا،

ولا يجيدوا فعل أيّ شيء، لا يُمكن أن يكونوا أنفسهم، بل مجرد تنويعات على نموذج بدائي. كلّها مناقشات تشعرني أنني مهمة، وتمنحني اليقين بأنّ كلّ مجهوداتي في سبيل قضية عادلة. النجاح في تلك العمليات مع أبي يشعرني دائمًا أنني بخير.

ولكن إذا بدا أننا غير قادرين على الوصول إلى حلّ المشكلة، يحزن ويحدق بنا بنظرة فيها مزيج من الضّيق والمرارة، وكأننا شيء خاطئ، وليعاقبنا، يحبسنا في خزانة الأدوات، قد يصل الأمر أحيانًا إلى ساعات. يفعل ذلك، حسب قوله، لنفكّر. يلفّ المفتاح في القفل ويطفئ النّور من الخارج. كان يسميها: «معقل التفكير».

لم تكن في تلك الخزانة تدفئة أو نوافذ، بل كانت قارسة البرودة في الشّتاء، وخانقة في الصيف. يصر أبي على أنّ الضّيق يساعد على التّركيز والتّفكير بوضوح. في الظّلمة كنت ألعب لعبة تخمين السلع المحفوظة في البرطمانات عن طريق لمس الوعاء والملصق. وكنت أيضًا أمارس عمليات الضرب المعقّدة، وأقفز حتى أتدفأ، وأعود بالذاكرة إلى الخلف بحثًا عن الذكرى الأولى في حياتي. لم يكن الوقت في «معقل التّفكير» يمرّ على الإطلاق. عادةً لا يخطر شيء على بالي وأنا محبوسة هناك في الدّاخل. كأنّ المرء لا وجود له. إنه وضع أسوأ من الموت.

تصيح أريا بصوت رفيع يعيدني إلى الواقع:

جميل جدًّا!

انتهى تصميم منزل الدمى، نفّذته دون وعي مني. سقط في قلبي صخر ثقيل. في كلّ مرّة أعيد التفكير في الحصن، يستحيل كلّ ما حولي إلى ظلام، وأشعر أنني على وشك السقوط في ثقب أسود. حتى التنفس يصبح صعباً. الحصن بعيد بعد أعوام ضوئية، لكنني ما زلت هناك.

أقول للطفلة: إذن خلال أيام أشكّل القطع وأجمعها. أوكي؟

- أجل! تعالي لتري حجرتنا.

الحجرة صاخبة. على فراش مبنيّ على شكل قصر علّقت قبعة مخروطة لساحرة، وأفعى بوا من ريش لونه فوشيا. في ما وراء الفراش القصر توجد منضدة ومقعد مخصص للأطفال عليه رسومات وأقلام رصاص. على الجانب المقابل، تراكمت على شماعة طويلة إبداعات فنية من الحياكة بألوان كثيرة. على الأرض، مرتبة في صف، حوالي عشرة أزواج من الأحذية. تضع أريا الآن جناحي فراشة، بالتأكيد من صنع أمها.

فجأةً أشعر بوجودي الكامل: أدرك أنني لست فقط في منزل أحدهم، بل موجودة بلا سبب محدد، بلا واجب. للمرة الأولى، بلا عمل. يغمر صدري دفء استثنائي. أشعر بأنني لست مجرد يد تقبض على مفك. وأقترب من الملابس.

تقول لي أديلايده أنّ حلُمها هو العيش من أرباح إبداعاها الفنيّ في الخياطة، هكذا يمكنها الاستقالة من عملها الحالي الّذي يستنزفها يوماً تلو الآخر، ويستهلكها، حيث تبيع أثواباً مصنوعة من نسيج رخيص وملوث، خاطه أشخاص استغلوا، لزبائن مستعجلين دائماً وغير مبالين، في ظل مراقبة مسؤول يتصرّف بسيادية وكراهية للنساء.

من جهة أخرى، الأمر ليس بهذه البساطة، فهي بحاجة إلى وقت كافٍ لتكرّسه للملابس الّتي تصنعها، ولا بد من أن تصبح مشهورة، وأن تخفض من أسعارها لتجذب الزبائن، وأن تعثر على مكان لتعرض فيه بضائعها.

تعلّق، وهي تنظر إلى ابنتها: فوضى تامّة. مجرّد أحلام، ولكنّها بلا أجنحة.

يلزمها عمل بساعات أقلّ وأجر أعلى، وفيما تصنع الأجنحة لحلمها، تسفر كلّ مقابلات العمل الّتي تخوضها عن لا شيء. أصحاب الأعمال يريدون فتيات سريعات ومستعدات، ولكن لا يبدو أنّ أحداً مستعد أن يدفع لهنّ ما يستحقّون أو أن يضمن لهنّ ساعات عمل تسمح لهنّ بحياة بعد العمل.

- تخيّلي ركناً مخصصاً لأثوابي في متجر ساحر مثل «العالم الجديد». ما إن تجتازي العتبة حتّى تجدي نفسك في عالم آخر، تاركة خلفك كلّ شيء. تصبحين محاطة بالجمال والفرص، فرصة ارتدائك

يوب طالما حلمت به... يا له من جنون كَونهم يرغبون في إخلاء ذلك المكان وبيعه دون أن يرمش لهم جفن.

تبدو أديلايده مُستاءة مثلي وهذا يُثلج صدري. ودون أن أقرر، أحكي لها عن دوروثي وحال المتجر في حياتها، وعن مارجريت التي تخلت عنه في ظروف غامضة. يزداد استياء أديلايده، ثمّ ترفع نظرها وتعلن: لقد تعبت من الانتظار.

- ماذا تعني؟ انتظار ماذا؟

- بالتحديد، ماذا؟ هذا هو السؤال الحقيقيّ. الآن في مجتمعنا لا نفعل شيئًا سوى الانتظار. انتظار أن تطبق العدالة، وأن تتغيّر الأشياء، وأن يتحسّن المستقبل، وأن تحدث المعجزات أو الاستسلام، ولكن أحيانًا لا نعرف حتى لماذا نستسلم، وهكذا ننتظر فحسب.

لا أريد الاعتراف بذلك، ولكن في ما يخصّني هذا ما يحدث تمامًا. فحياتي ليست سوى انتظار طويل جدًا، ولن أندهش إذا صار لانهائيًا.

تلحّ أديلايده: ماذا عن روح الماضي المُحارِبة؟ في البداية اعتدنا الصراع! كانوا يعارضوننا، ويعرقلوننا، ويخرّبون ما نفعله... ورغم ذلك كنّا نحقق نتائج ملموسة.

ثُمّ تسألني: يهمّك هذا المتجر، أليس كذلك؟ يُمكن فهم ذلك ولو من على بعد ميل.

لا أستطيع فعل شيء سوى الإيماء بالموافقة. أُحدِّق بأصابعي المتشققة، وفي الوقت نفسه أحاول استنتاج ما تصبو إليه. لكنني لا أحتاج إلى فعل ذلك لمدة أطوَل.

- لا بُدّ من التوقّف عن زيارة المتجر، والبَدْء في البحث عن مارجريت.

تُقرّر أديلايده بتعبير يستحيل بعده أيّ تعقيب.

فكرة استخدامها صيغة الجمع تُداعب شيئًا ما داخلي. أشعر برغبة عارمة في البكاء. لكنّه رَدّ فعل غير مناسِب على الإطلاق، لِذا أحاول قمعه على الفور.

لكنّي أجرؤ على قول: فكرة مجنونة بعض الشيء.

- بالتأكيد. ولكن كيف سيكون شكل الحياة بلا قليل من الجنون؟

أودُّ القول، ليتَهُ لا يزيد عن حَدّه.

تُكمل هي بنبرة عمليّة: لنبدأ بالأساسيّات، لننزع تلك اللافتة؟

- لافتة «للبيع»؟

- وماذا غيرها؟ سنذهب هذا المساء.

تفلت منّي ضحكة خفيفة، تتراوح بين السّخرية والعطس. إلّا أنّ كلمات السيدة داليا تعود ترنّ في أذني: لا عذر لديك، إلّا أنّك لا تعيشين.

أقول وأنا أرفع يديَّ باستسلام: إنّه جنون...

ولكنّه أفضل من لا شيء».

- حسنًا ها قد قرّرنا. لكن انتظري لحظة، ينقص تفصيل مهمّ. لماذا لا تجرّبين أحد أثوابي؟

- أشكرك، لكن...

- لديّ واحد سيُناسبك جدًا.

- الحقيقة...

لا أعرف كيف أرتدي الأثواب.

- لا أحبّ أن ألفت النّظر.

- سَأُطلعك على سرّ: أنتِ تلفتين النّظر بالفعل. فتاة ترتدي مثل السبّاك، وتحمل حقيبة معدّات عملاقة، ودائمًا بمفردها. هل هناك شيء يلفت النّظر أكثر من ذلك.

ثمّ تُضيف، قبل أن أجتاز العتبة:

- سأُطلعك على سرّ آخر. كنت أعرف بالفعل أنّ اسمك جيا، وأنّكِ من يصنع الأوريغامي الفنيّة، وقد رأيتك تضعين اللاّفتات في أنحاء البناية.

(15)

يُوشك أوجينيو أن يلتهم القطعة الثّانية من كيكة النوتيلا، جزءًا من الوجبة الّتي أعهدت لي بها أمه بالأمس من «اللاشيء». أقرض في نصيبي من اللازانيا لأشاركه تناول الطعام. اعتدت أكثر مما ينبغي أن أنام بمعدة خاوية تقريبًا، مستعدّة إلى أن أقفز على قدميّ عند الحاجة.

أعيد التّفكير في اللافتة القابعة تحت فراشي، للبيع. أرادت أديلايده أن نرتدي، من أجل عمليّة السّرقة، غطاء رأس يُغطّي الأذُنين، لونه فوشيا شغلته بأناملها من التّرتر.

- لن يُساعِدَنا كثيرًا على ألّا نلفت النّظر.

سمحت لنفسي بأن أقول، ولكنّها أجابتني بأنّه لم يعُدْ أحد يندهش من أيّ شيء، فلنتخيل من سينتبه إلينا، في الثامنة والنصف من يوم الأحد مساءً. لكن لم يكن أمامنا الكثير من الوقت لنهدره حيث لدي موعد مع ابن صديقة في منزلي السّاعة التّاسعة.

يسألني أوجينيو الآن: فيمَ تُفكّرين؟

وهو ينظّف فمه بمنشفة السفرة.

تلخيص كلّ ما في رأسي بعبارة واحدة أمر مستحيل. فأنا كلّي فكرة. فروتيني اضطرب، وأوراقي اختلطت، وكلّ نقاطي الإرشاديّة تبخرت.

- أفكّر في «العالم الجديد».

- لا بُدّ لكِ أن تخرجي من الحيّ من حين إلى آخر.

يتفوّه بتلك العبارة، وهو يُسقِط في فمه القطعة الأخيرة من الكيكة.

- بماذا ستفيدك المدينة لو لديك حيّ يخصّك؟

- أنتِ لا تعرفين مدى جمال المدينة الّتي تتغيّر يومًا بعدَ يوم، بل وساعة تِلوَ الأخرى. إنّ منظرها رائع ليلًا.

تلمع عيناه، كما يحدث في كلّ مرة يتحدّث فيها عن جولاته بالأتوبيس رقم 91، فهو يقطع الطريق الدائري كله، ولا يتوقّف أبدًا. يمكِن للمرء أن يقفز فوقه ويتجوّل إلى الأبد، والمدينة تجري خارج النّافذة الصغيرة. عندئذٍ يصير أي قلق، كبيرًا كان أم صغيرًا، يتضاءل حتى يصبح نقطة صغيرة، ثمّ يتلاشى.

ثمّ يرفع كَتِفَيه.

أعرِف لماذا تُعدّ هذه فكرة مُطمئنة بالنّسبة إليه. إنّه تقريبًا ما أقوله لنفسي عندما أقضي الأمسية غارقة في مقعدي الوردي في الصالون، وأتخيّل أنّني لا أبرح المنزل أبدًا. سيكون أمرًا عجيبًا بالتأكيد، ولكنّها إمكانيّة ملموسة، إنّه أمر مجرد التفكير فيه يريحني. يشعِرني أنه ربّما تكون لدي وسيلة للهرب.

لا يزال أوجينيو يرتدي زيّه. لو لم نكن نحن اللّذين نسّقناه معا لاعتقدته أصليا. بذلة زرقاء، قميص سماويّ ورابطة عنق حمراء، وفي الشّتاء جيليه أحمر بوردو.

يظلّ الزّيّ دائمًا في منزلي، على شماعة الملابس في الصالون. يحتفظ أوجينيو بنسخة مفاتيح؛ بعد المدرسة، يصعد إلى شقّتي ويبدل ملابسه ثم يصعد على الأوتوبيس رقم 91 في السّاعة الثّانية إلّا أربع دقائق، يجلس دائمًا بجوار النّافذة. يعود نحو الخامسة، ويخلع البذلة، ويرتدي ملابسه ويعبر الساحة ويصعد إلى منزله. نتبادل التّحيّة من النّافذة. وفي يوميّ السّبت والأحد، تكون دوريته طوال النهار. فيخبر والديه بأنّه يذهب إلى المكتبة. لأنهما لن يوافقا على أن ينمّي حلمه بأن يصبح سائقًا، يفكّرون في تكريس مستقبله للاعتناء بالمقهى. أغطّي عليه لأنّني أعرف ما يمثّله له هذا الحلم. بالإضافة إلى أنّه فعلًا يأخذ الكتب معه وأعرف أنّه يقرأها.

يُطلق أوجينيو على الأتوبيس «الحافلة» وذلك بسبب جدته. ففي الصّيف، لكي يذهب إلى البحر في البلدة الواقعة خلف الميناء، حيث تسكن جدّته، يستقلّ الحافلة يوميا.

حكى لي أوجينيو: عندما مرضت، وعدتها بأنّني سأتعلّم قيادة واحدة لكي أذهب وآخذها من المستشفى وأقلّها إلى البيت. لكنّ الوقت

لم يُسعفني... ولكنّني في كلّ الأحوال أريد أن أتعلّم. هكذا في أحد الأيّام، عندما أذهب إليها، أكون قد فعلت ذلك في الحافلة.

بدا لي هذا دافعًا رائعًا. إذا اختار الجميع مهنتهم على هذا الأساس، ربّما يصبح العالم أفضل. عالم ابتساماته أكثر وأحزانه أقلّ. هذا أكيد.

في العاشرة والخمس والثلاثين دقيقة، دقّ جرس هاتفي. لا أجيب أبدا على الهاتف، أستخدم الرّسائل فقط، ولكنّ شيئًا ما يوحي لي بأنّه قد يكون أمرًا مهمًا. ثمّ إنّ أوجينيو معي الآن، وهذا يشعرني بالأمان أكثر.

أقول «ألو» ثمّ أخرج إلى التّراس.

- المعذرة هل أزعجك؟

صوت نسائي. أكتفي بالإجابة بدون إضافة كلمة أخرى. من الأفضل عدم منح مزيد من الثّقة، ربّما تحاول أن تبيع لي شيئًا. أكره اضطراري إلى المناقشة لتوضيح الأسباب الّتي أرفض من أجلها أن يبيع لي أحدهم شيئًا في صندوق مغلق.

لماذا لا تكفي مجرّد «لا»؟ يحدث هذا أكثر ممّا ينبغي في الحياة: يرغب المرء في أن يقول لا فقط، بسيطة ولائقة، ولكن من الجهة الأخرى يجيبون: ولِمَ لا؟ كم جميل لو قبل العالم بـ«لا» كإجابة بسيطة. هل ترغبين في شراء كمية من مسحوق غسيل الملابس تكفيكِ لمدّة سنة؟ لا. هل ترغبين

في تغيير السيّارة، شركة الهاتف، المنزل، القطة، الكلب، معجون الأسنان؟ لا. هل تريدين ستة عشر زوجاً من الملابس الداخلية بسعر دستة، الذهاب إلى كوكب المريخ، هامبرغر يصنع في دقيقة؟ لا، لا ولا. هل تريدين عضلات حديدية، أن تعيشي مئة وعشرين عاماً، أن تفقدي عشرة كيلوجرامات؟ لا. أرغب في أن أقول لا.

يقول صوت رفيع: كنت أتساءل إذا كانت لديكِ أخبار جديدة بشأن إمكانيّة بيع الأشياء في متجر الأنتيكات؟ أعرف أنّنا في مساء الأحد، ولكن أنتِ تدركين مدى أهميّة الوقت، وليس أمامنا الكثير.

إنّها «حرير على صوف»! يا لتعاسة الحظّ! منذ قليل وصلت أنا وأديلايده إلى قرار يقضي بوجودي في المكان، أثناء زيارات المتجر، وفي الوقت نفسه نعمل على الخطّة. وعند عودتنا إلى المنزل خطرت في ذهني فكرة بهذا الشأن. أثناء قفزي الدرج درجتين تلو درجتين شعرت بخفّة، على الرغم من أنّني لا أعرف إذا كان ما أفكّر فيه سينجح، وها هي الآن تعرض لي إمكانيّة تجربة هذا.

أقول وأنا أتنحنح: أجل، في الواقع...

خشيت أن يكون عليّ أن أبادر وأواجه تلك الحادثة وجهاً لوجه، ربّما في اليوم التالي في المتجر، بكلّ صعوبات الحالة، الرعشات

والجولات في الفراغ والصّوت المُتَذبذب. في الهاتف يمكن ملاحظة الخجل بصورة أقلّ، وهذا منَحَني مجالًا أكثر للخداع.

ينبض قلبي بسرعة شديدة: استطعت التّحدّث مع بعض التجار وبائعي الأنتيكات المتخصّصين، وبناءً على حديثي، أظهروا اهتمامًا كافيًا.

- أشعر أنّ العبارة تنقصها: ولكن.

ألقي نظرة على أوجينيو من خلال الباب الزّجاجي. يقرأ مجلة مصورة ولا دراية له بالعرض المسرحي الّذي أؤدّيه الآن.

- يوجد سببان للاعتراض.

أقول مُحدّدة، وأتمنّى أن تكون النّبرة مُناسبة.

- فعلًا؟

أتوقّف مرّة أخرى، ولكن لفترة أقصر، تكفي لترتيب أفكاري وصياغة العبارة بأفضل طريقة ممكنة.

أقول: السّبب الأوّل يتعلّق بقائمة السّلع. يرغبون في قائمة بكلّ ما هو موجود للبيع، قطعة قطعة، بصور ومعلومات مفصّلة.

وقفة تماسك. نبرة أسف: لا أعتقد أنّها لديكم... أليس كذلك؟

تؤكّد هي، محبَطة: لا أعتقد.

- من جهة أخرى إعداد قائمة مُفصّلة على الوجه

الأمثل ليس أمرًا مُستحيلًا. يحتاج فقط إلى مجهود ودقة.

- أوافقك، ولكن من لديه الوقت؟

- سهلة. أنا.

- آه.

بدا أنّ «حرير على صوف» قد تفاجأت.

- أوك...

أريد أن أضيف، هناك قائمة بكلّ ما يحتوي عليه منزلي، ولكن أفضّل الاحتفاظ بهذه المعلومة لنفسي. سيبدو أمرًا مبالغًا فيه، حتّى لو كان حقيقيًا.

نظرًا إلى أنّها لم تقل شيئًا آخر، أُكمل.

- ونأتي إلى الاعتراض الثّاني: يرغبون في أن تكون الأشياء سليمة، كأنّها جديدة، وجاهزة للبيع...

وقفة إستراتيجية: هذا يحتاج إلى عمل غير هيّن.

تتنهّد، وهي تشعر بمزيد من الإحباط وتقول: ومن يمكنه عمل هذا؟

على الرّغم من أنّها لا تراني، أرفع كتفي قليلًا، ومع نبرة متواضعة لمن يضحي دون أن يشعرك بذلك، أجيب: سهلة، سهلة، مرّة ثانية، أنا. (أنا دائمًا)

تبع ذلك فترة صمت طويلة للغاية، إلى حدّ أنّني

خشيت الفشل. ربّما توشك أن ترفض. إلّا أنّها قالت: غدًا سأكون في المتجر، إذا أردتِ المرور، يُمكننا التحدّث في هذا الأمر.

أحاول أن أتمالك حماسي، فيما أقول لها حسنًا وأودّعها. انتصار صغير عظيم، بالإضافة إلى أنّه غير متوقّع. أفكّر في مكافأة نفسي، إذا كنت أستطيع عمل ذلك. عندئذ أنظر إلى أوجينيو، وأبتسم له من خلف الزّجاج.

أفتح الخزانة الماهوغني في الصّالون. أردت استبدالها بأخرى معدنية، أكثر متانة بالتّأكيد، لكنّها لجدّتي، وقد أحببتها. عندما وصلت كانت مكدّسة بالملاءات وتفوح منها رائحة غسيل قديم، بعضها شاحب والآخر مبقّع. جدّتي هي الأخرى اعتادت التوفير. حولت أغلبها إلى قطع قماش تنظيف المنزل، واستخدمت الأخريات. آخذ اثنتين الآن وأعدّ فراشًا في منتصف الحجرة.

أضع أيضًا في الخزانة مجموعة من الأدوات الغريبة الّتي التقطها في الجوار، مثل مذياع محمول يعمل بالطّاقة الشّمسيّة، كان أبي سيحبه بالتّأكيد! فهذا الشّيء يقدّم بثًا إذاعيًا بموجات متعدّدة: متوسّطة، وبديلة، وقصيرة، وكذلك موجات التّحذير الجوّي، فضلًا عن أنّ فيه بطارية قويّة ومنبه وبوصلة.

يتسلّى أوجينيو بعدّ الأدوات الّتي أحتفظ بها، ويشاركني في تأليف ماضٍ لها. ويطلق عليها اسم:

«كنوزك». الشّيء المُفضّل له هو آلة تصوير قديمة بمنفاخ. أمنحها له الآن: من أجل عيد ميلادك.

- ولكنّه بعد ثلاثة أشهر.

- إذن من أجل عيد الميلاد.

يضحك هو: وهذا خلال قرن.

- الخلاصة، لا نحتاج إلى مناسبة في كلّ مرة نُقدّم فيها هديّة.

تكاد الدّموع تفرُّ من عينيّه: هل صلّحتها!

- لا يُمكنني أن أعطيها لك تالفة بالتّأكيد. نحن نُحبّ الأشياء حيّة، غير مُعطّلة.

- هل يُمكنني المَبيت هنا اللّيلة؟

كلّ مرّة ينظر إليّ آملًا! وكأنّه يحتاج إلى الاستئذان.

- برأيك، لِمَن هذا الفراش الّذي أُعدّه الآن؟

(16)

في الشّقّة الّتي تعلو شقّتي مباشرةً، تلك المقابلة لشقّة أديلايده وأريا، انتقل حديثا شابّ يعاني من الأرق. حتّى الآن، لم أتبيّن وجهه جيدا، فنادرًا ما تتقاطع طرقنا، بالإضافة إلى أنّه يرتدي كنزة ذات قلنسوة سوداء اللون، ويضع القلنسوة على رأسه. على ظهره مكتوب: لا يمكنها أن تمطر إلى الأبد.

سمعت أحدهم يقول إنّه طالب. كنت أعتقد أنّ الطّلبة يقيمون الحفلات ويأكلون البيتزا مع أصدقائهم ممددين على الأريكة، ويتركون أكواما من الكارتون والزّجاجات الفارغة في كلّ مكان، ويشغّلون الموسيقى بأعلى صوت. لكن يبدو أنّ هذا الطالب ليس لديه أصدقاء ولا مكبر صوت. صوته يصدر ليلا فقط حيث يظلّ يسير ذهابًا وإيابًا لساعات.

أنا أيضًا أحيانًا أخلد إلى النّوم بصعوبة، ولكن لماذا لا يمكث الشخص في فراشه ليقرأ أو يجلس ليُحدّق بالسّماء؟ بالتّأكيد السّماء لونها شاحب، وفي المدينة لا يسود الظّلام الدّامس، ولكن يمكننا أن نجلس ساعات لننظر إلى الأضواء وهي ترسم طرقًا في اللّيل، ونحلم بالكواكب والفضائيين.

في طفولتي، عندما كان يوقظني كابوس ما،

كنت أتسلّل إلى الحمّام وأفتح النّافذة. على بُعد خمسين مترا أسفل النّافذة توجد نتوءات حجرية. تمرّنت على النّزول عليها، وكنت أستلقي على العشب خلف المنزل لأتأمّل السّماء. لقد أعادت تلك القبّة الكرويّة الزّاخرة بالنّجوم تشكيل حياتي. ما أهمّية ألّا أتعرّف إلى أيّ من أقراني، وألّا ألتحق بأيّة مدرسة قطّ، وألّا أرى العالم لأنّه خطير للغاية؟ ما قيمة وجود الكون منذ أكثر من ثلاثة عشر مليار عام؟ ما ضرورة ما يشبه العقدة في حلقي التي تداهمني فجأة ولا تفارقني؟ ما معنى الخوف من الكوارث والرّعب من الموت الّذي استحال في بعض الأحيان إلى رغبة فيه؟ ما وزن كلّ هذا عندما تكون الكواكب الأصغر في كوننا تحوي مئات الملايين من النجوم؟

رأيت الصّور المصنوعة بالسّوابر الفضائيّة في كتاب كنت أدرسه مع أبي. كان زحل كوكبا كاملا بداخله حلقات منفصلة من أقمار صغيرة. ونبتون كلّه سماء، وأورانوس قلبه ثلجيّ، والمرّيخ صحراء حمراء. وفينوس حلية ذهبيّة، وعطارد لؤلؤة مبرقشة بالأزرق. وكواكب ملوّنة وغامضة تدور حول نفسها وحول الشمس، معلّقة في السّديم.

- آه، يا لها من مخلوقات خلّابة صنعها الخالق.

أقول لنفسي وأنا أردّد عبارة من نسخة عطيل إخراج بازوليني التي جعلتنا أمّنا نشاهدها.

كان عليّ أن أكتفي بما لديّ، إلّا أنّ كلّ ما

تمنّيته في تلك اللّيالي أن أسافر إلى الفضاء حيث اللّانهاية، وأدور حول الأرض لأتأمّلها من بعيد. مثل الصورة المشهورة للنّقطة الزّرقاء الباهتة الملتقطة من السابر Voyager 1، والّذي لم يكن سوى نقطة صغيرة. عندئذ ستتغير أبعاد كل شيء: ستصبح المنازل علبً كبريت، والشوارع آثار حلزونات، والعمارات عيدان أسبراجس، ومشاكلي الكبيرة مجرّد دمى.

كان علم الفلك بالنّسبة إلى أبي بمثابة كُتيّب إرشادي للمستقبل، وبالنّسبة إلي كتاب شعر. لا يضيع من ظلّ قابضا على رغبة الاكتشاف.

حتى اليوم، عندما أشعر بالحزن، أفكّر في الكون وفي أسراره. إنّ كوكبنا معجزة، ولكن يبدو أن لا أحد يدرك ذلك. فنحن شيء يصعب إدراكه، تقريباً شبه مستحيل، إلّا أنّنا لا ننظر إلى أنفسنا بعين الاعتبار.

هل يا ترى ما يبقي جاري مستيقظًا طوال اللّيل أفكار مشابهة؟ يسير فوق رأسي منذ ساعة تقريبا: واحد اثنين ثلاث، واحد اثنين ثلاث، واحد اثنين ثلاث أربع، واحد اثنين ثلاث أربع. أحاول أن أعيد بناء تحركاته. في المطبخ يفتح ويغلق المبرّد وأبواب الخزانات، يشعل ويطفئ نور الحمّام، يفتح ويغلق الصنابير، يسير بشيء ثقيل في ذلك الذي أعتقده الصالون.

لا فائدة من محاولة النّوم الآن. أنهض وأذهب

مُتدثّرة بالغطاء إلى حجرة الورشة، أسير على مهلٍ حتّى لا أوقظ أوجينيو.

أُخرج حاوية الخطابات الأنيقة الّتي أهدتها إليَّ أمّي. قالت لي وهي تُسلّمني إيّاها في صباح عيد ميلادي العاشر: عندما تشعرين بالوحدة، اكتبي خطابًا وأرسليه. فالإنسان لا يكون وحيدًا طالما لديه ما يقوله. كانت إحدى أجمل الهدايا النّادرة الّتي تلقّيتها، فأبي لم يكن يؤمن بالهدايا، لذلك لم نكن نتبادلها في منزلنا تقريبا. تتميّز بأنّها سميكة، ولونها أبيض عاجيّ، ومزخرفة برسومات على هيئة زرافات ملوّنة بألوان مائيّة عند الحافّة السفليّة، وأوراق شجر خلف الأظرف. داخل الصّندوق توجد أوراق وبطاقات بمقاسات مختلفة.

آخذ بطاقة صغيرة، وألتقط القلم الجافّ من كوب الأقلام وأكتب، ثمّ، وأنا ما زلت مُتدثّرة بالغطاء، حافية القدمين، أفتح الباب وأصعد إلى الطابق العلوي.

لا أُشعل نور السّلالم. أُفضّل البقاء في الظّلام، حتّى لا يراني أحدهم ويعتقد أنّني مِن سكّان الهيمالايا، أو سحابة بحذاء جلدي.

من أسفل باب شقّة الشابّ، يتسلّل الضّوء. أنحني مُحاولةً التّشبّث بالغطاء ورفعه حتّى لا يلامس الأرض، وأمرّر البطاقة إلى الداخل:

النّوم هو غضّ الطّرف عن العالم

تتوقف الخطوات. وأشعر بحفيف البطاقة على الأرض. وبينما أنتظر، تتسارع نبضات قلبي خشية أن يفتح الباب. لكنّه يكمل السير كالمُعتاد، ولكن بإيقاع أسرع قليلًا متجاهلًا نصيحتي الضّمنية.

(17)

كثيرًا ما رأيت أمّي ممدّدة على الأريكة تستمع إلى الموسيقى، تاركةً نظرتها تتجوّل في الحجرة شاردةً وبلا هدف. يحدث لي أحيانًا أن أفاجئها وهي ترقص في الظلّ وذراعاها مرفوعتان، وأصابعها الرفيعة تسبح في الهواء، تترك نفسها حتى تهدهدها الأنغام الحلوى-المرّة، فتشرد في بعد آخر. يمكنني أيضًا أن أعثر عليها منغمسة في قراءة كتاب، مأخوذة تمامًا إلى حدّ أنّها لا تشعر بي أثناء دخولي، أو وهي ترسم أو تدرس شيئًا جديدًا أحضره أبي إلى المنزل. على العتبة، تلتقطها عيناي، فالنظر إليها بمثابة التّشبث بخيط البالون حتى لا يطير مبتعدا. عندما تدرك أخيرًا وجودي، تشير إليّ لأقترب منها.

تهمس: الفنّ هو طريقنا للسّفر دون الحاجة إلى الذهاب إلى أيّ مكان. إنّه قوّتنا الّتي لا يمكن لأحد هزيمتها.

بتلك الرّوح كانت تعلّمني أنا وأندريا. الثّقافة والجمال كانا السّلاحين الأكثر قوّةً في مواجهة شرور العالم، كانا وسيلتنا للنّجاة.

تمنّيت أمنيةً واحدة فقط: أنْ ينقذ كلانا الآخر.

فتحت أديلايده باب شقّتها على مصراعيه وهي ترتدي ثوبًا مزركشًا لونه أحمر ناري. بطلب منها، وعدتها بأن أخبرها بكلّ جديد يخصّ المتجر أوّلا

بأوّل، وها أنا ذا، في الثّامنة والنّصف من صباح يوم الاثنين أمام مدخل بيتها.

توقّفت قليلًا أمام الممسحة المُصمّمة على شكل قلب، متردّدة في أن أطرق الباب. فربما تكون قد أعادت التّفكير في الأمر: لماذا تستثمر مجهودا كبيرًا في مشروع كهذا، ومع شخص مثلي؟ سأشعر بالخيبة حقًا إذا سمعتها تقول إنّها لا تمتلك وقتًا لتلك الخيالات، وربّما لم تعد تروق لها فكرة بيت الدّمية، وربّما احتفظت بالقطع لتصنع شيئا آخر. لن تواتيني الشّجاعة لأخبرها أنّني بدأت العمل بالفعل.

لكن فجأة، تناهى إلى مسامعي من خلف الباب صوت ضحكة أريا ووقع أقدام أمها تجري خلفها. رغبتي في رؤيتهما تغلبت على مخاوفي. كيف حالهما هذا الصباح؟ ذلك الجوّ العائلي الّذي تخلقانه، هل لا يزال موجودًا؟ يسعدني معايشته مرّة أخرى. بدأت مفاصل العمل بالفعل وفتح الباب على الفور. كانتا ترتديان ملابس حفل، وشعرهما منكوش، ووجنتاهما مخضبتان، ووجههما يضحك.

تبرّر أديلايده وهي تفرد تنورتها التل بيديها: إنّه صباح الإثنين ونحتاج إلى بعض الحيوية. ثم إنّني هذا الصباح لا أعمل...

- يوجد جديد.

أبدأ على الفور وأحكي لها عن محادثتي الهاتفية مساء أمس مع «صوف على حرير».

تتحمّس: ستضعين نفسك داخل المتجر لتُصلحي الأشياء، وهكذا ستكون عيناك أيضًا على الزّيارات. هل ترين؟ أنتِ رائعة.

تقول إنّها تريد أن تصحبني إلى المتجر، ولكن بدلًا من أن تتبعني إلى الخارج، تدعوني إلى الدخول. أحاول أن أذكّرها بأنّنا لا نعلم المدة التي ستقضيها موظفة شركة العقارات في الداخل، إلّا أنّني لا أنجح في زحزحتها ولا ميليمتر واحد.

- إذا كانت بحاجة إلينا ستنتظر، السّرّ هو أن ينتظرنا الأشخاص في الحياة.

تُصرّ وهي تقودني إلى غرفتها.

ثمّ تأمرني وهي تمدّ لي يدها بثوب من الستان لونه ذهبي قديم: جربيه.

أهزّ رأسي: شكرًا جزيلًا، ولكن فعلًا...

تُمسك بالثّوب وتضعه أمامي مُباشرةً وكأنّه سلاح: لا تُرهقيني أرجوكِ. جربيه فحسب. توقّفي عن التفكير، وتخيلي. اتركي نفسك للتيّار.

تفتح باب الحمّام وتُعلّق الشمّاعة في إحدى حلقات ستار الدوش. يتمايل الثّوب أمام النّسيج المُضادّ للمياه، ويتلألأ كأنّه من الذّهب فعلًا. من الواضح أنّ أديلايده قد تشعر بالإهانة إذا تراجعت، إذن لا بدّ من أن أنفذ. بمجرّد أن

أمكث بمفردي في الحمام، أتأمّل الثوب وأشعر بازدياد الفزع داخلي. لا أتذكّر المرّة الأخيرة التي ارتديت فيها ثوبًا بهذه الأناقة، ولكنّه بالتأكيد كان قبل خمسة عشر عامًا على الأقلّ.

في البداية، حرصت أمّي على ذلك. تفتح الخزانة وتطلعني على أكثر أثوابها أناقة. فأطلب منها أن تجربها جميعا، من أجل أن أمتّع بصري برؤيتها. وأنا أيضًا اعتدت أن أفعل مثلها لأتسلّى.

كان تَطَلُّع أمّي إلى الجمال هو أيضًا سببًا في آلامها. فلم يكن أبي ولا أخي لديهما الإحساس بالجمال، لهذا كانا يجرحانها كثيرًا. فتحزن وتُمسك لسانها، وتظلّ تقرض أظافرها حتّى تجعلها تنزف. تكتم حزنها حتّى تعجز عن تحمّله فتنفجر. تُخرجه في صورة أنين مكتوم، مثل موجة غير متوقّعة. تهتاج في أنحاء المنزل وتدمّر كلّ ما يقع في يديها. ألم تعلّمنا هي، على سبيل المثال، ألّا نضع مرفقينا على المائدة؟ لماذا لا يخطر أبدًا على بالنا الاعتناء بالمائدة قليلًا؟ هل يتطلّب الأمر أكثر من قطف بعض الورود من الحديقة ووضعها في مزهريّة؟ لماذا يضع زوجها، والّذي يعرف مدى اهتمامها بهذه التفاصيل، الحلة مباشرة على المفرش؟ لماذا نبعثر جواربنا في كلّ مكان؟ لماذا نرتدي دائمًا أوفرول وبدل العمل؟ ولماذا لا نستمتع أبدا بأيّ يوم من أيام الآحاد؟ هل هذا هو العالم الّذي ضحّت من أجله؟ تلقي علينا الأسئلة، فتنهمك

جميعًا في العمل على تلبية رغباتها. يعود كلّ شيء جميل، أو على الأقل جميل بما يكفي لتحمله.

بمرور الوقت، خفّت تلك الهجمات. وتوقّفت هي أيضا عن التصديق في ذلك، في التجميل وفي منح الأشياء قيمتها، مع فرضية أن كلّ شيء مآله إلى زوال.

بدأت تقضي أيامًا كاملة ممُدّدة في الفراش بسبب الصداع. ذلك الألم في الرأس، أعتقد، كان يضرب بجذوره في الحياة الّتي تركتها خلفها. حيث تتشابك الجذور مع الذكريات ثم تقبض على اختياراتها، وخاصة الناقصة منها. بمرور الوقت، أصبح نزع تلك الجذور أمرًا شديد الصعوبة.

ما زلت أتأمّل الثوب بلونه الذهبي القديم، ويبدو لي أنه بدوره يتأمّلني. إنّها مسألة وقت، أقول لنفسي لأقنعها، يكفي التركيز على التصرفات الملموسة. لا بدّ من أن أخلع الأوفرول والكنزة، وأرتديه بأن أمرّره من رأسي وأحرص على ألا أمزّقه، وأتركه لينساب بطول خصري ثم أخرج إلى أديلايده. بينما أراجع ذهنيًا تلك العمليات، كنت قد نزعت ملابسي.

الثوب واسع جدًا عليّ وخاصّة عند الصّدر والخصر، وطويل جدًا أيضا. أخرج بشعور مختلف تمامًا عمّا تخيّلته.

تضحك أديلايده ضحكة صاخبة، أعتقد أنها

تضحك على تعبير وجهي أكثر من ضحكها على الثوب: حسنا يلزمه بعض العمل.

لديها سلسلة من الدبابيس موضوعة بين شفتيها. بحركات سريعة وخبيرة تثبت الدبابيس على جانبي الثوب وفتحة الصدر. أحاول بإيماءة بسيطة من يدي أن أشرح لها عدم جدوى ذلك، أرغب في أن أقول لها إنني لا أعرف حتى متى يمكنني ارتداء ثوب كهذا. لن أستطيع بالتأكيد الذهاب إلى إصلاح الأشياء وأنا أرتديه. ولكنها ترفع السبابة وتشير إلي بالتزام الصمت: سأنتهي في ثانية.

أسأل: لماذا تحبين الملابس التنكرية إلى هذا الحد؟

ثم أشعر بالندم على الفور. فقد خرج السؤال بنبرة خاطئة، عدوانية، ربما تشعر بأنني أهينها.

- لم أكن أقصد... لم أرغب القول...

تجيب هي بهدوء: بالتنكر أعبر عن نفسي.

يسود صمت استثنائي، لم أعتده من قبل.

أتمسك بتوضيح موقفي: مجرد سؤال فضولي. فأنا شغوفة بأعمالك الإبداعية.

- في الماضي، جرحني شخص ما. أرادني ملكا له، أشعرني بأنني صورة بلا إطار. اعتاد أن يصمم إطاراتي. في البداية افتتنت بذلك، وشعرت بالأمان. أخيرا شعرت بوجودي. ولكن مع

الوقت بدأت تلك الإطارات تخنقني، لأنها أجبرتني على أن أكون ما يقرره هو. أردتُ أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، أن أعيد رسمها بألواني. كنت مجبرة على البقاء داخل الخطوط المرسومة لي.

تقول كلّ هذا بنبرة هادئة، كأنّها تصف لوحةً أمام عينيها: أريا هي ثمرة علاقتنا تلك. لا أعتقد أنّني أسميتها أريا(¹) من فراغ. فقد كانت الهواء الّذي أفتقده، المساحة الّتي أحتاجها لأحيا كاملة. عندما تنتهي قصّة ما، تعتقدين أنّك فقدت شخصًا ما، ولكن غالبًا ما تربحين نفسك. منذ بضعة أيام وقعت في يدي الصورة الوحيدة الباقية لديّ من تلك الفترة، لا أعتقد أنّك ستتعرفين إليّ فيها. كانت بشرتي رماديّة، عيناي مطفأتان ومخيفتان، شعري بلا شكل، أنظر إلى العدسة كقطّ أمام مصابيح سيّارة. كلّ شيء اعتاد أن يخيفني، وكنت أشعر أنّني خائرة القوى، أفقد حتّى ما يلزمني لأهرب.

أحاول أن أتخيّلها، ولكن لم يكن الأمر سهلًا. الآن هي مضيئة وملوّنة كما أرغب أنا في أن أكون، تقريبًا كإحدى النّجمات أو إلهة متنكّرة.

- ثمّ وُلدت أريا، ماذا يجب عليّ فعله من أجلها؟ هكذا سألت نفسي يومًا ما. فهناك شخص ما حدّد إطاراتي، لكنّني لن أسمح له نهائيًا بتحديد إطارات أريا. وهكذا أعددت الحقائب. اخترت

لونها، واخترت أن أشعر بالطَّيَران، اخترت أن أكون كلّ الشّخصيّات الّتي أرغب فيها، وأن أغيّر إطاري كلّ يوم، إذا رغبت في ذلك.

- لا أريد أن أسمح لأيّ شخص بعد الآن أن يطوّقني، أن يُحدّد مساري، أن يمتلكني. الآن أنا وأريا بمفردنا. ولكنّنا حرتان معًا.

أخشى أن أقول أيّ شيء، بل حتّى أن أتنفّس. فجأة تضرب إحدى درفتي النافذتين المفتوحتين. نفزع، ولكن نتنفّس بارتياح: لم تكن سوى هبة رياح.

أقول أخيرًا: يؤسفني أنّني اضطررتك إلى النّبش في الماضي. أعرف أنّه لا يموت، لا يهم أنه انتهى، ولا منذ متى، فهو يثقل كاهلك وكأنّه ثوب ضيق يعيقك عن الحركة، و...

أتوقّف. فهمت أديلايده. وضعت يدها على ذراعي ونظرت إليّ نظرة مختلفة عن تلك المعتادة. هل عثرتِ إذن على صديقة؟

(18)

تطلب مني أديلايده مرافقتها لتوصيل أريا إلى الحضانة، قبل أن نذهب إلى العالم الجديد. أرغب في الاعتذار لاعتراضات كثيرة. إذا رحلت المرأة العاملة في الشركة؟ إذا غيرت رأيها أثناء ذلك؟ إذا دخل أحدهم واشترى المتجر هذا الصباح بالتحديد بمجرد أن تفتح؟

ولكنني أنظر إليهما. تمسك الطفلة أمها بيد وباليد الأخرى تمسك حمالة حقيبة الظهر على شكل وحيد القرن. تنظران إليّ نظرة رجاء. عدم اصطحابي لهما سيعني تدمير شيء حي ورائع في عفويتهما. وفجأة أدرك أنهما يتعاملان معي على هذا النهج، كصديقة. ولكن كيف يمكن هذا؟ ماذا فعلت لأستحقه؟

الحضانة قريبة من الميدان ولها حديقة صغيرة محاطة بسياج. من الخارج يسمع صياح الأطفال والمعلمات. أقف ثابتة أمام البوابة وأنظر إلى أديلايده وأريا يعبران الشارع السور الشجري. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أن أمي لم تصحبني قط إلى أي مكان، والشيء الوحيد الذي تشبثت به كطفلة كان ذلك الخيط الذي يربطها كبالون، حتى لا تطير بعيداً. هذا لا يهم، أحاول أن أقول لنفسي. المهم هو ما يحدث الآن. هنا والآن. التفتت أريا ولوحت لي بيدها. أنا الآن

جزء من كيانٍ جميل، بِغضّ النّظر عمّا يكون.

بعد قليل ستعود صديقتي الجديدة وستنتظر منّي الجرعة المناسبة من الطّاقة اللّازمة لمغامرتنا. أكرّر لنفسي إحدى خطابات دوروثي، قرأته مرّات عديدة إلى حد أنّني حفظته تماما.

22 مايو 1971

عزيزتي مارجريت،

تهنّئي! بينما أقترب من الخميس، تحتفلين أنتِ لتوك بأعوامك الثلاثين. يا له من عمرٍ جليل... كم وددت رؤيتك اليوم. هل وضعتِ زهورا بين خصلات شعرك؟ هل ترتدين ثوبا ملونا؟ هل تحتفلين؟ الاحتفال أمر ضروري، فالماضي لن يعود. ولا بدّ لنا من الاحتفال بالحاضر، والاستمتاع بالإنجازات.

بمناسبة الإنجازات: الآن السّاعة السّادسة صباحًا تقريبا، وقد فتحت صيدلية متجري الجديد منذ ساعة. لا أشعر بالتّعب، على العكس! لا أستطيع أن أشرح لك فرحة أن يكون لديّ أخيرًا مكان يخصني وحدي: «العالم الجديد».

أطلقت عليه هذا الاسم لأنه هنا في الدّاخل يُمكنك أن تجوبي العالم دون أن تطأ قدمك خارجه، ولأنه هنا أيضًا يوجد كلّ ما أحتاجه. الحمّام، ركن للطّبخ، ومرتبة في الخلف. أهدتني الفتيات مدفأة. فنحن في ضاحية من ضواحي

ميلانو، خلفنا الحقول وبجوارنا النافيليو بمراكبه الكبيرة. الحي شعبي، غالبية سكّانه من العمال. يوجد جو مثير للاهتمام. خرجت لأقتطع زاوية من العالم لأبني فيها خيمتنا. هذا ما أسمّيه سعادة.

أبيع أشياء تعجبني. من المحزن أن نحتفظ لأنفسنا بما نحبه، بيعه شيء جميل: تحرسينه بعض الوقت ثم تتركينه ليذهب، وتسعدين به شخصاً آخر، وتلقين بجزء منك في العالم.

مارجريت حبيبتي، من المهمّ أن نتخلّى عمّا نتمسّك به. إنّ ذلك ما أشعر به في كلّ مرّة أجد نفسي هنا بالدّاخل، وفي كلّ مرّة أفكّر فيك. التفكير في أنك بخير وأنك ستأتين يمنحني القوة. آه لو استطعت رؤية هذا المكان!

ثلاث أو أربع مرّات في العام أقود شاحنة حتى لندن، وأحملها بأشياء لأحضرها إلى هنا.

كم يعجبني شارع بورتوبيللو، والجوّ الإنجليزي! يسيرون جميعهم برأس مرفوعة، يرتدون كما يحلو لهم، ويحبون الصفقات. لا أعرف إذا كانت كل قصص البضائع التي يقصّونها على حقيقيّة، ولكن هذا لا يهمني. ما يهم هو أنّ لكل قطعة قصة. حتى الكذبات التي نقصها تحكي من نكون.

لديّ العديد من الزّبائن الثّابتين. توجد بائعة الخبز التي تجمع طفايات السّجائر (أحضرت لها في ذلك اليوم صينية ترجع إلى القرن التّاسع عشر).

وسيّدة عرجاء تبحث عن قطع قديمة. وتُوجد أيضًا داليا، وهي أصغر مني سنا وتشع حيوية. لقد غير حفل الربيع الذي نظمته قبل بضعة أيام حياتها، ولكن هذه قصة أخرى... سأحكيها لكِ عندما تأتين.

أنا وفتياتي نحتاج إليكِ. مساء كلّ يوم جمعة، نجتمع من أجل مجلتنا. أخيرًا أصبح الطّلاق قانونيا في إيطاليا، ولكن الزّنا ما زال موجودا، وحتى - لن تصدّقي- وهي فاحشة يطلق عليها «جريمة شرف». هل يبدو لكِ هذا ممكنًا عام 1971م؟ لا بدّ من تغيير الأمور. وإذا أردنا تغييرها، فلا بدّ من أن نغيرها بأنفسنا. من الجميل ألا يشعر المرء بوحدته، وأنه جزء من «عائلة». تستورد إحدى الصديقات وشاحات من بيرو، وقد أفسحت لها ركنًا في المتجر. صديقة أخرى قررت أن تقرأ التاروت، هكذا تأتي إلى هنا ومعها أوراقها في أيام متراوحة. لم أخبرها أنها تجذب الزبائن.

بالتأكيد، يُوجد أشخاص حولنا لا يُعجبونني. فأولئك الأشخاص يعارضون اجتماعاتنا، وهم أيضا ضدّي لأنني أعيش بمفردي، وأنني «مطلّقة»، ولغم طليق. بل ويصل الأمر بالبعض أن يبصقوا على الأرض عندما أمرّ. ولكنّني أرفع رأسي، مثل العابرين في شارع بورتوبيللو. لا أخشى أحدا. على العكس، كل يوم تزداد

قناعاتي أنّ عليهم هُم أن يخشوني.

مارجريت يا كنزي... كم من اللّيالي قضيتها وأنا أسأل نفسي كيف سيكون الأمر بحضورك.

بمناسبة عيد ميلادك، أريد أن أهديك بعضًا ممّا أدركته خلال هذه الأعوام: استمتعي بما أنتِ عليه، لأنّه لا يوجد أحد مثلك، لا تهابي كسر القواعد، فالزّمن يُحطّمها جميعًا، إذا لم تكن أمامك طُرق، افتحي لنفسك واحدًا.

فالسّعادة ليست خطيئة.

بكلّ حبّ،

دوروثي.

(19)

أثناء إقامتي في الحصن، لم تفارقني «النّهاية» قطّ، عندما أفتح عيني عند السّادسة صباحًا، أراها معي، عندما أستحمّ بمياه الدّوش المجمّدة، أشعر بها تحدّق بي، حتّى أثناء التّدريبات كانت برفقتي، وعند تناول الطعام، أجدها تتغدّى وتتعشى في المكان الخالي على رأس المائدة، تتبعني إلى أي مكان. في كلّ مرّة أشرد، أو أندمج في شيء ما، عندما أعود إلى لحظتي الحاضرة، أفاجأ بها في انتظاري.

أطمئن نفسي أنّ كلّ حواسي متيقّظة. أفتح أذنيّ، لأنه ربما تعلن عن نفسها عبر صوت ما، همسة أو انفجار أو صفّارة صوت محرك عسكريّ. أضواءٌ غريبةٌ من السّماء يمكنها أن تكشف عن كائنات فضائيّة أو نيازك جاهزة لتصيبنا مثل تلك الّتي تسبّبت في القضاء على الديناصورات.

في كلّ مرّة تحدث كارثة في العالم الخارجي، أشعر باقترابي من النّهاية. طالما تيقّنت من أنّ حالة الطوارئ القادمة تخصنا. اعتدت على شحنات الأدرينالين الّتي تمنحها لي تلك الأفكار. كنت أخشاها، ولكنني اختبرت في الوقت نفسه شعورًا مثيرًا بالتوقّع، وكأنني حتّى آنذاك لم أشهد سوى مقدمة حياتي، والفيلم الحقيقيّ يوشك دائمًا على البدء، وأنّ هذا يمكن أن يحدث في أيّة لحظة.

بدا لي العالم الجديد خاليًا، فألوم نفسي، لا بدّ من أننا وصلنا متأخرين. من الصواب التوقّع، ومن الصّواب الاستعداد، كنت على حق في قلقي على الافتراضات، بدلًا من الانجراف مع التيار.

أمّا أديلايده، فعلى موجة مُختلفة تمامًا، تربت مأخوذة على تماثيل كريستال بوهيمية، وتبدأ في قراءة البطاقة. وأثناء ذلك نسمع أصواتًا على الرصيف.

حرير على صوف تُحاوِر صاحب متجر التبغ المجاور.

شخص نحيف، غير متناسق، شعره طويل مضموم في ذيل حصان، نظرات عنيفة تشعّ من عينيه السوداوين. لا يمكث ثابتًا أبدًا، يتحدث وهو يحرك يديه، ولديه رذيلة رفع صوته وهو يطلق عبارات قاسية ضدّ العابرين أو الجيران، أو التعليق على السّياسة أو الرّياضة. أعرفه بالنّظر، ولكن لم نتبادل حديثًا قطّ ولا حتّى تحيّة. يراقب الحي وكأنه يملكه، فقد وُلد فيه، لكنّني أحيانًا أرغب في أن أقول له إنّه ليس الوحيد، وأود أن أخبره أيضًا أنّ تجمع الأشخاص الأكثر إزعاجًا وتحرشًا في المنطقة في متجره أمر لا يُخيفني. لقد هربت أثناء تجوالنا بين الغابات المحيطة بالحصن من ذئاب أكثر رعبًا، ذئاب من لحم وعظم.

أسمعه يصرخ وهو يشير إلى المتجر بإيماءة مُهدّدة:

إذا ألقيت بكلّ تلك الأشياء الرّديئة، ستفكّرين بشكل أفضل! يجب معاينة مساحته، كيف يمكنني ذلك والمتجر مكدّس بالنّفايات؟

تمسك حرير على صوف بالهاتف، تقرأ الإشارات، ثم تضعه مرّة أخرى في حقيبتها.

تجيب: أفهم، وفي الوقت نفسه، إذا أردت يمكنك أن تقدم لي عرضك.

- عرضي سأقدّمه فيما بعد لشريكك.

تصدم هي، وتتيبّس. تخرج أديلايده من المتجر متضايقة وتقاطعهما: إذا أردت أثناء ذلك تدوين عرضنا. فنحن مستعدّات لإنهاء كلّ شيء في فترة وجيزة.

ننظر إليها جميعًا مذهولين.

ثمّ تجيبها حرير على صوف بنبرة مهنية: عرض؟ لنذهب من هنا.

ثمّ تسبقها وتدخل المتجر.

- ما هذا الهراء؟

يقفز هو مثل قطّ قطع ذيله. يشمّر كمّيه حتى مرفقيه وكأنّه يستعدّ لمشاجرة. ثم يحدق بنا باحتقار. ويصيح مرّة أخرى: هراء!

بمجرّد أنْ دخلنا، قالت حرير على صوف: إنّني أسمعكما؟

ولكن بمجرّد أنْ تعرّفت إلينا انكمش تعبير

الارتياح: هل تُريدان بالفعل تقديم عرض؟

تتنهّد أديلايده: يا ربت!

- نحن لا نلعب هنا.

تزفر الأخرى، بنبرة أمّ.

- رأينا كيف كان يتعامل معك هذا الشّخص... وفكّرنا في إنقاذك.

- لا أحتاج إلى إنقاذ، شكرًا جزيلًا. أستطيع التصرّف بمفردي. هذا عملي.

أتدخّل أنا: بالتّأكيد، بالتّأكيد. نعتذر لك.

- ولكن أيّ شيطان هذا الّذي نزع لافتة للبيع؟

تصيح هي بعد ذلك، فلم تدرك ما حدث سوى الآن.

- ربّما التّباع؟

تسأل أديلايده، وهي تُشير بذقنها إلى الرّجل الّذي ما يزال في الخارج، وينظر إلينا مهدِدًا.

تغمس حرير على صوف يديْها في ثوبها الأزرق السّماوي. أرى أنها تعبث بهاتفها المحمول في أحد جيوبها، وربّما بالمفاتيح في الجيب الآخر. هي غاضبة بشدة بسبب اللافتة، وتمثيليتنا، بسبب كل شيء.

- ليس لديّ في الحقيقة ما يُمكن قوله على ذلك الحي سوى أنّني أرغب في الانتهاء من هذه الصّفقة في أقرب فرصة. من سيقدِم عرضًا

أفضل سيفوز بالمتجر، هذا كلّ شيء. لا يهمّني كيف يتعامل معي.

تهمس أديلايده: يؤسفني أنّه يتعامل معك هكذا.

- لديّ بالفعل مُشكلات لا بُدّ من مناقشتها مع شريكي. هذه الصفقة مهمّة، وإذا سمحتما لي أديرها أنا. أم هل تستطيعان أنتما أيضًا تأدية عملي أفضل منّي؟

نهزّ رأسَينا في خجل، مثل ابنتين عاصيتَين.

تسألني لجأة، وكأنّ شيئًا لم يحدث: إذن هل يُمكنني الاعتماد عليكِ في عملية الجرد والتجديد؟

- بالتأكيد يُمكنك هذا.

- حسنًا، هكذا يُمكنني أن أضيف أرباحًا معقولةً إلى عمليّة البيع.

تُمرّر السبابة على رفّ إحدى الخزانات القديمة، تمسح به طبقة من التراب الأسود. تصرّ قطعة الأثاث، وتنظر هي إليّ بقلق.

أقول لها لأهدّئها: تُحيّيك فقط.

- هذا الشيء يتهاوى.

- الأمر يحتاج إلى بعض الصبر.

- كم بالتحديد؟

أنظر حولي: من الصعب توقّع ذلك. ولكنّي أعدك أنّي سأعمل بسرعة.

- حسنًا، يُمكنني على كلّ حال استقبال الزوّار.

أسارع بالرّدّ: أجل، بطبيعة الحال.
هذا بالتّحديد ما أريده.
- حسنًا، دعينا لا نُضيّع المزيد من الوقت، هل نتقابل صباح الغد؟
تختتم حديثها وهي تمدّ لي يدها بأظافرها المُعتَنى بها، لنوثّق اتفاقنا.
أشدّ عليها، ربّما أقوى ممّا ينبغي. لا أدري كيف سيسير الأمر، ولكن لا يمكن التّراجع الآن. ربّما انتهت مقدّمات حياتي، وبدأ الفيلم أخيرًا.
أتفحص سريعًا المتجر للمرّة الأخيرة لأضع خطّة نهائيّة لعملي، ثمّ أتبع أديلايده خارج المتجر، وأجد أمامي بريشيللا.

تصيح هي بينما تنظر إلى داخل المتجر: ها هو «العالم الجديد» الشّهير! مكان جميل، حتّى وإن كان يحتاج إلى عمليّة نظافة كما ينبغي... اسمعي، عندي خبر جيد لك. كنت سأتصل بك.
ثمّ تفتّش في حقيبتها وتُخرج ورقةً صغيرةً: مارجريت سميث، 14 بارك كرسنت، W1B 1L، لندن، المملكة المتّحدة.

أرغب في أن أعانقها: يا إلهي! أشكرك.
تُضيف بنبرة جادّة: رفضت السّيّدة الميراث. المعلومات سرّية للغاية، ولكنّني أعرف أنّ هذا يهمّك. إذا أردت لديّ أيضًا رقم هاتفها.

ترتعش أصابعي وأنا أمسك بالورقة. وتصيح أديلايده من خلفي:

- بارك كريسنت، إنّه أحد أكثر الأماكن رُقيًا في لندن.

أسألها وأنا أشعر بارتياح أنّها ما زالت موجودة: كيف عرفت؟

- عشت في لندن ثلاثة أعوام، عملت جليسة أطفال لعائلة فاحشة الثّراء تسكن هناك، وفي لندن قابلت ذلك الّذي أصبح أكبر كارثة في حياتي. ولكن انتهى الأمر الآن.

ثمّ تشيح بيَدها.

- ذهبت إلى هناك ولن أعود إلى هناك أبدًا.

أستنتج: إذن تُجيدين الإنجليزيّة. هل نُهاتف مارجريت معًا؟

- بكلّ سرور. لو يُناسبك يُمكننا أن نفعل ذلك غدًا صباحًا، الآن يجب أن أذهب إلى العمل. إذا كانت صديقتك مارجريت تعيش في بارك كريسنت فهي بالتأكيد غنيّة جدًا. لنجد طريقة لإقناعها أن تصلح حال هذا المكان.

أتنهّد: أتمنّى ذلك.

إذا اعتادت دوروثي أن تذهب إلى لندن لتبتاع البضائع من بورتوبيللو، لماذا لم تقابلها؟ لِمَ رفضت مارجريت ميراث والدتها؟ هل تقطّعت بهما السبل؟ هل وصلتها أيّ من تلك الخطابات؟ فجأة

بدأت أشعر بالضّيق. سيّدة إنجليزية ثريّة لم ترغب في معرفة شيء عن ذلك المتجر الصغير ولا عن حيّنا المتواضع، ولا عن أمّها وأحلامها، ما الدّافع الذي سيجعلها الآن تقتنع بما سنقوله لها؟

تُصرّ أديلايده وهي تضغط على ذراعي، وكأنّها قرأت أفكاري: سترين أنّنا سنستطيع هذا.

تُضيف بريشيللا: عندما تسير الأشياء بهذه السّرعة، هذا يعني أنّنا في منحدر.

ابتسمت أديلايده: أنا أطلق عليه القدر.

- وممنوع الضّغط على الفرامل.

(20)

أدخل إلى المنزل وأنا أصفّر، أفكّر في القدر وفي المنحدر، الّذي أعرفه جيّداً بكلّ تأكيد، فقد كنّا نبني حول البانيو الحجري الكبير الّذي تجتمع فيه ماء المطر، قنوات مائلة لنسقي البستان.

أنا فريسة حماسٍ ما، ولكنّي أشعر بالذّنب. أخشى أن أصطدم بهايبريس الإغريق، الّذي طالما تحدّث عنه أبي: خطيئة من يرضى عن نفسه فيجلب لنفسه عقاب القدر أو الآلهة. لست معتادة على ما أشعر به الآن، ربّما لا أشعر بالسّعادة، ولكنّني أشعر بالأمل. وهذا ليس هيّناً.

وبينما أنا شاردة في تلك الأفكار، أدعس ورقة على أرضيّة المدخل. ألتقطها وأحاول تنظيفها من آثار حذائي الثّقيل. إنّها ورقة مسطرة منزوعة من دفترٍ سلك. الخطّ (الحبر من الجيل الأسود) غير مفسّر وصغير مثل خطّ الأطباء. لا أستطيع قراءتها إلّا بعد عدّة محاولات:

(الحالمون الحقيقيّون لا ييأسون أبدًا)

إدجار آلان بو

أعيد قراءة العبارة عدّة مرّات بصوت مرتفع. من الواضح أنّها الرّد على اقتباسي من بورخيس.

بماذا يحلم جاري؟ هل هو رومانسيّ؟ فنّان؟ عبارته شعريّة، وتدلّ على أنّه، بالإضافة إلى مشاهدته فيلم «الغراب»، الّذي أخذ منه

الاقتباس المكتوب على كنزته، قد قرأ على الأقلّ إدجار آلان بو. ولكن هذا لا يعطيه الحقّ أن يقلق نومي...

أشعر بأنّ لديّ ما أقوله، وهكذا أسرع إلى حجرة الورشة وأخرج من جديد بطاقة جديدة مزدانة بالزرافات، وأمسك بالقلم الحبر وأكتب:

(الشاعر لا ينام أبدًا، لكنّه في المقابل يموت كثيرا).

آلدا ميريني

الآن وقد كتبت، ماذا أفعل؟ يبدو أنّ إجابة رائعة كهذه ستضيع سدى إذا لم تسلّم إلى المرسل إليه. حتى وإن كان المقابل فقط هو التسلية عند تخيله وهو يعصف ذهنه فقط في محاولة العثور على رد مناسب. ولكن لماذا يجب على السائر المتسلسل عمل ذلك؟ هل هو طالب يقضي الليل بلا نوم ليراجع دروسه؟ هل رآني من قبل؟

لا، هذا السؤال غير مناسب، ويغزو حقل الخيال. ممنوع على جيا الطيران في الوهم، لا بد من أن تمكث على الأرض، فلتمكثي بقدمين ثابتتين في الأرض، ولتختفي...

سأنتظر حلول الليل، وإذا استحسنت هذا سآخذ له الرسالة. ولكن لا يجب أن يراني أحد. يجب ألا يفكّروا في أنني أقيم علاقات غريبة مع شخص يزعج المجتمع، فضلًا عن أنني لم أر وجهه

فقط.

(21)

- نسيتِ أن تُقفلي الباب بالمفتاح.

تلفت أديلايده نظري بمجرّد أن أفتح الباب، بينما تقف هي على عتبته.

أتت مع ابنتها، التي تُلوّح بيدها لِتحييني بعدما غمزت لي بعينها.

- عندكِ حقّ، أشكركِ على لفت انتباهي.

لا أعترف لها بأنّني لا أقفل الباب أبدًا بالمفتاح. ماذا إذا اضطررت إلى الهروب؟ فالثواني التي سأستغرقها في الفتح قد تكون كارثيّة، أمّا بالنّسبة إلى اللّصوص، فليأخذوا أشيائي، ويمكنني العثور على غيرها. وهذا هو جمال العالم: إنّه لا يكفّ عن الدوران.

تسأل أديلايده: هل أيقظناكِ؟

- بالتّأكيد لا، فأنا مُستَيقظة منذ فترة.

نجحت بطاقتي بعض الشّيء، فجاري في الطّابق العلوي لم يسر كثيرًا هذه الليلة. وفي المقابل، قضيت أنا ساعات أُقلّب في رأسي هذا الحدث، دون أن أستطيعَ النّوم. يا له من شيء عبقري: يمكنني تأليف كتاب إرشادي عن كيفيّة التآمر على نفسك. إذا تسبّب في ضوضاء، لا أنام، وإذا لم يتسبّب في ضوضاء لا أنام أيضًا، لأنّني أفكّر لماذا لا يتسبّب في ضوضاء. وليكن اسمي إذن

مثل الإلهة الأرض الأمّ، ولكنّي امرأة بلا أرضٍ تحت قدميها.

في السّابعة، هاتفني صاحب متجر الزّهور في الزاوية الشّرقيّة من الميدان. في اللّيل، تعطّل جهاز الرّي المستمر في متجره، وذهبت على الفور إليه.

فحصت الصمامات المغناطيسية لأعرف ما إذا كانت هي المسؤولة عن ذلك، تفتح وتغلق بالتّحكّم الملموس، دون استخدام التّيار الكهربائي، وما إذا كانت كلّ الصّمامات مفتوحة والمياه تسير بطريقة صحيحة. ثمّ استخدمت جهاز الاختبار لأتأكّد من المحوّل، فوجدته يعمل بدوره. جربت إذن أن أرى إذا كان التّيار الكهربائي يصل إلى المغناطيس الكهربائي من خلال السّلك المتّصل. نظرًا إلى أنّه لم يكن يصل، فوضعت في المغناطيس صمّامًا يعمل: وبهذا عاد رشّاش المياه إلى العمل من جديد.

أنهيت عملي، وبينما ألفّ المغناطيس بين أصابعي، أشرت به قائلة: هذا هو السّبب.

بعد أن دفع لي أجري، أهداني صاحب كشك الزّهور ثماني زنابق زابلة معطوبة بعض الشّيء، وبذلك أنقذها من النّفاية.

أثناء عبوري الميدان مُنتَشيَة من السّعادة، ومُمسِكة بباقة الزّهور المُعطّرة، لاحظت فتاة تبكي

جالسة على أريكة. اقتربت منها، سألتها إذا كانت بحاجة إلى مساعدة، فأخبرتني أنّ قصة حبّها قد انتهت، وأنّ حبيبها قد رحل.

اعترضت: هل يصحّ أن يترك أحدهم الآخر في السّابعة صباحاً؟ لا بدّ من تجريم هذا الأمر! لقد كنت قد ابتعت تذكرتين في ملعب أساجو لنشاهد مباراة فريق الأوليمبيا معاً.

سحبت ثلاث زنابق من الباقة وقدّمتها إليها: واحدة إليكِ، وأنتِ معه، وواحدة إليكِ قبل أن تعرفيه، وواحدة إليكِ الآن. والأخيرة هي الأهمّ.

ابتسمت لي الفتاة بعينين مُغرورقتين بالدّموع، وقد هدأت بعض الشيء، ودون أن تنبث بكلمة، أهدتني تذكرتي المباراة. لم تواتني الشّجاعة لأخبرها بأنّني لا أهتمّ كثيراً بالرّياضة. على الرّغم من محاولاتي في ذلك، إذ يوجد ملعب كرة، وحمّام سباحة أوليمبي، وستوب ووتش، فإنّني لا أتوقّف عن الشّرود في أفكار مملّة، كأن أسأل نفسي إذا كان هذا التوقيت هو موسم ثمرة الكمأة، أو إذا أغلقت العبوة السليكون جيداً، أو ماذا كانت بالتّحديد نصائح بولنيوس لابنه في مسرحية هاملت (النصيحة الأخيرة: كُن مُخلصاً مع نفسك، لأنّ هذا سيتبعه بالتأكيد، كما يتبع الليل النّهار، أن تكون مُخلصاً مع الجميع).

كان واضحاً أن تلك الفتاة تنتهز أقرب فرصة للتخلّص من هذه التّذاكر، ومن الأفضل إذا

أفادت شخصًا آخر بها. هذا الآخر أعرف من بكون، ولهذا قبلتها بكلّ سرور.

لصاحبة متجر بياضات بولّو من 1987، ابن في العاشرة أو الحادية عشر من العمر، ويعشق كرة السلّة. ذهبت على الفور لزيارتها، كان المتجر لا يزال مغلقًا، لكنّها في داخله تقوم بأعمال الجرد، وكان ابنها أيضًا معها يحمل حقيبته المدرسيّة على ظهره، ويهز مصروفه في يده.

عندما فتحا لي، صحت وأنا ألوّح بالتّذكرتين: اليوم يوم حظّك.

صاح الصبي: لا أصدّق... للنّهائي!

أعتقد أنّه أراد معانقتي لكنّه امتنع خجلًا. لكي تردّ لي أمه الجميل، أهدتني منشفة مطرّزة عليها عبارة «الأفضل لم يأت بعد». شكرتها، ووضعتها في حقيبة الظهر، وأنا أعرف بالفعل لمن سأهديها.

الاقتصاد الدّائري للحيّ لا يخزلني أبدًا.

- هل ستسمحين لنا بالدّخول؟ تسألني الآن أديلايده واقفة أمام العتبة: حتّى نهاتف مارجريت.

أقفز وأفسح لها الطريق. تنظر خلفي باستغراب، أمّا أريا فتحدّق بي بعينين واسعتين، دون أن تفهم لماذا وقفت في الطريق ورفضت تمريرهما.

- طبعًا، تفضّلا.

تظاهرت بعدم الاهتمام، وتراجعت خطوة إلى الوراء.

كنت سأرحّب بهما في شقّتي، ولكن لم يخطر ببالي أنّ هذا سيحدث صباح اليوم. اعتقدت أنّه عليّ أن أبحث عن أديلايده في وقت متأخّر. أحاول أن أتخيّل الوضع العامّ للغرف وأتذكّر الزّنابق بارتياح. فالزّهور تصنع المعجزات أينما حلّت.

تدخل أديلايده وأريا وتتلفّتان حولهما وكأنّهما في متحف. فاللّوحات المحفورة الّتي علّقتها في المدخل تبدو لطيفة، لكنّني لم أتخيّل أنّها ستستحوذ على كلّ هذا الاهتمام.

تصيح أديلايده وهي تقف على عتبة الصالون: واوا لديك متجر هنا في الدّاخل، حقًّا.

- إنّ الأشياء...

- لها قيمة.

تكمل وتبتسم لي وتقول: المكان جميل جدًّا. تتبادر إلى ذهني أسئلة كثيرة. لكن للأسف الوقت ضيق.

- ممم.

تضيف وهي تشتمّ رائحة الزّنابق الّتي وضعتها في حاوية ملابس على سطح طاولة المطبخ.

ثمّ تركت نفسها لتتجوّل بين الخزانات الّتي أحفظ فيها الصّحف والصّناديق والبلاستيك

وورق التّغليف والبرطمانات...

- يمكن أن نستخدم هاتفي؟

أقترح وأنا أضعه بلطف بيننا. لقد أنفقت كلّ النّقود الّتي أعطتني إيّاها برشيلا لأثمنه. ترى هل ستكفي؟

تصيح هي، مُستمتعة: إنّه نوكيا 3310، حتّى جوالك قطعة أثريّة؟

وبينما تدقّ هي الرّقم على لوحة المفاتيح، أحاول الضحك. لقد ورثت هذا المحمول من صديقي الحدّاد جيبو منذ بضعة أعوام. وهو يستقبل ويُرسِل الرّسائل والمكالَمات الهاتفيّة، وبه أيضا مسجل للرّسائل. ماذا سأحتاج أكثر من ذلك؟

تأمرني أديلايده: كَرّري على مسامعي ما سأقوله لها.

أشعر بالتّوتّر يزداد: لنحكي لها عن المتجر ونحاول أن نفهم ماذا حدث ولماذا رفضته... إذا استطعت أن تترجمي ما تقوله ترجمة فوريّة، ربّما يُمكننا أن نُقرّر معاً ما يجب قوله أثناء هذه المكالمة. انتظري لأفتح مُكبّر الصوت.

- ويُوجَد أيضًا مُكَبّر صوت في هذا الشّيء؟

- بالتأكيد يُوجَد مُكبّر صوت.

- بعدها افتحي لي لعبة الثّعبان لألعبها!

تضحك أديلايده ضحكة مَكتومة على دعابتها،

قبل أن تَضغَط زرّ الانطلاق لتبدأ المكالمة، بجدّية مُفاجأة. يدق مرّة، مرّتين، ثلاثة...

- صباح الخير، من يتحدّث؟

صوت نسائيّ مُحدّد في أدبه، مُحايِد ومُتماسك. يُمكن القول صغير في السّنّ لا يُناسب مارجريت. أُشير إلى أديلايده أن تستمرّ. فتسأل إذا كانت السيّدة سميث في المنزل. للأسف لا؟ متى ستعود؟ إنّها في بحيرة كومو، ولن تعود قبل إجازة نهاية الأسبوع. في إيطاليا! هنا بالقرب منا! إنه القدر... هل يمكن أن نهاتِفها على هاتفها المحمول؟

- غير مسموح لي أن أعطي رقم هاتفها للأغراب. آسفة.

فرملة مفاجئة. لا تستسلِم أديلايده، بل تحكي لها عن المتجر وعمليّة البيع، وتشرح لها أنّه لدينا وقت وجيز. لا يتغيّر الصوت عن التأدّب البارد. لا تعرف كيف يمكنها مساعدتنا، ولكنها ليس بيدِها شيء. الشيء الوحيد هو انتظار عودة السيدة سميث.

أقترح على أديلايده أن تسأل: هل يُمكِن أن نترك لها رسالة؟ إنّ الموضوع ذو أهمّية حيوية.

تُترجم أديلايده: رُبّما يُمكِن عمل هذا. أجل، في الوقع الأمر مهم للغاية.

- بالإضافة إلى كلّ ما ذكرناه، يُمكِننا أن نقترح عليها التوقّف في ميلانو، أثناء عودتها من بحيرة

كومو، لتزور متجر دوروثي؟ هل يُمكن أن نجرؤ ونقترح عليها ميعادًا؟ وهل يمكنها أن تكون لطيفة وتُخبرها به؟

- أجل ستفعل ذلك.

نُحيّيها، ونَشكرها، ونُغلق الخطّ.

يُشرق وجه أديلايده: هايل!

- لم تسر الأمور على نَحْوٍ سيئ.

أقول وأنا أحاول أن أُثبِت قدميَّ على الأرض.

- يُوجَد بعض الأمل.

- يا للجمال!

تُصيح أريا من غرفة الورشة مُقاطِعةً أديلايده عمّا كانت على وشك قوله.

نجدها مُنْهَمِكة في تأمُّل بيت الدّمى الّذي أصنعه، وعيناها ممتلئتان بالإعجاب. تحاول نجلا لمسه، لكنّها تتراجع على الفور.

أُطَمْئنها: سرعان ما سينتهي.

تُعلّق أديلايده وهي تنظر حولها: أنتِ تعيشين في عالم آخر، فعليًا.

تُثبِّت نظرتها على كلّ التّفاصيل. من الجدار حامل المعدات مرورًا بالخيط الحديدي والكماشات الموضوعة على إحدى أركان الرّف، وورق لف الشوكولاتة الصغيرة الّذي سأُغلِّف به جدران بيت الدمى، حتى الأوريغامي الّتي

تنتظر كتابة اقتباسٍ ما عليها، والعلبة الّتي تحوي البطاريّات...

أريد أن أجيبها: عالم قريب جدًّا من عالمكم، وفي الوقت نفسه بعيد عنه كل البعد.

فتعبّر في النهاية عن تأييدها: يُعجبني بشدّة، أنتِ شخصية ملهمة للغاية.

- أنا؟

- أوه!

تقول على الفورِ بمُجرّد أن تنظر إلى هاتفها: عليَّ أن أهرع لِأوصِل أريا إلى المدرسة.

وتُمسك بِيَد ابنتها: يُمكنني أن أمكث هنا بالدّاخل بالسّاعات يا جيا، ولكن للأسف علينا الهرب الآن.

وفي ظرف دقيقتَيْن كانت الأمّ وابنتها من جديد على بسطة الطّابق.

- كدتُ أنسى.

وأخرجت أديلايده من حقيبتها الكبيرة ريشة رائعة الجمال بِيَد خشبيّة وسلمتها لي:

- تركتها لي جدّتي العزيزة. ولكن يُمكن أن تُفيدَك في المتجر، أليس كذلك؟

- أكثر ممّا تتخيّلين؟

- وتجلب أيضًا الحظّ السّعيد.

والحظّ السّعيد يُساعد كثيرًا.

(22)

أخيرًا أسير نحو «العالم الجديد». هناك في الداخل، سيبدأ عملي. ينتابني ذلك الإحساس الذي لطالما تخيلته في أول يوم في المدرسة. في الطابق الأرضي، أسرع بتعليق لافتة انتظرت طويلًا في مطبخي.

المصعد يستهلك طاقة، ويسلبنا طاقتنا،

لنتركه لمن يحتاجه حقًا...

كلما قلت احتياجاتنا، زاد اقترابنا من الإله!

كتبتها بقلم سميك ماركة أونيبوسكا، وأضفت إلى الكلمات رسمة لحب لنزع الصرامة عن المكتوب.

أعبر الفسحة حاملة حقيبة الظهر. يتملكني شعور بالخفة، إلى حد أنني أغير مساري. عشب الحقل القريب من النافيليو تم تقليمه مؤخرًا، لذا قررت المرور من هناك. أسرع خطواتي بطوال القناة، أحيي البط بابتسامة ماكرة، وأرى انعكاسي في المياه الباردة والمائلة إلى التجمد. حيث تختفي نظرتي التاعسة، لكنني متأكدة من وجود لمعة جديدة في عيني.

يفوح الحقل برائحة العشب المقلم للتو، وأميز على الفور أعشاب القاطونة التي نبتت هنا وهناك. أحب أعشاب القاطونة لأنها تنمو بإعجاز وبتواضع في الوقت نفسه. إنها تنمو في أي مكان: في المراعي، ومنتزهات اللعب، وبطول المدقات،

وفي أفنية الحقول، وحدائق البنايات، وشقوق الأسفلت، وعلى حواف الطرقات، تعيش حيث يمكن لأيّ شخص أن يدعسها، ولكنها تقاوم الدعس.

أستخدم مقصّ التقليم في جمع أعشاب القاطونة، وبعد ذلك، عندما أجلس إلى مائدة المطبخ، أفصل الزهور عن الأوراق. فلكلّ جزء من ذلك النبات خصائصه، وهي خصائص لا نهائيّة: مضادّ للبكتيريا، ومضادّ للالتهاب، ودواء قابض، ومطهّر للجروح، ومهدئ ومزيل للاحتقان. وكأنّ كلّ هذا لا يكفي، فهو جيد أيضًا كطعام. أستخدمه طازجًا إذا احتجت إلى هذا، وأجفّف بعضًا منه، لأوزّعه على ترونيو وعلى السيّدة داليا، وربّما أعطي البعض أيضًا لأديلايده، والباقي سأضعه في الفريزر لأستخدمه على مدار العام.

زاك! أقطع العشب بمقصّ التقليم، وأضعه في الكيس الذي أحضرته معي. زاك! أقطع المزيد منه، بينما أتخيّل أنّني أسمع غناء أمّي. بجواري المرأة المنحنية بسلّتها الخوص، فجمع الأعشاب الطبيّة كان الشيء الذي نفعله معًا.

زاك! تغنّي أمي، وتضع الأعشاب بعناية في السلّة. تختار دائمًا الأغنيات المرتبطة بالزمن المفقود والاختيارات، يبدو صوتها كأنّه قادم من مكان بعيد يستحيل الوصول إليه. زاك! تنتاب الأصابع الرفيعة رعشة: أمّي، صوتك يشبه الأنين.

ممّ تتألّمين؟

زاك! أشعر بالتيّار يهبّ الآن، الآن أصبح التنفّس سطحيًا، ونبضات القلب في تصارع. زاك! أمي تستمر في اللحن الحزين دون أن أستطيع فعل أي شيء. زاك! ينزلق مقصّ التقليم من بين أصابعي ويسقط على العشب، أضمّ يدي في حجري، وأنظر إلى أسفل، لأنّ السماء تصبح أكبر ممّا أحتمل... وأنتظر.

جزء منّي ينجح في الاندماج في ما كنت أفعله، ويؤمن به بالقدر الكافي لكي لا يترك العالم والنافيليو والحقل تتبخّر تمامًا. أستند إلى الأرض محاولة استعادة أنفاسي. أشعر بالبرودة تحت كفّي اللذين يسحقان الأرض الرّطبة. أتنفّس.

أستطيع الإمساك بالمقصّ مرّة أخرى، وأجمع النّباتات حتّى أملأ الكيس على آخره، ثمّ أضعه في حقيبة الظهر. أشعر بأنّني مرتاحة الآن. أغلق السوستة. يذكّرني أزيزها بحشرة عمياء حول كريلة في سكون الريف. هل هذه أنا؟

تخبرني حرير على صوف بأنّها رفعت السديلة وفتحت باب المتجر: سأذهب سريعًا إلى الشركة، ثمّ نتقابل فيما بعد. لن أوصيك.

تبادلنا نظرة واحدة. لا تعرف إحدانا الأخرى، إلّا أنّه يجب أن تثق كلّ منّا بالأخرى. نكاد نضيف شيئًا، ولكن كلانا لا تعرف جيّدًا ما

هو، وبالتّالي نكتفي بِتبادُل التّحيّة بإيماءة بسيطة من الرّأس.

أمكث بمفردي. يغوص المتجر في الظّلال، إنّه رطب وبارد على الرّغم من ازدهار الرّبيع في الخارج. أفتح الباب على مصراعيه لأسمح بدخول الهواء.

أقول لكلّ الأشياء الّتي تنتظرني بصمت: أهلًا، أنا جيا.

أنظر حولي دون أن أعرف من أين أبدأ وبأيّ روح. بالتّأكيد لديّ خطّة سرّيّة، ولكن لماذا لا أقوم بعمل جيّد في هذه الأثناء؟ أنقذ شيئًا ما وهذا الشيء سينقذك يومًا ما.

- سأبدأ بإزالة التّراب عنكم قليلًا، وهكذا نتعارف بطريقة أفضل، اتّفقنا؟

لا أعتقد أنّها ما زالت مُعتادة على سماع أيّ صوت آدميّ يوجّه إليها كلمات، أتمنّى ألّا تعترض على ذلك. أخرجت الرّيشة وبدأت العمل عندما سمعت طرقًا على الفاترينة. أتلفت فجأةً وأنا مُقتنعة أنّ مُوظّفة شركة العقارات نسيت شيئًا ما، أو الأسوأ، رُبّما غيّرت رأيها. لكنّني أجد أديلايده.

قالت لي عبر الزّجاج، وهي تُشير إلى الهاتف وتبالغ في حركة شفتيها: ردت علي سكرتيرة مارجريت، المكالمة الآن.

أهرع إلى الخارج: و...

- ومارجريت ستأتي!

- ماذا؟

لم أصدّق حتّى تلك اللحظة.

- ستأتي هنا إلى المتجر؟

- نعم.

- ماذا قالت لكِ غير ذلك؟

- لا شيء سوى أنّها ستكون هنا يوم الأحد القادم.

أحاول التّحكّم بانفعالي، بينما يُخيَّل إليّ أنّني أرى دوروثي تتحرّك برشاقة في متجرها من جديد. كم انتظرتها! ثمّ أفكّر في أبي، الّذي يعتبر شراء متجر خطيئة، وأشعر بالحزن لأنّني أشعر بالسّعادة، لكنّني أستقوي بفكرة حضور مارجريت إلى هنا، وبأن لي دورا في ذلك.

قالت أديلايده: لا بُدّ أن نمنع بيّع المتجر أثناء ذلك. ونحتاج إلى خطّة.

شعوري بأنّها حليفتي يُثلج صدري. وهو شعور جديد تمامًا. فأنا لم أعد بمفردي، أردد لنفسي وأنا لا أصدّق. لدي صديقة. لو قال لي أحدهم الأسبوع الماضي فقط، إنّ هذا سيحدث لأجبته أنّه يحتاج إلى معجزة أو عمل سحري.

بمجرّد أن رحلت أديلايده، حاولت التّركيز على الأغراض المُحيطة بي، طبقة التّراب الّتي تغطّيها

سميكة ومُلتصِقة. قبل أن أستخدم الرّيشة من الأفضل أن أخرج الستائر والأقمشة.

بدأت ببساطٍ فارسيٍ كبير ملفوف سقط على مائدة منخفضة، فهبط على مجموعة التّماثيل الصينيّة الخزفيّة الّتي رأيتها منذ خمسة عشر عاما. أدوِن ذهنيا أن أبدأ بتلك عندما أكرّس نفسي للإصلاح.

البساط ثقيل للغاية. بمجرّد أن سحبته إلى الخارج، وضعته قائمًا على الرّصيف، أسفل اللافتة الجديدة المكتوب عليها «للبيع». عندما لمس الجدار خرج من البساط غبار غطّاني بالكامل، وأصبح لون الأوفرول وشعري رمادي. أنفخ قصّتي الأمامية للخلف وأبدأ في العطس. لا بأس.

أضع في الخارج ستارتيْن من القَصَب، وأخريَيْن من الدانتيلة، وثلاثة مقاعد صغيرة متناسقة من الطّراز الفيكتوري، ومقعد كبير حديث من خشب الزان، ووسائد مَكسُوّة بقطيفة لونها أحمر ناري، وثلاثة أبسطة مستديرة من طراز باوهاوس، واثنين كيمونو، وكومة أوشحة بيروفية منسوجة يدويا، وخمس طرح زفاف، وثوبين من نسيج التافتا، وعشرين مترا من الحرير الرّمادي اللامع. وفي النّهاية، طاقم ثمين للغاية من مناشف اليد الكتّان وهي جزء من جهاز زواج آدا لافليس (10)، والّتي تعتبَر أوّل مبرمجة في العالم كما تحكي البطاقة.

- ما هذا، السّوق الصّغير للبراغيث؟

أسمع من يقول خلفي، ودون الحاجة إلى أن أستدير أعرف أنها حرير على صوف.

- لا بُدّ من تهويتها قليلًا، وفي الوقت نفسه تنظيف الجزء الدّاخلي من التّراب، وهكذا أعرف ما يجب إصلاحه.

وأكمل الرّدّ على نظرتها المُشكّكة: الواقع أنّني إذا ما نظّفت الأشياء أوّلًا لن يمكنني إصلاحها.

- لقد اتّفقت على زيارتين غدًا، وأنبّهك أنّ هذه الأشياء لا يجب أن تبقى هكذا في الخارج.

- بالتّأكيد.

- لا تجعليني أندم... وعينك على تلك اللّافتة إذا استطعتِ. فهنا اللصوص يقبلون بالقليل حسب ما فهمت.

أُشير ناحية المحلّ: يبدو أكثر اتّساعًا، والغُبار يتراقص في ضوء النّهار، وبعض قطع الأثاث تتجلّى كأنّها أجزاء من منظر طبيعي ضبابي خلف نافذة صغيرة، حاول أحدهم تنظيفها: انظري كم هو جميل!

ترفع حرير على صوف عينيها عن الهاتف قبل أن تبدأ بالعطس والسّعال ودعك عينيها. لم يعجبها المنظر، بل وابتعدت أيضًا بضع خطوات لتستطيع التّنفّس.

- هل لديك حساسيّة من الأتربة؟

- أيّ شخص سيسعل هنا في الدّاخل، يبدو وكأنّنا في رالي باريس - داكار.

- لديّ نبات يُساعد على علاج أيّة إصابة بحساسية الأنف...

- لِتُعالجي التّراب...

- تقريبًا انتهيت من المرحلة الأولى.

- فلننجِز إذن، ولتذهبي إلى الثّانية.

أُخرج من جيبي صابون مارسيليا وخلًا وبيكربونات وزيت زيتون: إذن، ما هي زيارات الغد؟ من سيأتي ليرى المتجر؟

ترفع كتفَيْها: عجوز أنيقة من ميلانو لتجعل منه بوتيك، والمدير الإقليمي لسلسلة مطاعم فاست فود، وصديقك المهذّب في المحلّ المجاور، والّذي لا يكلّ.

وتُشير برأسها للجدار الّذي يفصلنا عن حانة متجر التّبغ.

أجرؤ، بنبرة عدم اهتمام: ممم، ومن سيفوز؟

- دعيني أخمّن... ممم، ربّما من يدفع أكثر؟

- وأنا الّتي طالما اعتقدت أنّ المال لا يشتري السّعادة.

تنظر إليّ باهتمام: الآن لديّ موعد في وسط المدينة، وبالتّالي سأرحل. هذا المساء أتوقّع

أنْ أجد المتجر في حالة مَقْبولة. «بيزنيس إز بيزنيس».

بمجرّد أن تختفي بسيّارتها الميني، أمرع إلى جيبو، وفي يدي حزمتان من الأسباراجوس، وبعض النباتات. وفي المقابل أطلب منه أنْ يصنع لي نسخة أخرى من مفاتيح المتجر، فلدي فكرة، بل فكرتان.

(23)

من الأفضل إصلاح سور الحظيرة بدلًا من الجري خلف الدجاجات، أقول لنفسي وأنا أدعك بالإسفنجة الخشنة مهوي الصنبور بعد أن وضعت في ماء وخل.

ربّما تبدو الصّيانة عملًا سطحيًا. لماذا التدخّل إذا كانت الأشياء تعمل بالفعل؟ والإجابة هي أنه لا يمكنك معرفة متى ستعطّل. يكفي أن تتعلّم تخيّل المستقبل.

أتفحّص المهوي: لا يوجد أيّ أثر للجير. أعيده إلى الصنبور وأفتح المياه. تروفيو يقف بجواري، ويراقبني بلا اكتراث. لا يقوم بأعمال الصيانة لأنه فقدَ الأمل في القادم، لكنّه يتركني أحلّ محلّه.

تعود المياه لتجري بسلاسة. أضيف بيكربونات على الخل المتبقّي في الحوض، وأدعكه لكي يلمع معدنه. فالصيانة هي أن نحب العالم، وألّا نتعامل مع الأشياء كمُسلّمات. وهي أيضًا تأجيل النّهاية بعض الوقت. لا يجب أن نتوقّف عن حب الأشياء، إذا أردنا أن ننجو. فالعالم سينطفئ إذا توقّفت الشّمس عن النّظر إليه.

قبل أن أطهو لي ولتروفيو، أخرج من حقيبة ظهري المكرونة باللحم المفروم الّتي بقيت منّي من عشاء أمس، وأقترب من القفص الموضوع على

المنضدة في الصالون، وأهمس:

- أهلًا يا بيليه.

أسمع خَشْخَشة ثُمّ رجفة. يخرج فأر أمهق من علبة الكلينكس المقلوبة. يخرج وهو يقفز، ثم يدور حول نفسه ثلاث مرّات جريًا خلف ذيله، ثم يقفز ويمدّ نفسه حتّى آخذه في يدي. أربت على فرائه النّاعم، والنّاصع البياض، وأقبله على ظهره، وألمس به وجنتي، ثم أعيده إلى القفص. وفي النّهاية، أملأ طبقه الصّغير بقطع المكرونة.

- ها هو يا صديقي العزيز، نحن نُدلّلك جدًّا، أليس كذلك؟

وُلِد بيليه في أحد المعامل، ولولا المؤسّسة الخيريّة التي أنقذته لَظَلَّ فيه حتّى اليوم، يعاني العذابات والتّجارب التي تجعله يتمنى الموت.

تقاطع مصيره مع مصير صديقي بمحض الصّدفة، كما يحدث عادةً في العلاقات السعيدة. ما حدث أنّ أحد مُتطوّعي المؤسّسة التي أنقذته، قرّر أن يُحاول اقتراح تبني فئران التّجارب السّابقة بالطّرق على الأبواب. لم تستمر التّجربة سوى يومين، ولكن في الفترة الأولى طَرَقَ على باب عمارتنا، السّلم D في الطابق الثّالث، ووجد تروفيو أمامه مرتديًا خفيه، وغاضبًا للغاية. في الواقع، لقد شعر تروفيو بالفزع من فكرة أنّه يجب أن يتعامل- بلا كلمات- مع هذا المجهول.

لم يكن لبيليه آنذاك اسمٌ، بل رقمٌ تعريفيٌّ فقط: 17017. قاده المتطوّع معه ليرى من سيتولّى مهمّة رعايته، فالفئران حيوانات ذكية، ومحبة للعب، وعاطفيّة. وهذا ما يميّز سبعة عشر صفر سبعة عشر، عن باقي أخوته. كان من السّهل والمُسلّي تدريبه ليتعايش مع الآدميين، إلى حد أنه قضى معظم وقته خارج القفص، على أكتاف المُتطوعين.

في تلك الظهيرة، بمجرّد أن فتح تروفيو الباب، انزلق بيليه من يد المتطوع وألقى بنفسه أرضًا. عبر العتبة دون أن يهتمّ بالفتى الّذي يناديه: سبعة عشر صفر سبعة عشر! عد إلى هنا. تسلّق بنطال بدلة تروفيو الرّياضية، وصعد مسرعًا حتى قمّة كتفه، وهو يتشبث بأظافره في كنزته.

مَكَثَ تروفيو ساكنًا، بينما يُدَغدغ الفأر رقبته. استطاع أن يلمحه بطَرف عينه. فهو يخاف القوارض، ولكن في تلك الحالة اختلف الأمر: كيف يمكنك الخوف ممّن اختارك بشكل قاطع؟ لم تكن هناك طريقة ليطلعه المتطوّع على قدراته كفأر متدرّب، إلّا أنّ سبعة عشر صفر سبعة عشر أثبت قدرته على الحبّ بعفويّة، فاختار صاحبه ولم يبدُ أنّه مستعدّ إلى أنْ ينفصل عنه.

وقّع تروفيو أوراق التبنّي دون أن يتفوّه بكلمة.

- حضرتك شخص محظوظ، فقد عثرت على صديق.

قال له مبعوث المؤسّسة قبل أن يُقدِّم له الوثائق وملفًا فيه كلّ تعليمات العناية بالحيوان.

كيف يمكن الاعتناء بفأر؟ قرأ تروفيو الملفّ أكثر من مرّة وعلّم بالقلم الرّصاص القواعد الأساسية، ثمّ أخذ الحقيبة، وخرجا. أصبح سبعة عشر صفر سبعة عشر بيليه قبل أن يصلا إلى الطابق الأرضي (دون حتى أن يفتح تروفيو فمه) ولم يترك جيب البذلة الرّياضية لصاحبه أثناء مهمته في محل الحيوانات، حيث ابتاعا قفصًا، وفراشًا من نشارة الخشب، ومسقاة، وعجلة، وجميع لوازمه.

بيليه ذكيّ ورشيق، لاعب أكروبات حنون وجسور. ارتبطنا أنا وهو منذ البداية. خلال يومين أو ثلاثة فقط اعتاد على وجودي، ثمّ صعد على كفّ يدي المبسوط، إلى حد أنّه تركني آخذه في جولة في أنحاء المنزل. لم يعقرني قطّ، رغم قدرته على ذلك بخاصّة إذا شعر بالفزع.

ولتجنّب أن يقرض أسلاك الكهرباء، والأبسطة، والنّباتات، والكتب، يجب أن يظلّ صحنه مليئًا طوال الوقت: بخلاف البذور، والكرفس، والجذر أو الفجل، والفاكهة، والجبن، له أيضا بعض الوجبات الشّهية مرّتين في الأسبوع. عادةً أحضرها أنا، بواقي طعام مقهى اللاشيء، مثل المكرونة، واليخني، وكيكة الخضروات. وكثيرًا ما أحضر له أيضًا شرائط من

الصُحف ليصنع منها عشه، لأنّ الفئران حيوانات نظيفة جدًا وتريد تغيير الورق باستمرار، وأحفظ له أيضًا بكرات الورق الصحي المنتهية وعلب الكلينكس الفارغة، والتي يمكن أن يلعب بها الغميضة أو يحاول التوازن.

- هل يمكن أن تعيرني بيليه غدًا؟

سألت تروفيو بخجل عندما عدت إلى المطبخ.

يُسقط تروفيو نفسه ليهوى على المقعد المعتاد ويُشغِل التلفزيون.

أضيف لكي أهدّئه: فقط بضع ساعات، أريده أن يصحبني إلى مكانٍ ما. أقسم بأنّني سأعتني به كابن.

يُغيِّر تروفيو القناة. رُبّما يشعر بالفضول ويُريد أن يعرف ماذا سأفعل بيليه، ولكنّه تعلّم خلال الأعوام السّابقة أن يتحدث بالصمت. لديه من الصّمت أنواع مختلفة، منها: المُرتَجِف عندما يتوتر، والهادئ في لحظات السّعادة، والشّارد عندما يسرح بخياله، والمُرتَعش أمام الظّلم، والمُتَمتِم عندما تجتاحه الأفكار... وهناك أحيانًا الصمت الشّارد عن عمد، كما في هذه الحالة، ويعني أنّه يقبل على مضض، لأنّ بيليه هو أعزّ ما لديه في الحياة، ولكنّه أيضًا يثق بي وإذا طلبت ذلك فلا شكّ أنّ المسألة مهمة.

- حسنًا سأعدّ العشاء.

أعلن وأنا أخرج من حقيبتي كيسًا به كرنب.

آخذ دقيقًا من الرّف العلويّ، وبيضتين من الثّلاجة. وبالشّعور المطمئنّ نفسه الّذي أشعر به وأنا هنا، أغسل وأشذّب الكرنب. وأغرس أطرافه في البيض ثم في الدّقيق، ثم أضعه في صحن غطّيته بالورق النشاف بينما يسخن الزيت.

أثناء ذلك يصلني صوت الرّاوي في فيلم تسجيلي معلقًا على هجوم لبوتين على غزالة. من حين إلى آخر ألتفت لأنظر إلى تروفيو: عيناه شبه مغلقتين، يبدو مستعدًا ليقفز داخل الشّاشة. أعرف أنه يشجع الغزالة، وأتساءل ما هي المتعة الّتي يجدها في مشهد كهذا. هل يبحث عن تأكيد ما أنّ الضعفاء يهزمون، وأنّ هذا منطق الطّبيعة؟ ولكن هل نحن متأكدون من ذلك؟ أود أن أسأله، لكنّي لا أجرؤ. ثم يتفوق صوت قلي الكرنب في الزيت على صوت الرّاوي، ويمنحني هدنة من تلك الهزيمة الظّالمة.

نأكل جالسين إلى المائدة، أمام ضوء التّلفزيون بلا صوت.

أريد أن أخبره عن اقتصاد الحيّ الدّائريّ: وأنّ الكرنب طهوته أنا، ولكنّه هديّة من علي، وأنّ المكرونة كانت باقية، لم أدفع أيّة مصاريف، وأنّنا لا نحتاج إلى أن نقبل النقود لنطهو لصديق، أو لنقوم بصيانة صنبور مطبخه. تروفيو أيضًا يعطيني شيئًا في المقابل: نفسه. لكنّي أعرف أنّني إذا

رفضت العشرة يورو يمكنه أن يشعر بالإهانة، إنّها طريقته في التعبير عن امتنانه. أضعها له خفية في جيب سترته الثقيلة المعلّقة عند مدخل شقته.

- سلام يا تروفيو شكراً.

أصيح بأعلى صوتي، نظراً إلى أنّه دخل حجرته لينام قليلاً.

- ولكن يجب أن أقول لك... برأيي، الأقوياء لا ينتصرون دائماً.

(24)

في ضوء الفجر الضّعيف، عندما تتحرّك الأشياء دون أن تستقرّ بعد، تظهر مدينة ما أو حيّ. حتّى اليوم استيقظت مبكرًا، والآن أتمشّى بمحاذاة النافيليو. أشعّة الشّمس الأولى تداعب حصى الرّصيف، بينما تتقاطع المياه مع أدوات صغيرة طافية: ورق، وشملات، ونفايات مبعثرة. ترفع سدائل المتاجر، ويتعالى حفيف الدرّاجات، وتحمل الشاحنات صناديق هنا وهناك. تفتّش الكلاب و«تشمشم» في كلّ مكان، ويبحث الأشخاص في شاشاتهم وسماعاتهم عن دليل أنّهم أحياء.

إنّنا أحياء. أقول لنفسي، حتّى الآن لم تحدث أيّة كارثة. حتّى وإن كانت مهمّتي صعبة، فإنّني من جهة أخرى معتادة على الاختبارات. على الرغم من أنّها تخيفني، فإنّني لا أرغب في التراجع، واليوم سأقدّم عرضًا جميلًا: كل شيء معد، لا يبقى أمامي سوى الاستمتاع بالعرض.

أثناء انتظاري حرير على صوف أمام المتجر، أراقب الواجهة الزّجاجيّة، فلقد تركت المصاريع مرفوعة بالأمس. هذه اللّيلة لم ألمسها حتّى لا يظهر اهتمامي بالمكان. إنّها محظوظة بأنّ أحدهم لم يهشّم الزجاج، ولكن ربّما يكونون محقّين في قولهم: إنّ أثمن الأشياء يجب أن توضع على مرأى

العين، هكذا لن ينتبه إليها أحد. الواجهة الزّجاجيّة قاتمة ومبقّعة في أكثر من موقع. يمكن إصلاح ذلك بسهولة باستخدام الخل والماء الساخن، ولكنّني لن أفعل هذا بالتّأكيد في يوم الزّيارات.

ها هي، حرير على صوف، تصل. أناقتها الدّائمة تتناقض مع الطريق غير المعبّد، على الرّغم ممّا يروجونه عن تحسين وضع الحي.

حدث هذا منذ عدّة أعوام، عن طريق مشروع بناء ضخم. تحوَّل مصنع سابق إلى مجمع سكني في غاية الرقي، فيه حديقة، ومصابيح، وطرقات معتنى بها. عرضت الشركة الهندسية الكبيرة التي تولّت المشروع أن «تعيد تهيئة» جزء من المنطقة، تعويضًا عن الإزعاج الذي تسببت به أثناء أعمال البناء، حيث بطأت الطّرقات لعدّة أعوام بالإضافة إلى قطع الماء والغاز مرّات لا حصر لها على سكّان الجزيرة كافّة.

يُمكن أن يبدو ذلك تصرُّفًا كريمًا، إذا لم يكن هدفه واضحًا لكلّ ذي بصيرة: هو إعداد الحي لنوع الجمهور الّذي سيتردد إليه، وهو الأمر الّذي كان بمثابة الإهانة لمَن عاشوا هنا منذ زمن بعيد. حيّنا لم يكن على أكمل وجه، ولكن مَن ذا الّذي يؤمن بالكمال؟

كنت أُصلّي كلّ يوم: اتركوا لي مقهى اللّاشي، اتركوا لي الحداد، اتركوا لي بائع الخضروات بفانلته، اتركوا لي محلّ الحلوى الّذي يديره زوجان

في السّبعين، اتركوا لي محلّ الأعشاب بخلطاته. اتركوا لي الأشجار القديمة، والأرائك المقشّرة، ورائحة الحيّ العتيق النّاعس.

النّتيجة النّهائيّة لعمليّة إعادة التّأهيل كانت عبارة عن إلهاء بسيط: جدّدوا الأسفلت، زرعوا بعض الأحواض، عبّدوا مستوى الأرصفة (فقط في مناطق معيّنة)، أعادوا دهان لافتات المواقف، غرسوا بعض الأشجار الضّعيفة، والّتي لم تكبر قطّ. وفي الوقت نفسه، أمرت البلديّة بعمل جداريّة عن موضوع ثقافيّ على الجدار العاري الّذي يحدّد الميدان، ويحيط بمنطقة الألعاب. ربّما فعلوا ذلك أيضًا حتّى يساعدوا من يرغب في الهروب من ازدحام النافيليو، أثناء تمشية يوم الأحد، بحثًا عن متجرٍ ما أو مكان هادئ لتناول فواتح الشّهيّة.

في أعقاب ذلك الغزو العمراني، ارتفعت أسعار الإيجارات والمعيشة. فتحوا متاجر كثيرة، في الميدان وبالتّحديد بجوار «اللاشيء»، فتحوا كافيتريا على الطّراز الأمريكي من سلسلة كبيرة، وهكذا فقدت أنجلينا تقريبًا أيّة فرصة لاجتذاب عملاء جدد، وفتحوا أيضًا متجر آيس كريم طبيعي أسفل منزلي تقريبًا، والّذي لم أفهمه حتى الآن ماذا يقصدون بـ«طبيعي». أكتفي بالكونو من عند لوتشيلا في محل «جيلاتي الأحلام»، تلك العلامة التّاريخية للحيّ، ولكنها تعاني منذ فترة ومهدّدة بالإغلاق. آكل الكثير من الآيس كريم،

أكثر ممّا ينبغي، فقط لأساعدها على أن تحتفظ بالمكان.
في الأعوام الأخيرة، فتحت فتاة نحولة، كلّها عروق ووشوم، ومعها خطيبها الاجتماعي، كلّه عضلات ووشوم، «Concept store(11)»، لبيع كتب رحلات ودراجات. على الرّغم من أن أبي كان سيسمّيه ببساطة متجراً، إلّا أنه لطيف، ثمّ إنّ المكان كان مغلقًا منذ فترة، إذن يحيا الشابّان.
منذ شهرين، تمّ افتتاح مطعمين للتيك أواي. لم نرَ أصحابهما قط، من يعمل يأتي من الخارج، يشغّل الأجهزة الآلية، ويلتقط الطعام من صوانٍ معدنية، ليلقي به في حاويات من الورق المقوّي أو البلاستيك، ويعطي انطباعًا أنهم لا يهتمون بالعملاء ولا بمصير المتجر. ومنذ حوالي ثلاثة أعوام، في الشّارع الموازي لشارعنا، افتتحوا سوبرماركت «سيتي إكسبرس»، أسعار كلّ شيء فيه مضاعفة، وذلك لتدفع ثمن «السيتي والإكسبرس» وروّاده من سكّان المجمع السّكني الجديد فقط. أمّا نحن فنذهب إلى السوق صباح السبت أو إلى المخبز أو إلى محل البقالة الصغير الّذي يديره إيتورو، رجل ثمانيني نشيط، بالتّعاون مع حفيده.
الأماكن بالنّسبة إلينا تعني الأشخاص الموجودين فيها. فبائع السمك هو فرانكو، أرمل الآن،

وجوزيبه، الّذي نطلق عليه اسم جيبو، هو الحداد، ومعه زوجته والتوأمتان، وأنجلينا وزوجها وأوجينيو هم مقهى «اللاشيء»، ومتخصصة في الأعشاب بينيلوبه، بنظارتها المستديرة وداء باركينسون، حتى بائع التبغ الّذي يعتقد أنه يعيش في فيلم وسترن، ومحل الخردوات الّذي تديره أليدا وإزيكا، امرأتان غاية في الحِدّة، لكن قلبهما غاية في الهشاشة. والعالم الجديد بالنّسبة إليّ هو مارجريت وأديلايده، وربّما أنا أيضًا. وهو مفهوم عظيم جدًا أتعب من التفكير فيه بأكمله.

- الغرفة الرّئيسيّة شديدة الإضاءة، ومُطلّة على الشارع. أرجو أن تلاحظي حضرتك أيضًا الشبابيك والأبواب القديمة، فكل هذا يمنح قيمة مضافة لمتجر موضة، وفي الزّاوية توجد خزانة مُثبّتة في الحائط.

وتشير إليها حرير على صوف بإيماءة أنيقة.

السّيّدة الّتي معها - تجاعيد كثيفة، مساحيق ثقيلة، كمّية من الأساور والأعقاد وكأنّها سرقت محل مجوهرات- تنظر حولها بتمعن. ربما تحاول تخيل البوتيك الخاص بها.

تستمرّ حرير على صوف، وهي تُشير إليّ بذقنها:

- لا تُعيري انتباهًا للفتاة، إنّها من كلّية الفنون الجميلة.

- هل توجد أيّة عراقيل؟ فهؤلاء يحشرون دائمًا

أنفسهم في كلّ شي».

- لا، على العكس، فهي تُعيد الحياة إلى بعض العناصر الثمينة...

- بمعنى؟

تُضيف السيّدة مُشكّكة.

أبتسم. لا أفهم لماذا اخترعت حرير على صوف قصة من هذا النوع، ولكن هذا أفضل من أجل خطّتي. لقد أزلت الأتربة من على مجموعة التماثيل الصغيرة، غسلتها ونظّفتها بعناية، والآن دور اللاصق القويّ لتمثال انفصلت رأسه. أضع قطعة قماش خفيفة أسفل الجزءين المراد لصقهما، ثمّ أقرّبهما وأضغط عليهما لمدّة عشرين ثانية.

- المحلّ شديد الإضاءة، الشّارع هادئ، ولكنّ المارّة يترددون إليه، وعلى الحدود مع مجمعات سكنيّة أنيقة بنيت حديثا، في حي ينمو بسرعة، حيث تتلاقى الحداثة مع الأصالة. ثم على بعد خطوتين يوجد النافيليو، شريان الحياة في المدينة. هذا المحلّ لديه كلّ المؤهّلات ليكون استثمارًا هائلًا.

تتوقّف حرير على صوف لتترك كلّ تلك المعلومات الإيجابيّة لتستقرّ: تفضّلي، سأطلعك على الجزء الخلفي.

بمجرّد أن تختفيا، أثبّت التّمثال الصّغير على قاعدة من البلاستلين لتحافظ على وضعه، حتى يجفّ

الصّمغ، وأنحني جهة اليسار، وأفتح القفص الّذي غطّيته بيساط.

أهمس: الآن لحظتك المناسبة!

- كما يُمكن الملاحظة، الجزء الخلفيّ واسع جدًّا، والأرفف المعدنيّة يُمكن أن تظلّ في مكانها إذا احتجتم إلى ذلك.

أسمعها تحكي من نهاية الحجرة: هنا يوجد جزء للطهي، وفراش وحمّام، يبدو أنّ المالكة القديمة عاشت هنا لفترة. كانت أزمنة مختلفة، ولكن هذا يدلّ على جودة العَزْل الحراريّ.

- فاااااار!

فوضى، وخطوات مُرتبكة: النّجدددددة!

أجري خوفًا على أن يُصاب بيليه.

أطمئنهما: لا تقلقا. أين هو؟ سأهتمّ أنا بهذا.

ينظر إليّ بيليه مُرتجفًا من أسفل طاولة صغيرة. صعدت السيدة على كُرسي قديم وتشبثت بالرف بأظافرها المطلية بالأحمر. أمسك القارض وأنا أتظاهر بأنّني نجحت في ذلك بصعوبة.

- الفئران هنا في منزلهم.

أبرطم بيني وبين نفسي بينما أعبر بجوار السّيّدة. بمجرّد أن عدت إلى الجهة الأخرى، ربَتُّ على بيليه وقبّلته على فرائه الأبيض قبل أن أعيده إلى القفص وأترك له في صحنه خمس حبّات من

حبوب الإفطار شيريوز.

- تستحقّها يا صديقي، أشكرك.

أُغطّي القفص من جديد بالبساط: قليلٌ من الصّبر وسآخذك إلى صاحبك.

بعدها على الفور خرجت السّيّدة بخطوة سريعة وعيناها ملتصقتان بالأرض، وهي تقول بِشرود: سأتصل بكِ!

تهمس حرير على صوف باشمئزاز: ماذا كان يفعل فأر هنا في الدّاخل؟

أكمش كتفيَّ: ربّما أتى من مخزن بار التبغ.

تكشّر هي وتفرد قميصها الحريري ذا العقدة: هل يضايقك لو تأكّدتِ أنّه ليس في الطريق؟ فأنا أشمئزّ منها كثيرًا.

- بالتّأكيد... عمومًا الفئران جزء من الخليقة.

تُجيب هي على الفور: ليست جزءًا من خليقتي.

استغرقت الزّيارة التّالية فترة طويلة جدًّا. رجل يرتدي بذلة رمادية يفحص المتجر من الخارج. فيما بدت لي فترة أبديّة، يكتب هو ملاحظاته على ملفّ، وينهال على حرير على صوف بالأسئلة. يتوقفان في الغرفة الرّئيسية لمدّة نصف ساعة كاملة، ينهمكان في نقاش محتدم حول الأحجام، أبحاث السّوق، طرق التّسليم للموردين، مخزن: والذي يجب أن يظلّ خفيًا حتّى لا يرى العملاء أكثر ممّا ينبغي.

مُجرّد فكرة تَخيُّل أكل واحدة من تلك الهامبرجر تصيبني بالغثيان.

وأخيرًا يصلان إلى الجزء الخلفي: هذه هي المساحة التي يمكن تحويلها إلى مطبخ و...

يصيح الرّجل بغضب: ولكن لا يوجد أثر للمدخنة!

ترتبك حرير على صوف: كيف! لا يُمكن أن تكون قد اختفت.

- رُبّما أغلقوها، مَن يدري منذُ متى!

- سأتأكّد وأخبر سيادتك... سأستعلم عن ذلك.

- إذا قلت لي إنّ المدخنة موجودة، فلا بُدّ من أن تكون موجودة. فلو كانت أسفل الجدار، فهذا يعني أنها ليست موجودة. لقد أضعتِ لي وقتي.

أخفض عينيَّ على قطعة الأثاث التي ألمّعها، بينما يرحل ذلك الشخص غاضبًا، يتبعه صوت حرير على صوف: لا أعتقد أنّها مشكلة، سترى أنّها يمكن حلّها.

هذا هو العمل الإعجازي للورق الجيري، أقول لنفسي بينما أفكّر في دخولي ليلة أمس بفضل نسخة المفتاح التي أملكها، وأغمز بعيني التمثال الصيني.

في أقلّ من أربعة أيّام ستصل مارجريت.

سَنُقاوم.

(25)

كانت النّهاية بالنّسبة إلى أبي هي البداية. بداية العالم الجديد، ذلك الواقع الّذي نستعدّ له. الوقت الّذي فيه سيثبت أخيرا أنّه الأقوى، والأكثر ذكاءً واستعدادا وقدرةً من الآخرين. الوقت الّذي فيه سيحمينا، وسيندم كلّ من عزَلَه أو أهانه عندما يدرك خطأه في التّقدير. الوقت الّذي فيه سيصبح بطلا.

اتّخذت حياته ذلك المنحنى فجأةً، كان في عمر الخامسة والعشرين، إثر حماس عظيم، عندما وضع كلّ ما هو أساسي في حقيبته ومرّ ليأخذ خطيبته: سيرحلان بالسّيارة نحو جبال الأبينيني بحثًا عن مكان مثالي ليستقرّا فيه. سيحقّقان حلمهما بلا أيّ تردد: حياة غارقة في الطبيعة، بعيدة عن الجميع، منزوعة الفساد والنّفاق، مشيرا كالمعتاد إلى الوهم البشع الّذي يعيش فيه المجتمع.

أحبطه العالم الأكاديمي بشكل قاطع، حيث استهان بتخرجه بتفوق في الهندسة الفيزيائيّة، في ظلّ وسط تحكمه المحسوبيّات. وضاعت كلّ مجهوداته سدًى في عالم تسيطر عليه ألعاب السلطة، والاستهتار بالبشر تجاه الكوكب، وتجاه الآخرين، وتجاه أنفسهم.

ليس هذا هو المجتمع الّذي فيه يريد أن يكبر أطفاله، كان يراه بوضوح، ولم يكن هناك حل

آخر سوى الوصول إلى الاكتفاء الذاتي في عالم منفصل، حيث سيكون لهم حق اختيار أسلوب حياتهم يومياً.

كانت خطيبته طالبة أدب، ذات مُثل عظيمة، ولم تجعله يكرّر طلبه مرّتين. كان الهروب من حياة مُقيّدة من أجل خلق وجود ذي معنى أكبر، معنى حقيقي، وتحمّي من الإحباطات، حلمها هي أيضاً. يتميز أبي بشخصية جذابة، وقد وقعت في حبه، ووثقت به. معه شعرت بأهميتها، بأنها محبوبة ومحمية.

بعد بضعة أسابيع، عثرا على منزل مُلحق بمزرعة شبه مدمر على حدود الغابة. كان فيه حديقة، مساحة للبستان والحظيرة. بالتأكيد سيتطلب الأمر بضعة أعوام لإعداده، ولكن هذا لم يفزعهما. اختفت المسابقات والتوقعات، اختفت الانتصارات والإخفاقات. لم يكن هناك سواه هو وأمي، شابان عاشقان. ثم جاء أندريا، وأخيراً أتيت أنا.

هذا الصباح، شاهدت حرير على صوف بصحبة شريكها في المتجر.

سيد مسن، يرتدي هو الآخر ملابس أنيقة، شعره رمادي مصفف إلى الخلف، ومظهره يوحي بمهارته في التعامل مع الجميع دون تقديم أدنى تنازلات أو حلول وسطى. ملابسه مقاسه تماما كأنه وُلد داخلها، فضلاً عن حذائه ذي الرباط

الكلاسيكي، والّذي يُشير إلى اعتداده الزّائد بنفسه.

يضع الآن يده على كتف حرير على صوف، بثقة معينة وحميمية، إلى حدّ أنني تساءلت: أية علاقة تربطهما؟

- بابا...

تشكو هي، وهي تُجيبه دون أن تعرف أنّها تُجيب عن سؤالي.

أبوها؟ لم أكن أتوقّع هذا! إذن فهي شركة العائلة!

بالنّظر بدقّة يبدُوان مُتشابِهين. من الأب أخذت حرير على صوف الأنف الشّامخ وشكل الفم، ولكنّ عينيها مختلفتان: فعيناها واسعتان وفاتحتان، أمّا هو فعيناه صغيرتان وقاتمتان، متقاربتان. عينان لا يفلت منهما أيّ شيء.

أريد أن أرحل، ولكنّهما رَأيَاني الآن. أُحيّي حرير على صوف بإيماءة خجولة بذقني، بينما تشير إليّ للدخول. في تلك اللّحظة تمامًا، يمرّ بجواري بائع التّبغ ويصدمني، حيث يذهب للقاء الأب ويتصافحان بحرارة. أنزلق إلى داخل المتجر محاولة ألّا يلحظوا وجودي، وأتّجه إلى التّماثيل الصّينية لأفحص نتيجة ما صنعت يداي.

- الغرفة الرّئيسيّة شديدة الإضاءة، وتتميّز بقوّة نورها. ولاحظ أيضًا الشّبابيك والأبواب

القديمة...

- لا يهمّني النّور بشيء، ولا حتّى الواجهة الزّجاجية، نظرًا إلى أنّ كلّ شيء سيكون مظلمًا.

- زاوية الخزانة.

- الخزانة سأضعها حيث أرى، وبالتّأكيد ليست في زاوية. برأيك، أين توضع الخزانة؟

تتجمّد هي، وتنظر إلى أبيها؟

يجيب بائع التبغ: في الوسط، أليس كذلك؟ أليس هي أهم شيء؟ لا بدّ من أن تسقطي داخلها.

يومئ الأب مؤيّدًا: الخزانة توضع في الوسط، يمكن لطفل أيضًا معرفة ذلك.

ويصعق ابنته بنظرة.

تحاول حرير على صوف الرّدّ، ولكنّ الرّجل يمسك بائع التبغ بذراعه ويستديران معًا، فتجد نفسها في مواجهة ظهريهما. تكاد ترفع نبرتها، أفهم ذلك من الطّريقة الّتي تفرد بها جسدها، لكنّها تتراجع.

يقول بائع التّبغ للأب: اسمع، لندخل في الموضوع. يمكنكما رفع اللّافتة الموضوعة في الخارج، سأبتاع أنا هذا المكان. حدّد السعر.

تلحق بي حرير على صوف، وتقول «إي»، تقريبًا بحرارة، بطريقة لم أتوقّعها.

كم أودّ أن أعرف اسمها، ولكنّني لا أجرؤ على سؤالها خوفًا من أن يبدو ذلك تطفلًا.

أهمس إذن: الخزانة في الوسط. برأيك، أين توضع الخزانة؟

وأنا أقلّد الصّوت الأجشّ لبائع التبغ.

تكتم هي الضّحكة.

عندئذ أُكمل: هنا كلّ شيء سيكون مُظلِمًا، وهكذا يرتاح عقلي.

ترفع عينيها نحو السماء لتعبِّر عن إحباطها من ذلك الشخص.

فأقول لها في نَفَسٍ واحدٍ: عمومًا أنا اسمي جيا.

- اسم جميل.

تُجيب. لا أعرف إذا كانت تمزح. ولكنّها لا تخبرني عن اسمها.

أسمع من يقول في الخلف: الحَمّام يُمكن تحويله ليناسب القواعد الخاصّة بالمعوّقين. لقد تأكّدت من ذلك.

زفر بائع التّبغ: حسنًا، الحمام ضروريّ، ولكن هل يجب أن ننفذ القواعد الخاصّة بالمعوقين؟ لماذا سيأتون إلى هنا في الدّاخل؟ لِحُسن الحظّ يبدو لي أنْ لا أحد منهم هنا.

أردت أن أنزع التّمثال من فوق قاعدة البلاستيك، ولكن قطعت تلك العبارة أنفاسي.

إنّ تطبيق القواعد في الحمّام شيء إجباري، ولكن بائع التبغ مقتنع أنّه يمكنه الإفلات من ذلك.

يصرّ، وكأنّ المكان أصبح ملكه: لا أريد أن أنفق على ذلك يورو واحدا. يمكن طلاؤه بطبقة لون أبيض، وثقب في الجدار من أجل ماسورة الصرف، ثمّ لن يبقى لنا سوى الاستثمار في الأجهزة. ولكن هذا أيضًا نحتاج إلى تأمينه جيدا، لقد عثرت على مجموعة من ماكينات الحظ بسعر هائل. أمّا الشاشات والحواسيب فتزوّدنا بها شركات المراهنات. لا يوجد أفضل من هذا.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من استراق السّمع، رغمًا عني. لا بدّ من أن أعرف إلى أيّ مدى يمكن أن تصله النّفس الإنسانيّة للحصول على مزيد من النّقود، وقدر من التّسلية.

- يعتقد النّاس أنّهم يستطيعون الفوز، لديهم هذا الغرور. كلّ منهم مقتنع أنّه هو الواحد على مليون الّذي سيفوز. من أنا حتّى أنكر عليهم ذلك الوهم؟

يردّ عليه الآخر بابتسامة مسايرة وهو يسبقه نحو المخرج:

- أرى أنّ لدى سيادتك أفكارًا واضحة. حسنًا، ولكن يبقى السعر الّذي حدّدته لك غير قابل للتفاوض.

فجأةً لم يعودا صديقَيْن. يضبط أبو حرير على

صوف وضع رباط عنقه، وكأنّه يضع مسافة بينه وبين المستمع. لم يتوقّف عن الابتسام، ولكنّه الآن يبتسم بطريقة أشدّ قسوة.

يرفع بائع التّبغ صوته: ومن ذا الّذي سينفق كلّ هذا المبلغ على ذلك المخزن العفن المغلق منذ الأزل؟

- يوجد بعض المُهتمّين بالفعل. فالحيّ يُعاد تقييمه في الوقت الحالي... في حالة لم تدرك سيادتك هذا.

يُجيب مندوب شركة العقارات وهو مُصرّ على التوجه إليه بصيغة الاحترام.

- أريد أن أرى أيّ نوع من العروض ستأتي إليكم!

- سنرى.

- هل تتحدّاني؟ قلت لك إنّني من سيأخذ هذا المكان.

- يكفي أن تُراهن سيادتك بمبلغ جيّد. لأستخدم مجازًا مستعارًا من مشروعك.

- إذا تجرّؤوا وباعوه لشخص آخر سأشعل فيه النّيران.

بينما يتجاوزني ليخرج، يُبرطم بائع التبغ في هسيس غاضب. ثم يقول بصوت مرتفع: كنت أعتقد أنّ الميكانيكيين يصلحون السيّارات وليس الحلي.

ثمّ يضحك على دعابته، وفي تلك اللحظة يلاحظ أبو حرير على صوف وجودي. أرفع عينيّ عن التّمثال الصّغير في محاولة لأبدو هادئة، مع إدراكي أنّ عضلات قدمي وعنقي قد تيبست.

تدخّلت حرير على صوف فجأةً: في الواقع جيا ليست ميكانيكيّة، بل هي تعمل على إصلاح تلك الأشياء... الثّمينة.

يسخر بائع التّبغ: اخفيها في أقرب فرصة، يوجد صندوق كبير هنا خلف النّاصية.

بمجرّد خروجه، تُوجّه كلامها إلى أبيها: شخص مُقرف. ثم إنّ محل رهانات...

- يجب أن تصلي إلى اتّفاق، لا أن تَعقدي صداقة. لا بُدّ من أن نربح لنتمكّن من الاستمرار في عملنا. هل تعتقدين أنّه بمنع فتح محلّات الرّهانات سيتوقّف النّاس عن تلك العادة السيّئة؟ ألن يتوقّفوا عن الشّعور بالضّيق أو زرع أحلام غير واقعية؟ العملاء هم عملاء، لا بدّ من أن تُجيدي التّعامل مع الجميع.

من الطّريقة الّتي تنظر بها إليه تبدو مُندهشة أنّها استطاعت أن تندهش من أبيها. كيف يُمكنه أن يقول شيئًا كهذا؟ أريد أن أعترف لها أنّني أعرف تمامًا هذا الشّعور، ولكنّني أخشى أن أتجاوز حدودي، فليس بيننا علاقة وثيقة. وحتّى يثبت عكس ذلك، فنحن هنا فقط في علاقة عمل.

تخرج حرير على صوف مُغتاظة، دون أن تُحيي أحداً، وأمكث أنا هنا أحدّق بالعتبة. لحسن الحظ، يقرر الأب أيضاً الرحيل: يُخرج مفتاح سيارته من جيبه، ثمّ ينظر إليّ: هل لتلك الفوضى قيمة حقاً؟

ولكن قبل أن أستطيع الردّ، يُضيف: رُبّما نصيحة ذلك الشخص ليست نصيحة سيئة.

ثمّ يرحل.

أمكث بمفردي في المتجر، بقلبٍ مُثقل.

أحاول التصالح مع ما سمعته للتوّ، لكنّني لا أستطيع. صحيح أنه لا يمكن نزع احتياجات الآخرين من جذورها، ولكن في الوقت نفسه، يُمكن ابتكار طرق جديدة لتلبيتها. أريد تصديق أنّه يمكن للجمال والامتلاء والقيمة أن ينتصروا. لا يمكنني تخيل أنّ هذا المكان، الذي ظلّ سنوات عديدة دليلا على توافر الفرص الثانية، يمكن أن يستقبل نشاطا لن يسمح بأية فرص جديدة لمرتاديه. لا أستطيع تقبل إحباط أب لابنته ورفض الاستماع إلى أسبابها.

وحتّى لا أدع نفسي أجترّ إلى ذلك النوع من الأفكار أحاول استعادة تركيزي في العمل. لا بدّ من أن أقيّم حالات المصنوعات الخشبية، فهي كثيرة جداً وتحتاج إلى عناية خاصة، ولكنّ ذهني مكدس باقتراضات جديدة، بعد

أن هاجمتني رؤية ذلك المكان وقد غزته آلات المُراهنات، والأشخاص يلتفّون حولها بتذاكر في يدهم أو يحدّقون بالشّاشات، بينما الأجراس الإلكترونيّة تدقّ مكرّرة: يؤسفني، حاول مرّة أخرى، سيحالفك الحظّ، ثمّ تظهر نفايات الأوراق المُمزّقة بعد وصول النّتائج وهزيمة المراهنين. إلّا أنّ صوتًا داخليًا يقول لي: ربّما يمكنني منع هذا. ربّما ستقتنع مارجريت.

فجأة أسمع دقًا على الواجهة الزّجاجيّة خلفي. ألتفت، وأنا أخشى أن تكون حرير على صوف قد عادت لتطلب منّي الرّحيل، وتقول لي إنّ كلّ تلك البضائع العظيمة ستنتهي بين يد من يفرغون المخازن، وإنهم باعوه لبائع التبغ.

ولكنّني أجد نفسي أمام بريشيللا.

- فكّرت في أنْ أمُرّ لأعرف ماذا تمّ في مُكالمة السّيدة الإنجليزيّة.

أجتهد لأبتسم: شكرًا، صارت أفضل من المُتوقّع. ستأتي إلى هنا يوم الأحد. إذا لم يضع أحدهم يده على المتجر قبل وصولها.

وأشير إلى بائع التّبغ المُجاوِر.

- آه، ذلك.

تقول وهي تصرّ على أسنانها: من الأفضل الابتعاد تمامًا عن ذلك.

- ولكنّه هو الّذي يرغب في الاقتراب... اسمعي.

خطر في بالي فجأة: سيبدو لك طلباً غريباً، ولكن هل خلف زوجك السابق بعض التيشرتات القطنية القديمة؟

- بكميات كبيرة. قبيحة مثلما يمكن لشخص مثله فقط اختيارها، وكذلك مشوهة. هل تفي بالغرض؟

- بل وأفضل.

(26)

في طريق عودتي من المتجر، تذكّرت أنني لم أتلق أي ردّ من جاري حتى الآن. الشاعر لا ينام، لكنّه في المقابل يموت كثيراً. ترى هل شعر بالإهانة؟

كان مجازاً، وبالتأكيد فهمه، فالشاعر يموت بمعنى أنه يعبر عن نفسه بمحوها في كلّ قصيدة، أو على الأقل هذا ما أظنّه المعنى المقصود. فإمّا أن يكون الشاعر موجوداً وإمّا أن تكون قصيدته هي الموجودة، لا يجتمعان معاً أبداً. عرّف هو نفسه أنّه حالم، وعرّفته أنا أنّه شاعر. ربّما فكّر: ماذا تريد هذه الفتاة منّي؟ ألا يمكنها بكلّ سهولة وضع سدادتين في أذنيها تاركةً إيّاي أسير ذهاباً وإياباً فوق رأسها؟ لكنّه توقّف عن المشي فجأة.

هذا الصّباح رأيته يعبر الفناء حاملاً كومة مائلة من صناديق كبيرة وصغيرة. ترى ماذا يوجد في داخلها؟ أخذت أراقبه على أمل أن أكتشفه، وخاصة إذا التفت، فبالتّالي سأتمكّن من رؤية وجهه، ولكن عندما فعل ذلك، كان وجهه مغطى بكومة الصناديق. ما لون عينيه؟ كيف هي نظرته؟ كم عمره؟ لماذا لم يجب عن رسالتي؟

ربّما انتهت مبادلتنا للرّسائل عند هذا الحدّ، بلا نتائج. ليس لديه وقت ليضيعه في محادثة عابرة مثل محادثتنا. لا بد من أنّ له حياة حقيقيّة

ومشاكل وفرضيّات يُفكّر فيها. أو رُبّما يتقدّم فيها إلى الأمام. رغم أنّني لم أرَه قطّ بصحبة أيّ شخص، فربّما تكون لديه عائلة يذهب إليها ليشاركها الغداء يوم الأحد. أمّا أنا...

بينما أفتح الباب، وأنا غارقة في تلك الأفكار، دعست ورقة مكتوبٍ عليها بحبر أسود كسابقتها. قفزت نبضات قلبي ثمّ تسارعت، كحصان فزع من حاجز مفاجئ. أحدق بالأرض، دون أن أمتلك الشّجاعة لأنحني وألتقطها، ولكنّني تركت نظري يدقّق محاولًا تفسير الكلمات. ترى ما هو ردّه؟ أفترض: لتعش ونترك الآخرين يعيشون، لننهي حوارنا عند هذا الحدّ...

لكنّني أخلع حقيبة ظهري وأضعها في الرّكن خلف الباب، كعادتي يوميا. وأخرج دميتين عثرت عليهما ملقاتين على الرصيف. بعد غسلهما ستصيران جديدتين، فمنزل أريا بحاجة إلى سكّان.

في المطبخ، أغسل يديّ. فكرة وجود الورقة على الأرض تنتظرني، تثير فيّ قلقًا وفرحًا، ولكنني بمجرّد أن انتهيت من تجفيف كفّي في الأوفرول، التقطتُها.

رفض الموت يعني أيضًا رفض الحياة.

أورسولا لي جوين

إذن فهو لم ينه حوارنا، كما خشيت، بل أجابني! لا أستطيع التحكّم بجسدي، أتجوّل في الممرّ ذهابا

وإيابًا، مُستمرةً في إعادة قراءة العبارة: رَفض الموت يعني أيضًا رفض الحياة. أعيد التفكير في الحصن. كيف عشنا أعوامًا كثيرة، ونحن نصمم دائمًا مسارات جديدة للهروب من الكوارث. أجري إلى الورشة، وآخذ ورقة جديدة مرسوم عليها زرافات، وأكتب:

وأنا الّتي اعتقدت أنّ الحياة تعني مُحاولة إبعاد الموت قليلا...

عبارة شخصيّة أكثر ممّا ينبغي؟ رُبّما خطرَ هذا. أمرّر القلم من يدٍ إلى أخرى، بحثًا عن بديل. رفض الموت يعني رفض الحياة. أحتاج إلى عبارة غير شخصية، وتصيب الهدف في الوقتِ نفسه. بينما أفكّر في هذا، أمسك برسالته بين يديّ. فقط عندئذٍ ألاحظ الملحوظة الّتي كتبها في الخلف:

أحتاج إلى مساعدة في تثبيت واجهة عرضٍ على الجدار. أعرف أنه يمكنكِ ذلك. إذا أردتِ، هل يُمكن أن تمرّي عليّ فوق؟

أقرأ من جديد. واجهةِ عرض ليُثبّتها على الجدار. يتّجه ذهني مباشرةً إلى الجانب المهني، وأتساءل أيّ نوعٍ من الخوابير يجب أن أستخدمه. هل الواجهة الزجاجية ثقيلة. كم وزنها؟ هذا يعتمد على ما يُمكن أن تحويه. واجهة زجاجيّة؟ ماذا يُمكن أن يفعله بواجهة زجاجيّة؟

فلتَمُرّي عليّ فوق... لا أستطيع تَصديق أنّه

يدعوني إلى منزله من أجل عمل. إذن، فهو يثق بي ويعتقد أنه يمكنني مساعدته.

ماذا لو لم يكن سوى مزاح سخيف؟ هل يستحق الأمر المخاطرة؟ ليس لديكِ أعذار، ولكنك لا تعيشين. هذا ما قالته لي السيّدة داليا في أحد الأيام.

أُعيد قراءة ردّي، ليس سيئًا بل حقيقيٌّ. يُمثّلني. أتنفّس نفسًا عميقًا، أفكر. في النهاية، أقلِب الورقة وأضيف:

... ولكن ربّما من الأفضل جَذْب الحياة نَحْوَنا. أو رُبّما تعليق واجهة زجاجية. سأمرّ في أقرب فرصة.

(27)

- هالو... من الممكن أن أدخل؟

فاجأني الصوت من الخلف ففزعت. واستدرت فوجدت برشيللا، تقف في وسط المتجر، تاركةً لتوها كيسًا مليئًا بالملابس ليسقط أرضًا.

- افعلي بها ما تريدين!

- أنتِ مُنقِذتي، أشكرك.

اليوم السبت، وأنا أشعر بقلق شديد إلى درجة أنني نسيت أن أسألها عن أحوالها. الفكرة هي أن أعيد الحياة إلى أكبر قدر من الأشياء، وهكذا في الغد تجد مارجريت المتجر في أفضل حالاته وتقتنع بأن تعيد شراءه.

- بونجورا

تصيح أديلايده وهي تطلّ من على العتبة. ترتدي ثوبًا أبيض قصيرًا بفتحة صدر على شكل قلب وحذاءً رياضيًا لونه فوشيا. من وراء ساقيها تظهر أريا، ترتدي هي الأخرى ثوبًا أبيض. تُحيّينا بيدها، ثم تسأل برشيللا: أنتِ صاحبة سكر؟

تومئ برشيللا. ولكنّه الآن عند مُصفّف الشعر... يذهب إليه أكثر منّي!

تتأمّل أديلايده ما حولها: يبدو أنّه لا يزال لدينا الكثير من العمل.

تتظاهر بأنّها تُشمّر كمّيها، غير الموجودَيْن: ما هي

الخطّة؟

تُقلّد أريا أمّها.

- الفكرة هي تحويل تلك الفانلّات إلى قطع قماش للتنظيف والتلميع، وتشميع كلّ الأثاث الخشبي الموجود هنا في الداخل.

أشرح وأنا أشير في البداية إلى الكيس بما فيه من ملابس زوج بريشيللا السابق، ثم إلى البيانو، والخزانات، والطاولات، والمقاعد، والكراسي.

تقترب أديلايده من الكيس وتفحص الفانلّات:

- كنت آمل أن أجد فيها شيئًا يُناسب إبداعاتي، ولكن أعتقد أنّ هذا لن يحدث.

تُعلّق وتنفجر من الضّحك.

تبدو بريشللا أيضًا مُستمتِعة، بل ومرتاحة.

- سأريكم.

أقول وأنا أُخرج مقصًا من حقيبة ظهري. آخذ فانلة وأقطعها بالعرض.

- هل يُمكنني فعل ذلك؟

تسأل بريشيللا بحماس مفاجئ.

- تفضّلي.

أُعطيها المقصّ وكأنّه عصا سحريّة.

تُمسك بريشيللا بواحدة من تيشيرتات زوجها السّابق وتبدأ بِقَطعها، في البداية بدت مترددة

قليلًا، ثمّ يجسّم: آه! يا له من شعور مُريح! شعور مريح حقًا!

أخذَت تُردّد وهي تنظر إلى قطع النّسيج تتساقط على الأرض.

تُمسك أريا بالقطع وتضحك وتطيّرها.

تنظر إليّ بريشيلا، بعد أن قطعت كلّ التيشيرتات:

- اسمعي، اليوم سبت، وليس لديّ أيّ شيء أفعله. سأمكث لمساعدتكم.

- أشكركِ، أحيانًا لا يفكّر المرء في ذلك، ولكن يكفيه مدّ يد المساعدة ليتمكّن من عمل شيء..

ترفع أريا يديْها: أنا لديَّ اثنان!

- بالمناسبة!

أفتح الحقيبة وأُسلّم بريشيلا الهديّة الّتي تلقّيتها من «بياضات بولّو من 1987»: لأعتذر عن الضّرر الّذي سبّبته لمنشفتك في ذلك اليوم.

بينما ترفع المنشفة أمامها، تقرأ: الأفضل لم يأتِ بعد: أشكركِ، لم يكن واجب عليكِ القيام بهذا. ولكنّها فكرة جميلة جدا.

لا أدري إذا كانت تحدّث عن الهديّة بحدّ ذاتها أم العبارة المطرّزة عليها.

- ما هذا الاجتماع للصّديقات السّعيدات في قصر ويندسور؟

أرفع عينيّ عن غطاء البيانو الّذي كنت ألمعه بالشمع مرّة أخيرة، فأجد حرير على صوف مستندة إلى حلق الباب. ترتدي تايرا من ماركة مشهورة وكعبا رفيعا، وتمسك بين ذراعيها ملفا. ووجهها يبتهج. لم أسمعها أثناء دخولها.

أنتبه الآن إلى أنّنا توقّفنا فجأةً، كأنّنا في عرضٍ مسرحي. تبعا لتعليماتي، كانت أريا تلمع مقعدا صغيرا من طراز ثونيت بقطعة قماش رطبة، بينما تضع برشيللا خرقة في خليطٍ من زيت الزيتون والكحول وعصير الليمون لتلمّع سطح طاولة منخفضة كبيرة، أمّا أديلايده فتمرر قطعة من الشّمع على حوافّ أدراج الخزانة، لتصبح سهلة الحركة.

تركت حرير على صوف شعرها منسدلًا على كتفيها، ولم تجمعه في دائرة كما تفعل عادةً. وهذا يعطي انطباعًا بأنّها في عجلة من أمرها، أو أنّها نسيت شيئًا ما. تبدو في مزاج جيد وكأنّها معلّقة، أو منطلقة نحو شيء جديد.

أرفع قطعة قماش مبلّلة بالشّمع: إذا أردتِ انضمي إلينا.

تبتسم بسخرية: عرض مغرٍ... ولكن لا، أشكرك. لا أريد أن أعرف شيئًا عن كل هذا العمل في الباطل، واضح؟ ولكن كلّما أنهينا بشكل أسرع كلّما كان ذلك أفضل، ولذلك سأغضّ النظر.

- هل هناك عروض في الأفق؟

- نحن على وشك تلقّي عرضَين.

أقول باندفاع: اثنان؟

- أبدى كلّ من مسؤول سلسلة مطاعم الهامبرغر وصديقك هذا إصرارًا كبيرًا. ولكننا في انتظار أن يصبح عرضًا رسميًا.

إذن مسؤول سلسلة الهامبرغر لم يتراجع؟ وبائع التبغ يصرّ؟ كان لا بدّ من أن أتخيل هذا، فهذه السعادة الغريبة لا يمكن أن تكون عابرة. لا يمكن أن يهرب البعض من سجون معيّنة، بخاصة إذا بنى قضبانها بيديه.

- جيا!

أسمع صوتًا يناديني من الخلف: قال لي أوجينيو إنّني سأجدك هنا. حاولت الاتصال بك...

- أهلًا أنجلينا.

أخرج هاتفي المحمول من جيبي، البطارية فارغة. من يدري منذ متى.

تسأل أنجلينا وهي تنظر حولها: هل قاطعت عليكم شيئًا. يا له من مكان جميل! بالإضافة إلى طراز المتجر القديم، يبدو أنّنا في داونتون آبي.

- هل رأيتِ؟

أقول لها في محاولة لإبعاد الأفكار السيّئة. أمسك كوبًا من الكريستال: في صحّتك!

تُجيبني هي: في صحّتك! ثمّ تنحني على مقعد صغير: انظري إلى هذا الجمال، لون أرجواني! تخيّلي...

تُتمتم بعدها وهي تقرأ البطاقة: كان صاحبه لورد أسكَتلندي، انتحر في سبيل الحبّ!

تتنهّد بريشيللا: كم سيكون جميلًا في منزلي، في محلّ تلك المقاعد البيج خالية المعالم.

تتدخّل حرير على صوف: يمكننا أن نبيعَه لسيادتك.

- وأنا أريد تلك.

تُشير أديلايده إلى مكتبة من البامبو في نهاية المتجر. في الواقع ستكون رائعة لبيتها.

ترفع حرير على صوف حاجبيها: ادفعا وامتلكا.

أنظر حولي. الآن والبضائع بدأت تلمع، الآن وقد أعدناها نحن إلى الحياة، هذا المكان يمكن أن يبدو كمتجر حقيقي.

- أنت صاحبة «اللا شيء».

توجّه أديلايده كلامها إلى أنجلينا الّتي تجيب: للأسف.

- لا تقولي هذا، إنّه أحد الأماكن الأصليّة الموجودة في الجوار.

تُخبرني: لديّ مشكلة مع ماكينة القهوة، لهذا أبحث عنكِ، لم أركِ منذ فترة.

ثمّ تتوقّف فجأة: اسمعوا، ما أهمّية ذلك! لا يهمّني

شيئًا من «اللاشيء». ليمكثوا بلا قهوة.

أنظر إليها مُندهشة: لكن ماذا حدث؟

- المعتاد، زوجي يلعب الورق، وأنا أغني من أجل الجد... الذي لن يأتي! تعبت من البقاء هناك ليتحكم بي الجميع. هو، والزبائن، والممولون، والمستشارون، والجيران الذين يرسلون المفتشين... ثمّ كيف نضايقهم؟! يكفي هذا، فأنا في قمّة الضيق! لا يمكن أن أمكث هناك حتّى أتعفن.

«قمّة الضيق»، تعبير لا يُمكن لسواها استخدامه، وربّما الملكة إليزابيث أيضًا.

تهزّ رأسها، ربّما لتتحرّر من الأفكار: ماذا تفعلون؟ هل يُمكنني مساعدتكم؟ لا أستطيع البقاء مكتوفة اليدين.

أوافق بحماس جديد، فاشتراك أنجلينا يُوازن الخبر السيّئ الخاصّ بالعرضين القريبين. فأنا معتادة على الاستعداد للأسوأ، ولكن لماذا لا أستعدّ للأفضل أيضًا؟ لماذا لا أُصدق إمكانيّة حدوث معجزة؟ على الأقلّ طالما توجد مساحة لهذا. على الأقلّ لمدة يوم.

- يُوجد الكثير لنفعله!

تصيح أريا، وهي تنظّف بالرّيشة داخل واجهة صغيرة مليئة بالحلي.

تفرد حرير على صوف ظهرها وتلتفت نحوي: حسنًا، سأعود فيما بعد يا مداما دوريه (١٤).

ثمّ تخرج.

- Oh, quante belle figlie, Madama Doré, oh quante belle figlieee.(13)

تبدأ أريا بالغناء، بينما أنقل مع أنجلينا بعض قطع الأثاث، حتّى نتمكّن من الوصول إلى البضائع المكدّسة خلفها والتي لم أجردها بعد.

تشارك أنجلينا في الأغنية. ثمّ تنضمّ إليها الأخريات في جوقة: إنّهنّ جميلات، وسأحتفظ بهنّ، يا حارس الملك، إنّهنّ جميلات وسأحتفظ بهن...

ثمّ تبدأ الجوقة في غناء القرار: أوه، كم هنّ جميلات بناتك يا مداما دوريه، أوه كم هن جميلات...

وقفة قصيرة حيث لم تتذكّر أيٌّ منّا الكلمات، لكن أريا تحفظها عن ظهر قلب، وتكمل الأغنية: يطلب الملك واحدة، يريد أن يتزوجها... ولكن كيف ستلبسها يا حارس الملك... بالورود والبنفسج... خذ الأجمل...

تصيح الأم: يا له من هراء! لا يجب أن نغنّي تلك الأبيات، عادةً نقف عند فكرة وهي أنهن جميلات وسأحتفظ بهنّ. يا عزيزاتي. فالملك يتحرّش.

تنفجر أريا ضحكًا: الملك يتحرّش! الملك يتحرّش!

تصرُّ أديلايده: بالتأكيد! وإذا أردتنّ معرفة مَن بالتحديد سيلبس تلك الفتيات الجميلات، سألبسهنّ أنا.

- أجل لِتلبسيهنّ أنتِ يا ماما، فأنتِ مُصمّمة الأزياء!

يُصبح المزاج العامّ مرحًا. لكنّي، على الرّغم من المواضيع اللّطيفة، أعود إلى يأسي من جديد. أوافق على أن مارجريت ثريّة، ولكن هل سننجح في إقناعها بشراء ذلك المكان من جديد؟ لقد رفضته عندما كان في إمكانها الحصول عليه دون مقابل، لماذا ستفكّر في الأمر مرّة ثانية الآن؟ على الرّغم من كلّ المجهود الّذي نبذله، لا يزال متجرا قديمًا للأثاث المستعمل، ولا فائدة من إنكار ذلك.

لا يهمّ إذا كان قلبي يُحدّثني بأنّه ملكتي.

(28)

- وأين قابلتِ زوج حضرتكِ؟
نظرت إليَّ السيّدة داليا بذهول.
توقّعتُ أن تُشير هي إلى ذلك، لأنّ سُؤالي يبدو منطقيًا. لكنّها ربّما تفاجأت، فلم تعتدْ منّي السّؤال في الأمور الشّخصية. لأنّني أفضِّل البقاء على الحدود.

بناءً على طلبها، سلّمتها للتوّ ثلاث قطع نسيج طول الواحدة متر في متر، وكذلك أنبوبة تحتوي على ستّين مليليترًا من لون الزّيت الأصفر الفاتح، وواحدًا بلون أحمر الزينابار القاني، بنفسجي ميتاليك فاتح، أخضر، وريشة على شكل لسان قطّ. والآن تريد أن تقدِّم لي كوب كينا صغيرًا.
يكشف أحد خطابات دوروثي الأخيرة أمرًا عن زوجها أعتقد أنّها لا تعرفه، وحتّى الآن لا أعرف إذا كان من الصّواب الإفصاح لها بذلك. لهذا، أحاول أن أتحسّس طريقي. إنّه شعور غريب، وجديد تمامًا عليّ، أن أعرف الكثير عمّن أتحدّث معه. يزعجني بعض الشّيء، ولكنّه، في الوقت نفسه، يمنحني الأمل بأنّه ربّما أكون مفيدة.

- أين تقابلتِ مع زوجي يا فرحة؟
تردّد السّيّدة داليا بعد أن تجلس إلى المائدة: قولي لي أنتِ، أين نقابل الأزواج؟

- ليست لديّ أدنى فكرة، لو كنت أعرف، لربّما أصبح لديّ واحد الآن، شخص يمكنني أن أشاركه تصليح طاولة المطبخ...

تهزّ رأسها مستمتعة.

أعترف: في الواقع، لطالما فكّرت أنّني سأقابله في الشارع، تحت زخّات المطر، كما يحدث في الأفلام. ولكن على الرّغم من المرّات الّتي أتجوّل فيها في الخارج في كلّ عاصفة، لا يحدث هذا أبدا.

- يصل الحبّ في الوقت المناسب. ويمكن أن يكون في يوم مشمس أيضا، اطمئنّي. فالكوسة والشّمام يظهران في الموسم يا فرحة.

الكوسة في الخريف والشّمام في الصّيف، أعرف هذا. ولكن هل يصل الحب للجميع في اللّحظة المناسبة، أم قد ينفق المرء عمره كله في انتظاره؟ على فلك نوح صعدوا جميعا أزواجا؟ يبدو أنّ نوح يرى أن العدد المناسب للحياة هو اثنان. ماذا ستكون نهاية الأشخاص الوحيدين في الطوفان الكونيّ؟

أجيب: لأكون صادقة، على كلّ حال، أنا لا أعرف ماذا سأفعل بزوج. أكتفي بنفسي على حالها.

تبتسم بأسى: الإنسان ليس جزيرة منعزلة يا فرحة.

إذن، لماذا أشعر أنّني بعيدة كُلّ البعد عن الأرض؟ تمنّيت لو سألتها. لكنّني أقول: اعتاد أبي التأكيد على أنّه لدينا كلّ شيء في داخلنا، ولا نحتاج إلى الاعتماد على الآخرين، يكفي اعتماد الشخص على نفسه في جميع احتياجاته. يمكننا أن نصبح صديقًا، أو والدًا، أو مستمعًا مخلصًا، أو أي شيء آخر نريده، لأنفسنا.

- إذا كان الأمر كذلك، لَشَعرت أنا وأنت بأنّنا في حالٍ أفضل ممّا نحنُ عليه الآن، أليس كذلك؟

أبتسم لأُخفي حزني، حتّى وأنا أفهم الآن أنّه لا داعي للحزن. فالأشباه يتلاقون، هذا ما قالته لي السيّدة داليا منذ البداية، لقد عرفتني: كنتُ منشغلة بنفسي، إلى درجة أنّني لم إنتبه إلى أنّ للوحدة ملامح مميزة وواضحة تظهر عليّ، سواء من خلال التهتهة أم الطّريقة الّتي أتجنب بها نظرة الآخرين. حقيقة عدم امتلاكي أصدقاء حقيقيّين أو أهل، هي أمر فهمته على الفور.

تشكو السّيّدة داليا: حاليًّا، يفعلون كلّ شيء باسم الاستقلال. يتحرّرون من القيود بسهولة. إذا لم يعد شخص ما أو عمل ما يناسب أحدهم، يتركه دون الاكتراث بنتيجة ذلك، فسيكون هناك شيء آخر أو شخص آخر، ثمّ آخر أيضًا، وهكذا في دائرة لا نهائيّة. والقطار التّالي يعدنا دائمًا بأن يأخذنا إلى مسافة أبعد. ولكنّ الكمال محض سراب يا عزيزتي.

تفتح غطاء الكينا وتملأ الكوبين الصّغيرين، ثمّ تفحصني لترى تأثير كلماتها فيّ.

تمدّ لي كوبًا: في زمنٍ ما، كُنّا نُصلّح الأشياء المكسورة عشر مرّات قبل أن نتخلّص منها. كنّا نفعل ذلك بحب.

أنظر إلى الكينا تهتزّ بين حواف الزّجاج المُغبّش. أرتشف رشفة.

تُكمل هي: لم تكن الحياة قطّ مثل الأفلام، ولكننا اعتدنا أن نرضى.

يجري المشروب إلى أسفل بطيئًا، ويُحرق حنجرتي. أفكّر من جديد في الحصن، وفي الحب الّذي عرفته. حب يصلح كلّ شي، ولكنه كان متصلبًا وعنيدًا في إصلاح نفسه.

- وكيف يُمكننا أن نعرف يا سيّدة داليا أنّ العلاقة وصلت إلى طريقٍ مسدودة؟

تنظر إليّ بتركيز، ثمّ تُجيب بثقة: ستُخبرك العلاقة نفسها بذلك.

- بأيّة طريقة؟

- ستجد الطّريقة، يكفي أن تُنصت بانتباه.

أتذوّق المذاق المُرّ الّذي ترسّب في فمي، وأقول: بعض الأشياء وبعض الأشخاص لا يرغبون في أن يصلحهم أحد...

ربّما أبحث بذلك عن عزاء، أقول هذا وأنا أفكّر

في أبي.

تضع السيّدة داليا يدها على يدي: إذن، لا يُمكننا أن نفعل شيئًا.

أتنهّد في محاولة لإبعاد الحزن. هل أخطأت؟ هل أخطأ هو؟ هلّ لو كنت مختلفة لتغيّر شيء ما؟

- ولكن كنتِ تسألين عن زوجي...

تستعيد السيّدة داليا السؤال، فتنقذني من تلك الأفكار السوداء، بلا طريق للخروج.

- حسنًا، أنا الابنة التاسعة من اثني عشر ابنًا. كانت حياتنا في الحقول هنا من حولنا، حقول على مرمى البصر. كان هناك من له مستقبل، ومن، مثلي، له حقل. كبرت في السنّ، ولم أر سوى تلك الحقول.

تُحدّق بالكوب الصّغير، مُرتابة بشأن مُواصلة الحكي.

أريد أن أقول لها إنّ هذا لا يهمّ، حيث خشيت أن يعيد إليها ذلك ذكريات أليمة، أريد أن أطلب منها أن تُسامحني على سؤالي.

إلّا أنّها تكمل: حقيقة الأمر، أنقذني إينزو. مرّ علينا في أحد الأيام بالدراجة، ليبتاع لبنًا وأرزًا، وانتهى ذلك بأن أخذني أيضًا معه. كان طويل القامة، أسلوبه لطيف، يقدّم نفسه جيّدًا، ويتصرف بكياسة. اقتنع أبي به على الفور، قال لي: اذهبي، فهو يمسك بزمام الأمور. ثمّ وعدني إينزو

بالمدينة، وهكذا ذهبت معه.

أفرغت كوب الكينا في فمها دفعة واحدة. تقول دون أن تنظر إليّ: والآن أنا هنا.

أتخيّل إينزو شابًا بشارب وعينَين مُستديرتَين، جالسا باستقامة على مقعد دراجته، وحاملًا الأرز واللبن في حامل اللفائف، وخلفه تجلس شابة تعقد رأسها بمنديل.

تسكب داليا لنفسها مزيدًا من الكحول، ولكنّها لا تشرب على الفور: هيا، قولي لي خبرا جميلا.

أعلن: نحن محظوظات، اليوم لديّ خبر. مُستعدة؟

وبينما تمسح طرف عينيها بمنديل، تقول: مَن في مثل سنّي مستعد لكلّ شيء، وغير مستعد لأي شيء؟

- حسنًا! غدًا ستحضر مارجريت إلى العالم الجديد.

- أوه، يا إلهي.

وتضغط بيَدِها على صدرها: لم أتوقّع خبرًا كهذا على الإطلاق.

- استطعنا الاتّصال بها، وستأتي. وحضرتك لا بُدّ من أن تحضري لتتعرّفي إليها.

- أنا؟

أبتسم لها: ستكون في المتجر في الخامسة. لنتقابل

هناك، افعلي ذلك من أجلي، إذا لم ترغبي في فعله لنفسك.

أضيف قبل أن أنهض وأغسل الكوب في الحوض.

تهزّ رأسها: أوه، لا. لن آتي. لن أستطيع بالفعل...

أقترب من باب المدخل، أفتحه، أنظر خلفي: هيّا، إنّها فرصة نادرة.

تتنهّد هي، وتهزّ رأسها من جديد: كلّ الفرص نادرة، وإلّا لن تكون فرصاً.

تُحيّيني بإشارة من يدها، بينما أتمنّى أنا من كلّ قلبي أن تغيّر رأيها.

(29)

إنّه في المنزل. أسمعه يسير ذهابًا وإيابًا وينقل شيئًا ما، يجرّه على الأرض. هل يكون الواجهة الزّجاجيّة؟ سأمرّ في أقرب فرصة، هكذا كتبت له على البطاقة الّتي تركتها أسفل بابه مساء أمس. أنحني لآخذ حقيبة المثقاب الكهربائي من الخزانة المعدنيّة في الورشة. هل الصّعود وضرب الجرس في السّابعة من مساء اليوم التّالي سيكون مبكّرًا أكثر ممّا يجب؟ من جهة أخرى، مع العملاء، إمّا أن تذهب على الفور أو تكون متأخرا، وهو، حتّى يثبت عكس ذلك، سيكون كذلك: مجرّد عميل.

- إنّه مجرّد عمل.

أقول لنفسي وأنا أضبط حمّالات الأوفرول المفكوكة.

ألقي بنظرة على صورتي المنعكسة في مرآة الحمام. الكعكة الّتي جمعت فيها شعري تكاد تسقط، ولكن إعادة ضبطها لا يعني بالضّرورة تحسين الوضع. أتجاهل الأمر. لا أريد أن أبدو كمن مكثت نصف ساعة تجهّز نفسها. كلّ هذا، من أجل أن أركّب له واجهة زجاجيّة. سيكون أمرًا سخيفا.

أغسل وجهي ببقيّة صابون الورد. وأدعك أسناني بورقة نعناع، ثمّ أشطفها. أحاول الابتسام. قد لا يعجبني مظهري، ولكن هذا لن يغير

النتيجة: فهذه أنا. إذا أردت إصلاح نفسي، فلأصلح كلّ شيء، لذا لا يستحق الأمر البدء في ذلك. إنه مجرد عمل، إنه مجرد عمل، إنه مجرد عمل...

أمسك حقيبة المثقاب الكهربائي، وأتنفّس بعمق، ثمّ أصعد إلى الطّابق الأعلى.

أطرق، كما أفعل عادةً. فالجرس يُعطي انطباعًا بحالة طوارئ، ووجود أخبار سيئة. أمّا طَرق الباب فعادةً ما يكون أكثر لطفًا. ومن يطرق الباب غالبًا ما يكون جارًا، أو شخصًا حميمًا، أو شخصًا ليس في عجلة من أمره، يريد بعض الملح، أو أن تتذوق قطعة تورتة، أو بالكثير، يطلب منك خدمة.

عادةً مع المحاولة الأولى، لا أحد يُجيب تقريبًا. ولكن لا بُدّ أن أحاول مُجددًا، لأنّ هذا سيمنحني الوقت لأستعدّ. ولكن لا أحد يردّ حتّى في المحاولة الثّانية. بعد المحاولة الثّالثة، أفكّر في أن أستدير وأرحل. لكن مع المحاولة الرابعة، وبينما أتهيأ تقريبًا، في اللحظة نفسها، يصدر صوت متردد من وراء الباب: من أمام الباب؟

لكنّ اليوم، الأمر لا يسير على النّحو المُعتاد، فلا أكاد أطرق المرّة الأولى، حتى يُفتح الباب على مصراعيه، وكأنّه لم يكن ينتظر شيئًا آخر، وأشعر بأنّني انقلبت من حافّة برطمان. فاليوم بالتحديد كنت بحاجة إلى استعداد حقيقيّ.

على العتبة ظهر شابّ طويل القامة، يرتدي كنزة سوداء (لا داعي إلى أن يستدير لأعرف ما هو مكتوب على ظهرها: لا يمكن أن تمطر إلى الأبد) وبنطلون جينز، حافي القدمين.

ليس وسيمًا من الوهلة الأولى، فهو لا يشبه كاري جرانت أو بول نيومان في الأفلام التي كانت أمّي تجعلنا نشاهدها. لكن مع النظرة الثانية يكشف عن سحر بدائيّ. أنف كبير، وجبهة عريضة، وعينان متسعتان للغاية، وشفتان بارزتان: كلّ شيء في وجهه خارج المقاييس العادية، وكأنه وجه رسمه طفل. ينظر إليّ هو أيضًا، ببعض الدهشة، ممّا يعطيني انطباعًا بأنه شخص انفعالي.

هذا هو جاري، السائر ليلًا، كاتب تلك الرسائل وحامل الصناديق، وأنا أقف أمامه مثل لافتة طريق، عاجزة عن تذكّر أيّ شيء لأقوله.

- لا بُدّ من أنكِ...

- هذه أنا.

يبتسم: تفضّلي.

رُبّما يتسلّى بالطريقة التي أتحرّك أو أتحدّث بها. أشعر بالخجل. هل لا بد من أن أشعر بالإهانة؟ يتصاعد شيء كالتنميل على ذراعي، وأحاول تجاهله. أخيرا، سأتعرف إلى الشقة التي أتخيلها منذ أيام، وأحاول أن أضع تصميمًا لخط سير

ضوضاء سكّانها.

أتبعه إلى الدّاخل. يسير بثقة على أرضيّة الممرّ المصنوعة من حجر الرحى. الآن أفهم لماذا أسمعه بهذا الوضوح من شقّي. فقدماه تضربان الأرض، وكأنّ عليه ترك أثر في الإسمنت. يملأ مصباحان زينة قديمان، من الزّجاج المصنفر، المكان الطويل والضيّق بضوء خافت متقطّع. تكاد اللّمبتان تحترقان، من يدري منذ متى هما هنا، لكنّني لم أسأله.

الصّالة مزيّنة بشكل عشوائيّ، واقتصاديّ. بعض الأدوات تبدو قديمة منذ خمسين عاما تقريبا، مثل مصباح من زجاج مورانو يتدلّى من السقف، وبعضها الآخر عادي، مثل الأريكة والطّاولة المنخفضة والمكتب، تشبه الموجودة في المنازل المستأجرة للطّلبة.

بدلًا من الجوارب المتناثرة وعلب البيتزا وطفّايات السّجائر الممتلئة بالأعقاب، يتكدّس المكان بمعدّات غريبة: بطاقات تصنيف، وكتيّبات إرشاديّة، وأزاميل، وفرش كبيرة وصغيرة، تفوح منها رائحة الصمغ. على الرّغم من محاولاتي لإخفاء دهشتي، يبدو أنّني لا أنجح.

يومئ جاري بيده بطريقة شاردة، كأنّه يشير إلى كل شيء: المعذرة على الفوضى. أصابعه طويلة وقويّة، وتميل إلى اللّون القمحي.

أبتسم له: هناك من يصفون منزلي بِ «ورشة».

- إذن فنزلي معمل...

أستطيع أن أرى بوضوح بعض الحجارة والريش في فوضى وسط المنضدة، لكنني أحاول ألا أثبت نظرتي على أيّ شيء، حتى لا أبدو فضوليّة.

- سأطلعك على الواجهة الزّجاجيّة.

يقول وهو يسحب إلى وسط الغرفة تابوتًا زجاجيًا مقسمًا إلى عدّة أجزاء. ويشرح لي بنبرة مشكّكة: أرغب في تعليقها على الجدار. هل ستثبت في رأيك؟

أتساءل بماذا يجب أن يملأ واجهة كهذه، وماذا يقصد بمعمل، وهل لرائحة الصمغ دخل في هذا.

أطرق على الجدار الّذي أشار إليه، لأفحصه: إنّه جدار قوي.

- خبر جيّد؟

- بالنّسبة إليك نعم، لكن بالنّسبة إليّ سيّئ جدًا.

يطرف عينيه مستمتعًا: حقًّا؟

- يمكنني تعليق واجهة المرض، ولكنّ ذراعيّ سينخلعان من المثقاب.

- لن يريحني أن أتسبّب في أيّ أذى لذراعيك.

- لا تقلق، لقد تحمّلتا ما هو أسوأ من ذلك.

أحاول التّظاهر بأنّني لا أملك ذراعين، وأحاول إخفاءهما خلف ظهري أو إبعادهما عن النّظر.

- إذن هل ستُسدين لي تلك الخدمة الجليلة وتتولّين هذا الأمر؟ فأنا لا أجيد تلك الأشياء.

- في زمن ما، كان الأزواج هُم من يقومون بذلك، أمّا الآن فأنا موجودة.

يضحك: في زمن ما سأكون أنا الزّوج، أتخيّل.

ثمّ ينقل بصره لينظر إلى طرف قدميه الحافيتين، ثم يلاحظ أنني أحدق بصورة موضوعة على المنضدة، تظهر فيها بُحيرة زرقاء في وسط الصحراء.

يسألني: هل تعرفين «كواترو سينيغاس»؟

- لا يبدو لي...

- إنّها أربع بُحيرات، تحوّلت حالياً إلى حوالي مئتي عين من الآبار الزرقاء في وسط وادٍ صحراوي في المكسيك.

يُمسك الصورة فجأةً ليطلعني عليها عن قرب: إنّها أحد الأماكن البدائيّة على الأرض. بعض البكتيريا الموجودة هناك هي أقدم الكائنات العضوية الدّقيقة الّتي يمكن رؤيتها اليوم. هذه البكتيريا هي المسؤولة عن تحويل الأحماض اللاّمائيّة الكربونيّة إلى أوكسجين، ممّا أدّى إلى تحويل غلاف الأرض الجوّي من اللّون البرتقالي إلى الأزرق.

- النّقطة الزّرقاء الباهتة.

- هل تعرفين تلك الصّورة؟

- الأرض كما تُرى من المسبار الفضائي فوياجر 1. كرة صغيرة زرقاء في الفضاء الكوني.

أبرزت ملامحه المبالغ فيها تعبير الدّهشة. نظر إليّ باهتمام شديد أصابني بالإحراج، على الرّغم من محاولتي لعدم الانفعال.

سألني: وهل تعرفين نهاية القصّة؟

- هل لها نهاية؟

يومئ بالإيجاب، لكنّ تعبيره العابس يوحي بأنّ النّهاية ليست سعيدة.

- إنّ هذه البكتيريا، الموجودة هناك منذ مئات ملايين السّنين، قد نجت من كلّ أنواع التّغيرات المناخية، وخمس نهايات عالمية، لكنها لم تنج من الأنشطة البشرية.

أعاد الصّورة إلى مكانها: بدأ البشر في استخراج مياه كواترو سينيغاس بإفراط من أجل زراعة عشب طبي وتنميته. وأثناء القرن الأخير، كانوا قد جفّفوا تسعين بالمئة منها، ممّا أدّى إلى نتائج كارثيّة على الكوكب. وأصبحنا نقترب جدًا من نقطة اللاعودة.

يمرّر يده على شعره. أحاول أن أنظر إليه دون أن يلاحظ. لا بدّ من أنّ هذه الأفكار هي التي تسبّب له التوتّر ليلًا، أقول لنفسي بشعور مفاجئ من المشاركة والتّعاطف وعدم التصديق.

يتنهّد: لا بُدّ من أن نصل إلى فهم أنّنا جميعًا جزء

من النّظام نفسه، وأنّه آليّة هشّة وكاملة. فلكلّ شيء وظيفته. وتنفّس العالم هو تنفّسنا.

أشعر أنّه ينتظر منّي إجابة.

- أنا تقريبًا لا أذهب إلى السوبر ماركت.

هذا ما تفوّهت به.

نظر إليّ نظرة متسائلة.

- أقصد أنّني لا أؤمن بشراء الأشياء، أي بشراء الأشياء وإلقائها...

أتنفّس وأحاول التحدّث ببطء: كلّ منّا يمكنه أن يؤدّي دوره، يكفي أن نكتفي، ويكفي أن نتعاون. أنا أؤمن بالاقتصاد الدائري للحي.

يفحصني بعينيه، ويطلب منّي أن أشرح له كيف يعمل هذا بالضبط. أحاول أن أفعل ذلك بأقلّ عدد ممكن من الكلمات. ويبدو أنّه فهم حتّى قبل أن أنتهي، بدا أنّه فهم على الفور، ويؤيدني.

اختتم: إذن، إذا احتجت إلى بعض الخضروات يكفي أن أزورك.

- وأيضًا إلى لمبات، أو حاويات، أو صحف قديمة.

قال لي: تعالي، سأطلعكِ على شيء.

عندما اقتربنا من الطاولة، أخذ بين يديه حفريتين بدتا كصدفتين.

يشرح بفخر: رخويات Phylum Mollusca،

عثرت عليها في توشا. فأنا أريد أن أتخصّص في علم الأحافير الدّقيقة، فعلم الأحافير يدرس الأحافير المايكرو، ولكنني أتدرب على ما أجده.

ثم يشير إليّ حتى أتبعه إلى الرّدهة. تعطيني مشيته انطباعًا باستعجال ما، وكأنّ كلّ ثانية ثمينة وهو لا يستطيع فقدها. يفتح باب الحمّام الّذي يقع تمامًا فوق حمامي، كأنه انعكاس له. في البانيو، وضعت صناديق فاكهة بشكلٍ مرتّب، وفي داخلها حفريّات مبلّلة.

قال لي ليعتذر: إليكِ ما أفعل عندما لا أستطيع النوم.

أمامي الأسباب السّريّة للياليه المتّسمة بالأرق. كلّ تلك الحفريّات، أدوات المهنة، طريقته في العمل، كلّها أشياء بعيدة تمام البعد عمّا تخيّلته. لا يمكننا حقًّا معرفة أي شيء عن حياة الآخرين دون أن نضع قدمًا داخلها.

أقترح: يمكنك أن تستبدل قاع الصناديق بشبكة معدنية بسلك رفيع، مثل تلك الّتي يستخدمونها في أقفاص الحيوانات، وهكذا لا يتعفّن الخشب وتجفّ الحفريّات بطريقة أفضل.

يحدّق عينيه ويرفع شفتيه في ابتسامة: تصلحين لأن تكوني زوجة وزوجًا في الوقت نفسه.

- اعتدتُ الاعتماد على نفسي فقط.

أريد أن أعرفه أفضل، أن أعرف ماذا يأكل

على العشاء، وكم من الوقت يقضيه أسفل الدّوش، وإذا كان يغني، والكلمات التي اعتاد نطقها بشكل خاطئ في طفولته.

- وهل تعرفين أنتِ عمل هذا التبديل؟

- بهاتين الذراعين.

لوهلة، مكث كلّ منّا ينظر إلى الآخر دون أن يتحدث. ثمّ انفجرنا ضحكًا.

- إذن سأذهب.

قلت في النّهاية، وأنا أستدير نحو الممرّ.

مكث هو متردّدًا ثمّ قال: حسنًا.

وهو يفسح لي الطّريق نحو باب المنزل.

وجدنا أنفسنا على عتبة الباب. أردت أن أسأله أمرًا، ولكنّني لا أعرف صياغته بوضوح.

ولكنّه أخيرًا خرج منّي: هل تجذبك فكرة النّهايات؟

- بل يجذبني التّطوّر... من جهة اللّاعودة. إنّه يشبه تتبع آثار حياة شخصٍ ما لاكتشاف الأسباب الخفيّة لموته والتّساؤل: هل كان من الممكن تجنّبه؟ يهمّني الجانب الإيجابي من المسألة. وهو ما يبقى، على الرّغم من كلّ شيء.

يتوقّف، ربّما بسبب ردّ فعلي: هل يبدو لكِ ذلك غريبًا؟

- على الإطلاق.

ما يبقى. بعد الكوارث، ماذا يبقى؟ هذا هو الأهم حقًا.

أسارع بالقول: منذ فترة، وأنا لا أجد أيّ شيء غريبًا، على الأقلّ منذ أدركت أنّ الآخرين يعتبرونني غريبة.

- أفهم. ومتى حدث لك هذا للمرّة الأولى؟

- في سنّ الخامسة تقريبًا، عندما قابلت طفلًا آخر. ربّما في تلك الحقبة، كنت أظنّ أنّني أنا وأخي الطّفلان الوحيدان في العالم.

أومأ هو، فقد فهم بسرعة أنّها قصّة طويلة.

من نافذة المطبخ، ذي الباب الموارب، يتسلّل الغروب. أضاء اللون البرتقالي الرّدهة، فبدا المصباحان كأنّهما صدفتان على شاطئ في اللّيل. وتسربت قشعريرة إلى ذراعيّ.

- سأعود غدًا ومعي مقاس الخابور المضبوط.

عندما مررت بجواره شممت رائحة الصابون والورق.

أجابني: في انتظارك.

أثناء نزولي من على سلالم البناية، فرحت أنّني غيّرت لمبة البسطة، وشعرت برغبة في أن أخبره بذلك، ولكن لا يمكنني العودة لهذا الغرض. أكمل السير حتى الفناء، لأتنفس بعض الغروب، وأرتب أفكاري. أجلس على درج بجوار الدراجات المصفوفة في الحوامل. أتنفس وأنا

أرفع عينيّ نحو السماء المُقلّمة بالبرتقالي والوردي، متجاهلة كلّ شيء، بعيدة، إذا لم تلاحظ أنت وجودها. أشعر أنني بخير، وتمنّيت أن أخبر جاري بهذا أيضًا.

(30)

- لا بُدّ من أنّها هي!

تجمّعنا خلف الواجهة الزّجاجيّة، وتطلّعنا إلى الخارج. السّاعة الآن الخامسة إلّا عشر دقائق. سيّارة داكنة بسواق وبها راكب يجلس في المقعد الخلفي، تقف للتو على الجانب الآخر من الطريق.

أنظر إلى أديلايده فأجدها تنظر إلى أريا، الّتي تنظر بدورها إلى أنجلينا، الّتي تنظر هي الأخرى إلى بريشيللا، الّتي تنظر إليّ.

كلّ شيء معدّ. أحضرت أنجلينا تورتة مارجريتا، واتّفقنا معًا على كيفيّة ترتيب الأثاث. فكّرت أديلايده وأريا في التّفاصيل ووضعتا البضائع الأكثر تميزًا في الصّدارة، واهتمّتا بالتّزيين. وحضرت بريشيللا لتساعد في حالة طرح أيّ سؤال قانوني. لم تأتِ السّيّدة داليا، لكنّني ما زلت أتمنّى أن تأتي، فقد يكون تدخّلها حاسمًا بشأن قضيّتنا. ولأكون أمينة، سيكون حاسمًا بالنّسبة إليّ أيضًا. يكفي إحدى نظراتها المليئة باللوم الطيب، لتقنعني بأنه يمكنني عمل ذلك.

ينزل السّائق، ويدور حول السّيّارة ليفتح الباب الخلفيّ. أحبس أنفاسي. تنزل من السّيارة سيّدة ترتدي قبّعة بيضاء وتايير في زرقة البحر، يشبه ذلك الّذي ترتديه الملكة إليزابيث، تسير متكئة على عصا ذات قبضة فضّيّة.

يخفق قلبي وكأننا في قلب كارثة. أنا على وشك أن أقابل مارجريت، يجب أن أشرح لها بوضوح حتى أنجح في إقناعها. أن أحكي لها عن تجربتي. هل أحدثها عن أمها؟ لا أعرف حتى من أين أبدأ.

تُشير إليّ أديلايده بأن أقترب من العتبة لأستقبلها، ولكنّ ساقيّ تتحوّلان إلى خشب يأكله الدود، يُمكنني أن أتهاوى بين لحظة وأخرى، عندئذ تُمسكني بِذراعي وتصحبني هي.

وتسأل بِمجرّد أن تظهر أمامنا: السيّدة مارجريت؟

تُجيب بإيماءة خفيفة من رأسها: مساء الخير.

أبتسم وأنا أحاول أن أخفي انفعالي. لا أستطيع تصديق أننا حوّلنا الحلم إلى حقيقة. فمارجريت هنا.

- أنا جيا.

أقول، بأكثر الطّرق المُمكِنة وضوحًا.

لا أعرف لو أمُدُّ لها يدي أم لا، ولكنّي في النهاية، أنحني انحناءة خفيفة. تبتسم هي، فأطمئن قليلًا.

- تعرّفت إلى دوروثي منذ بضعة أعوام.

أقول بينما أنظر إلى أديلايده لتترجم: كانت هذه مملكتها.

أتراجع خطوة إلى الخلف لأفسح لها المجال

لِتَدخل. وتتراجع أيضًا أنجلينا وأديلايده وبريشيلا.

- إنّه مكان جميل.

تُعلّق مارجريت، وهي تنظر حولها. وتلمس أباجورة طويلة من النحاس.

أشرح بفخر: احتاج الأمر إلى العمل حتّى نستعيد الشّكل الأصلي للمتجر، ولكنّنا مسرورات لأنّ الأمر يستحقّ ذلك العناء.

تومئ موافقة: بالتّأكيد يا عزيزتي.

- أولئك هم: أديلايده، أنجلينا، بريشيلا، وأريا. وأشير إليهنّ الواحدة تِلوَ الأخرى.

- كان عملًا جماعيًا.

تبدأ أديلايده في الشّرح: المكان حاليًا معروض للبيع. اشترته شركة عقارات من وسط المدينة، لا علاقة لها بالحي، وستبيعه لأفضل عرض تتلقّاه، سواء كان مركز مراهنات أم سلسلة محلّات تيك أواي، أم متجرا لبيع الهواتف الجوّالة...

- ممم، فهمت.

يبدو على مارجريت الضّيق: الحال نفسه في لندن. تتوسع المدينة نحو الأطراف، وعلى الأشخاص الخروج دائمًا إلى الخارج، فازدحمت الشّوارع بأماكن بلا روح...

لم أتوقّع ذلك النّوع من الحساسيّة من سيّدة بهذا

الثّراء، ولكنّني تخيّلت أنّها ورثته عن أمّها. رفعت مارجريت جرسا هشا من الزجاج، موضوعا على أحد الأرفف، وبعد أن نظرت إليه، أعادته إلى مكانه.

أهمس: بالتأكيد دوروثي وضعت روحها في هذا المكان.

أحاول أن أضيف شيئًا مؤثّرا، لكنّني أخفق. أشعر أن مارجريت شاردة. تشير إليها أديلايده نحو الصالون الّذي أعددناه. الأريكة الصّغيرة لها، وبعض المقاعد حول المائدة المنخفضة لنا. في وسط المائدة توجد تورتة أنجلينا، وأبريق شاي ساخن، والفناجين الخزفيّة المصمّمة على الطّراز الإنجليزي.

بمجرّد أن جلسنا جميعًا، ساد الخجل. لا بدّ من أنّ مارجريت غير مستريحة تمامًا على الأريكة، حيث تغوص قليلا داخلها، تحاول أن تحتفظ بظهرها مستقيما بالاستناد على عصاها. تجلس أنجلينا على طرف المقعد وساقيها متقاطعان مثل الأميرة كيت. وتجلس أريا في حضن والدتها الّتي تقدّمت إلى الأمام حتّى لا تفوتها كلمة واحدة من الحوار. أمّا بريشيللا فقد جلست مبتعدة قليلا، دون أن تترك أيّ تعبير يظهر على وجهها، ربّما يعود ذلك إلى طبيعة عملها.

أسكب الشّاي في كلّ فنجان محاولة تثبيت يدي، وأفكّر من جديد في دوروثي، وأنّها فعلت

الشيء نفسه اليوم الّذي عرفتها فيه. الجوّ كان مريحًا أكثر بالتأكيد آنذاك، ولكنّه جميل أيضًا الآن.

أنطلق في هجومي بصوت واضح: أمّ حضرتك غالبًا ما أعدت الشاي لعملائها، في إحدى المرّات أعدّته أيضًا لي.

- أمّي؟

- دوروثي.

أحدّد، وأنا أقدّم لها الطّبق الصّغير بقطعة التورتة.

تضع مارجريت الطّبق على المائدة. تتفحّص وجوهنا بتعبير مشكّك: ولكنّني لست ابنتها.

- كيف؟

تُحدّق بها أديلايده مصدومة، وقد نسيت أن تترجم لنا ما استطعنا جميعًا تخمينه.

تُكمل مارجريت وهي تنظر إلينا مُشكّكة: لم يكن لدوروثي أبناء.

نبقى ساكتات كأنّنا تجمّدنا.

- تزوّجت دوروثي من أخي أمي، لوك فريمان، في عشية الحرب العالمية الأولى. كانت عائلتنا عائلة عريقة وأمّ خالي لوك، جدّتي من جهة أمّي، لم تقبل دوروثي قطّ، وهي سليلة عائلة من النّبلاء السّابقين. ولكنّ المشكلة الحقيقيّة ظهرت عندما

اكتشفوا أنها لا تستطيع الإنجاب. طالما تمنّت دوروثي ابنة، وليس فقط لكي تنجب، ولكن لأنّ الجميع انتظروا منها ذلك. ولكن بعد أعوام من المحاولات البائسة تركها خالي من أجل أخرى، نجح في أن يجعلها تحبل. كان ظلما سائدا في تلك الفترة: يغفرون كلّ شيء للرّجال، ولا يغفرون أي شيء للنساء.

تعود إلى ذهني فقرات من خطاب دوروثي الّذي تروي فيه هروبها، والّذي يحمل معنى جديدا في ضوء ذلك الكشف.

- لا أتذكّر متى رحلت الخالة دوروثي، كنت صغيرة للغاية. في الواقع يمكن القول إنّها لم تعرفني قطّ. كانت تصل أخبار عنها من حين إلى آخر: أنّها أفلست، أو أنّها وحيدة، وأنّها لم تستقر قطّ... وفي النّهاية أنّها فتحت محلّا لبيع البضائع المستعملة في إحدى ضواحي ميلانو أو ربّما في روما.

لا تستطيع أيّ منا التّفوه بشيء، ولا أن تجرح مشاعرها. نضع الفناجين حيث فقدنا أيّة رغبة في احتساء الشّاي.

- عندما أبلغوني أنّني ورثت منها ذلك المتجر الصغير في منطقة جنوب ميلانو، لم أرغب في قبوله. فقد قلت لنفسي إنّه سيكون بالتّأكيد مكدّسا بالدّيون، وماذا يا ترى خلف هذا؟ لهذا السّبب رفضته دون حتّى أن أراه، أو أتحرّى أو حتّى أهتمّ بالمسألة. الآن أنا هنا، وأرى أنّه مكان

ساحر، بالتأكيد يعكس امرأة مليئة بالحيويّة والانطلاق.

تبتسم لنا: أشعر بالتأثر أنكنّ هنا، وأنكنّ تتمسّكن بشدّة بملجأ خالتي، وأنكنّ ترغبن في «إنقاذه» بأي ثمن. وأشعر بالتأثر لأنكن اتصلتن بي.

أنظر إلى أنجلينا وأديلايده وأريا وبريشيللا الجالسات ساكتات على المقاعد طراز بروكاتو، الفناجين الأنيقة أمامهن، ما زال البخار يتصاعد منها، والتورتة الموزّعة على الأطباق الصغيرة، وأشعر بالخجل، رغماً عني، من سذاجتنا.

تشرب مارجريت رشفة شاي، حتّى لو بدا أنّها لم تكن ترغب في ذلك. ثمّ تجرؤ: هل لديكم نقطة ويسكي لتمنحه بعض المذاق؟

تصيح أنجلينا، وقد نهضت بالفعل: سأذهب بسرعة إلى «اللاشيء» لأحضر بعضه.

ننتظر بصمت حتى تعود. دقائق كاملة أسرح فيها بنظري في محاولة لتجنب نظرات الأخريات. لماذا إذن شعرت دوروثي باحتياج إلى أن تتوجّه لابنة ليست لها؟ هل مع كلّ الأشياء التي حاولت أن تملأ بها العالم الجديد، ظلّ هناك فراغ لا بد من ملئه؟

استقبلنا بارتياح عودة أنجلينا.

- أفهم وأقدّر ذلك الذي بنته خالتي.

تجيب مارجريت بعد أن رشفت بعض الشاي

بالكحول، وأنا أخشى أن أعرف إلى أين تذهب بهذا.

وتختتم: إلّا أنّني للأسف لا يُمكنني عمل شيء من أجلكن.

أضغط على الإوزّة الخزفيّة في جيبي. تقتلني ثقة مارجريت بنفسها. من دقائق معدودة كنت فخورة بهذا المكان، والآن أراه مجرد متجر قديم، حتى وإن كان في الماضي يعني شيئاً لأحدهم، فإنه الآن لا يعني أيّ شيء.

بعد أن أنهت الشّاي، وضعت مارجريت الفنجان على المائدة الصّغيرة. يسمع صوت الخزف في الصّمت. أتخيّل الصوت وهو يعبر الطريق وينتشر في الحيّ كلّه.

تسألنا ببراءة تبدو أصيلة: لماذا لا تبتاعونه أنتن؟ فأنتنّ شابّات ولديكنّ مشروع مُشترَك.

نحن؟ بلا أيّ مليم، وكلّ منّا لديها مشكلاتها... ليس لدى أديلايده حقّ الجهد لِتُترجم إجاباتنا المعقّدة.

تضغط الدّموع لتخرج، لكنّني أصبها إلى الدّاخل. أفكّر في السّيدة داليا، وأقول لنفسي إنّه من الأفضل أنّها لم تأتِ. أنقذت نفسها من الإحباط.

- على كلّ حال، أريد أن أوصل تلك إلى حضرتك.

أضيف وأنا أعطي لمارجريت خطابات خالتها. ليس بغرض أن تكون شعلات لِتُغذّي حماسها، بل نوع من المواساة.

تأخذها مارجريت بامتنان: اعذروني فلديّ رحلة طيران تنتظرني.

أثناء رحيلها، أراقبها عبر الواجهة الزّجاجيّة، مُتمسكةً بالأمل، الّذي لا يمكنني الإفصاح عنه، بأن تلتفت وتقول إنّها فكّرت في الأمر من جديد. تتقدّم بِبطء، والعصا تلمس الأسفلت، خطوة تلو الأخرى. أربعة أمتار، ثلاثة، اثنتان... تصل إلى السيّارة، ويفتح لها السّائق بابها، ويساعدها على الصعود. تختفي السيّارة في نهاية الطّريق. مارجريت حاسمة. مارجريت ليست ابنتها. مارجريت رحلت.

- ماذا رأيتم، شبح؟

تدخل حرير على صوف المتجر بطريقتها المُتعجّلة، وكأنّها تفكّر في المكان التّالي الّذي عليها أن تَجري نحوه، لا تعلم شيئًا عن موعدنا، تمسك المحمول بِيد وحقيبتها في الأخرى.

أضم كَتِفَيّ: المتجر مليء بها.

تُجيب بحيوية: مُمكِن ألّا تحكي هذا لأيّ مُشترٍ، هذا ما ينقصنا. بخصوص هذا، نظرًا إلى أنّه لدينا أكثر من شخص مهتمّ بالشراء، قررنا طرح المتجر في المزاد، مزاد خاص. إنّها طريقة لرفع السعر.

ستكون العروض في أظرف مُغلقة، وستُفتح في الشركة أمام محاسب. سنفعل ذلك خلال خمسة عشر يومًا. الوقت اللازم لنبيع تلك البضائع ونُفرغ المكان بالكامل. ثم يبدأ الجميع حياة جديدة.

(31)

كان مستقبل الآخرين جميلًا جدًا، هذا ما ذكرته الكتب. يعيشون دون أن يفكّروا حتّى يشير إليهم القدر، كما يحدث في وسط غابة كثيفة فيجدون المدقّ الصحيح. حيث تشير إليهم الحياة: من هناك. حينئذ يتبعون الطريق، ويجدون أنفسهم محامين، أطبّاء، علماء، مدرسين، ممرضين، طبّاخين، سائقين، حائكين أو صانعي ألعاب. أحرار في العالم.

كان مستقبلي مكتوبًا بالفعل، ولكنّه كان بسيطًا، سأمكث في الحصن إلى الأبد. قرّر لي أبي هذا، وهذه الفكرة كانت مطمئنة، فليس علي الاختيار والمخاطرة بالفشل، وأن أجد نفسي وحيدة تسحقني الظروف، كما أشعر الآن.

سبق وتدرّبت على ظروف قصوى، وكوارث عالمية. لكن ليس على فشل من هذا القبيل: فلم يكن أيّ مشروع شخصي في الحسبان.

لا أعرف تحديدًا كيف يُمكن أن يكون ردّ فعلي. لا أعرف ماذا أفعل. انتهت مغامرة المتجر عند هذا الحدّ. كان يمكن أن تؤدّي إلى شيء لكنّها انتهت إلى لا شيء. كل تلك الأشياء الرّائعة ستلقى، وإذا سار الأمر بشكل جيد، ستباع، أمّا المحل فسيتحوّل إلى صالة مراهنات أو إلى مطعم هامبرغر سيئ الجودة. أماكن تأخذ

من جيوب النّاس ونفوسهم دون أن تمنحهم أيّ شيء في المقابل.

أضع بجامتي الأنعم، وأغلق باب المدخل بالمفتاح أكثر من مرّة. أكتب رسالة إلى أنجلينا أخبرها فيها أنّني لن أستطيع استضافة أوجينيو هذا المساء لأنّني لست بخير، ثمّ أطفئ الهاتف. لم أفعل ذلك قطّ من قبل، في ظرف عامّ. ولكن ما الصّحبة الّتي يمكن أن أكونها في هذه الحالة؟

أشدّ نفسي تحت الغطاء، ومعي علبة البسكويت ماركة رويال دانسك الّتي أهدتها لي في عيد الميلاد زوجة فيكوبريلو. تعيدني رائحة الزبدة وجوز الهند المألوفة إلى الزّمن الّذي اعتادت فيه أمّي أن تشتريها لي في عيد ميلادها. كان أبي يسمح لها بذلك لأنّه كان عيدها. تترسّب في أعماقي فكرة أنّني سأعود طفلة عندما أفتح ذلك الغطاء، ولهذا احتفظت بالعلبة لشهور خلف الأريكة. أرانا من جديد في الحصن، نجلس أمام المدفأة، في إحدى لحظات السّعادة المشتركة، بينما تمطر في الخارج. كانت لحظات اعتقدت فيها أنّنا بالفعل لدينا كلّ ما يلزم لنعيش منفصلين عن كلّ شيء آخر، وأنّه لن يكون لي أيّ مستقبل في العالم، ولكن فقط معهم.

والآن، وأنا مختبئة في الفراش وعلبة الرويال دانسك بين يديّ، ينتابني شعور مماثل. فأنا غير موجودة ما لم يرني أحد. لدي مؤن تكفيني

لأسابيع. سأمضي الوقت في النّسيان. والقِلّة الّتي تعرفني بالخارج ستنساني.

أمس للبسكويت «أهلًا» بعد أن أرفع عنه الغطاء. من بين كلّ أنواع رويال دانسك، أفضّل المثقوبة تلك. أقول إذن «سأبدأ بكم»، قبل أن أنتقل ذهنيًا لأستعرض سلسلة الإحباطات في الآونة الأخيرة.

دون حتّى أن أدرك، ألتهم سبعة. تقبع الورقات الّتي احتوتها، مكوّمة على الكومودينو الواحدة داخل الأخرى. يمكن أن تصبح صوانًا أو مهدًا، أو موائد صغيرة في منزل أريا للدمى. منزل الدمى! سأنهيه، وعندئذ سأتركه لها أمام الباب ليلًا، وداخله الدميتانَ اللّتان عثرت عليهما في الطّريق، وقد غسلتهما ووضعتهما في مكانهما. ستكون مفاجأة جميلة. على الأقلّ سأتمكّن من رسم الابتسامة على شفاه أحدهم.

تُشير ساعة الحائط إلى التّاسعة، ولكن لماذا يجب أن أعرف؟ عاد وقتي حلزونيًا، ليس لديّ ما أنتظره. غرست أسناني للتو في بسكويت على شكل بريتزل، عندما سمعت أحدهم يطرق الباب، طرقتين، ثمّ صمت، ثمّ ثلاث طرقات.

صوت أديلايده: جيا؟ هل أنت في الدّاخل؟

فكرة أنّها تبحث عنّي توقظ داخلي شعورًا محبّبًا، ولكنّني لا أريد الإحساس به: إذا انجرفنا خلفه

فنحن ضُعَفاء، وأنا قرّرت أن أنعزل عن العالم، وأن أنفصل عن كلّ شيء. أجبر نفسي على أن أكمل المضغ، دون أن أهرع لأفتح الباب. أقول لنفسي هذا النوع مقرمش أكثر من النوع الآخر، وأحاول التركيز لتذوق المذاق الناعم للزبد.

يجيء صوت أديلايده قلقًا: جيا؟ جيا؟ هل أنتِ في المنزل؟

أدرك أنّ النور مُضاء في حجرتي، المطلّة على الفناء، وأتساءل إذا لاحظت أديلايده هذا. ربما في كلّ الأحوال أكون خرجت في عجلة لعملٍ ما، أو نمت، ونسيت أن أطفئه. يعود الصمت. أنتظر.

ماذا أنتظر؟ يبدو أنّ أديلايده قد رحلت. أشعر بانقباضٍ في معدتي. ماذا كان يجب عليّ أن أفعل؟ فأنا التي لم أفتح لها. لم يعد هناك مصير مُمكن، أو مشروع قد يجمعنا. فنحن مختلفتان جدًا، وليس لدينا أي شيء يربطنا.

أترجّل عن الفراش، لأذهب إلى المطبخ بحرص حتّى لا أتسبب في أيّ ضوضاء، كما كنّا نفعل في التدريبات الليليّة مع أبي. لقد كان أبي مقتنعًا أنّ الآخرين سيدركون بعد الكارثة على الفور أننا نملك طعامًا وتدفئة وأدوات اتّصالٍ وملجأً آمنًا والأدوات اللازمة للنجاة، وأنهم سيهاجموننا. هكذا، في الفترة الأخيرة، دربنا مرّة في الشهر على الأقلّ، على التحرك في المنزل في الظلام التام

دون أن يسمعنا أحد.

في المطبخ، أفتح الخزانة العلويّة، وآخذ زجاجة سان كولومبانو، أنزع الغطاء وأحملها معي إلى غرفتي. أضع شفتيّ مباشرةً على عنق الزّجاجة ولا أتوقف، سوى للتنفس، حتى أفرغ نصفها في فيّ. ثم أطفئ النور، وأتمدد على ظهري في الفراش، وأحدق بالسّقف الّذي تخدشه الأنوار المُتسلّلة عبر النّافذة.

من حين إلى آخر، أفتح عينيّ وأغلقهما. ترسم الأضواء خربشة تتوالى وتتحوّل. أريد البقاء هكذا إلى الأبد، مثل جزيء بدائيّ منفصل عن كلّ شيء آخر، وكأنه يطوف في الكون. أتخيّل نفسي أتحرّر في الهواء، منطلقة دائمًا إلى أعلى، أخترق المجال الجويّ الّذي تحوّل إلى اللّون الأزرق بفعل بكتيريا كواترو سينيفاس، الأرض الآن مجرد نقطة نائية. أبتعد أكثر حتّى تختفي. أنا الآن في الظّلام البدائيّ.

عدت إلى تناول البسكويت من جديد: انتهيت من البسكويت على شكل البريتزل، والبسكويت المستدير، والآن على وشك الهجوم على البسكويت المُستطيل، وعندئذٍ أسمع صوت الجرس.

أنظر إلى السّاعة، إنّها العاشرة وخمسة وأربعين. قضيت ما يقرب من ساعتين في تناول البسكويت والتّحديق في الفراغ، وقد ابتلعتني أفكار مظلمة، بلا هدف. الجرس والصّمت. لا

صوت وراء الباب هذه المرّة. أستنتج أنها ليست أديلايده. بل تروفيو، بالتأكيد، هو لا يتحدث، لكنّه لم يأتِ إلى منزلي من قبل، فما الدّافع وراء مجيئه اليوم تحديدا؟

أمكث لأستمع. الجرس يدق من جديد. ليس لديّ القوّة لأتحرّك. حتّى لو حدث شيء ما، فسأكون منهكة إلى درجة أنّني لن أستطيع التصرّف والمساعدة. لماذا لا يفهم أحد أنّني أنا أيضًا، في بعض الأحيان، أحتاج إلى مساعدة؟

يعود الصّمت. أعتقد أنّني أسمع أحدهم ينزل أو يصعد السّلالم، لا أستطيع التخمين. أفكّر فجأة، هل يبحث عني جاري؟

أعود مرّةً أخرى لأشرب، ليس هذا وقت الخيالات. إنّه مساء الأحد، وسيكون لديه ما هو أفضل للقيام به بدلًا من الاهتمام بي، أو بالحوابير لمثقابي. لأكون صريحة، لا أشعر برغبة في القيام بهذا العمل. يمكنه بالتأكيد العثور على شخص آخر. كلّ شيء يمكن استبداله، وبالتأكيد أنا أيضًا، بمنزلي المكدّس بالنفايات، وقلبي المُستعد دائمًا للكوارث.

يبدو لي النّبيذ لاذعًا أكثر من المُعتاد، وشعورٌ بالألم يقبض على معدتي. تبدأ خيالات السّقف ترقص كأنّها تتحدث بلغة لا أعرفها. رأسي يدور، ونقاط الارتكاز تهرب منّي. أشعر بي أغوص إلى أسفل. أتنفّس بعمق وأسحب نفسي إلى أعلى.

الفناء منير بالبدر في السّماء. يبدو منظراً سينوغرافياً. الفتى الساكن في المنزل المقابل لي، يدخن ويطل من النّافذة. الطّبيبان الشابان منهمكان في تنظيف المنزل. قطُّ السيّدة القاطنة في الطّابق الخامس، سلم B، ذلك القطّ الضّخم ذو العينين المُضيئتين، يجلس متوجاً في التّراس. ويوجد أيضاً الزّملاء المُوظفون الّذين يعيشون بمصاريعهم مواربة.

في الحصن عندما أفتح النّافذة تتسلّل رائحة العشب والأوراق، أو الزهور، أو الطّين المبلّل، أو الثّلج. ماذا أفعل هنا؟

يبدو لي أنّ أحدهم يطرق من جديد على بابي، بخفة. أتقدّم بضع خطوات في الردهة لأسمع أفضل. تُشير الساعة نحو الحادية عشر ونصف. أجل أحدهم يطرق الباب. يطرقه بصوت خفيف، كأنه الهمس. لا يصلني أيّ صوت آخر سوى ذلك: توك توك. من جديد.

لم يبحث أحد عنّي كثيراً كما حدث هذا المساء! فجأةً أنا موجودة، وأصبح باب شقّتي مَدخَلاً حقيقياً، يبحث النّاس عمن في داخله. كان سيكون خبراً جميلاً لو أمكنني الاستمتاع بهذا. أشرب رشفة من النّبيذ، وأسترق السّمع. توك، توك. فوق أسمع خطوات جاري.

أشدّ نفسي حتّى غرفة الورشة، وأمسك بالقلم.

تمايل أمامي الورقة المرسوم عليها زرافات. أغمض عيني، وأفتحهما من جديد. أستند إلى طاولة العمل بيدي مبسوطتين. أحاول التركيز. ربّما إن آجلًا أم عاجلًا سأذهب إليه بالخوابير المناسبة. وربّما لا. هذا هو ما يجب أن أقوله.

الزّمن كاتب بارع. يجد دائمًا النّهاية المُناسبة.

شارلي شابلن

أتأكّد من ثقب التلصّص من عدم وجود أحد على البسطة قبل أن أفتح الباب.

- أخيرًا!

أعرف جيّدًا الكائن الصّغير الّذي تحدَّث، ولم أتوقّع أن أراه واقفًا على البسطة: لم تكن أريا طويلة بما يكفي لتدخل في مجال الرّؤية من ثقب التلصص.

تمدّ الطّفلة يدها لأمسكها: ماما تبحث عنكِ منذ مدّة! تعالي!

- أريا...

لا تُسعِفُني الكلمات. أشعر بشيءٍ رطبٍ على رموشي.

من غير الطّبيعيّ أن أرفض، لكنّني عنيدة. لا أريد خداع نفسي أو خداع أحد.

أجيب بصوت مُتقطّع: لا يُمكنني الآن. سأمرّ عليكما يومًا آخر.

- ربّما يكون لدى أمّي حلّ لإنقاذ المتجر! لا بدّ من أن تأتي!

أهزّ رأسي بحزن: سأظلّ دائمًا صديقتكما، لكن لا أمل في موضوع المتجر. فالمدينة تجري في اتّجاه محدّد، ولا يمكننا منعها.

أقول ذلك وكأنّها يمكنها أن تفهمني.

تُسقط ذراعيها جانبها وتنظر إليّ. لقد أحبطُها.

- إذن، سلام.

تقول، قبل أن تستدير وتصعد لتبتلعها السّلالم.

أمكث مُجمّدة وأنا أنظر إليها. في يدي البطاقة الّتي كتبتها لجاري. فكّرت أن أصعد وأمرّرها له من أسفل الباب، يا لها من فكرة سخيفة. إنّه مجرّد عمل. قلت إنّني سأصعد هذا المساء ولم أصعد. لا أعرف إذا كان هو من دقّ عليّ الجرس ليتعجّلني. على كلّ حال، سأذهب غدًا ومعي الحوابير، هذا ينهي المسألة.

ولكن عندما عدت إلى المنزل دعست ورقة. ورقة على عتبتي، ولكنّني عندما فتحت الباب قبل قليل لم أرها.

(يمكنك أن تتأخّر، لكنّ الزّمن لن يفعل ذلك).

بنجامين فراكلين

(32)

منذ أن بلغت السّابعة من عمري، ظلّ أبي يقودنا أنا وأخي معصوبي العينين، مرّة واحدة في كلّ فصل، إلى مكان مجهول وبعيد في الغابة المحيطة بالحصن، في كلّ مرّة مكان مختلف، ويتركنا هناك. ويترك لكلّ منّا ليترًا من مياه الشّرب، ومصباحًا يدويًا، وغطاءً حاجزًا للحرارة، وأربعة شرائط طعام للطّاقة، ومطواة سويسري. كان علينا العثور على الطّريق إلى المنزل من خلال قراءة إشارات البيئة المحيطة بنا.

كان يشرح لنا: يُمكن للبوصلة أن تتحطّم أو أن يسرقها أحد منكم، لكن إذا عرفتم كيف تقرأون إرشادات الطّبيعة، فلن تضلّوا الطّريق أبدًا.

كان يؤكّد لنا في كلّ مرّة أنه سيُراقبنا عن قرب دون أن نراه. وأنه سيتدخّل في حال وقعنا في أزمة حقيقية.

في إحدى صباحات يناير، بعد رحلة ميلانو ببضعة أشهر، انزلق أندريا من على صخرة مغطّاة بالطحالب، والتوى كاحله بطريقة خاطئة، وظلّ مسحوقًا تحت ثقله عندما سقط، وصرخ من الألم، ولم يستطع النّهوض. فجلس على بساط الأوراق الجافّة الذي كان يغطّي الأرض الرّطبة، وأخذ قدمه بين يديه.

انحنَيت فوقه: هل أنت بخير؟

على الرّغم من أنّ عمري وقتها لم يتعدَّ الثّانية عشرة، فقد كنت قادرة على مواجهة أغلب حالات الطّوارئ المُمكنة: تسمم الغاز، والنّزيف، والجروح السطحيّة أو العميقة، والتجمد، والأمراض المُفاجئة، والصّعق الكهربائيّ، ولسعات الثّعابين، وقرص الحشرات: وبلا شكّ الكسر أيضًا.

- هل يمكنك تحريك قدمك؟

- أجل.

أجاب أخي دون أن يحاول. كان وجهه قناعًا من الألم.

أصرّيت: هل تستطيع؟

الظّلام يسود الغابة، وسحابة محمّلة بالأمطار تطفو فوق رأسينا. في اللّيلة السّابقة هبّت عاصفة.

فردّ أندريا ساقه، ونظر إلى قدمه في حذاء السفاري ذي الرّقبة، محاولًا تحريكها من جهة إلى أخرى.

- أكرهك!

صرخ بعزم ما فيه رافعًا قبضتَيه إلى أعلى، وكأنّه يتحدث مع إله: ولكن لم يكن لنا سوى إله واحد فقط، هو أبونا.

أكمَلَ وأنفاسه مُتهدّجة، ومُستديرًا نحوي.

- يجب أن نذهب من هنا.

أجبته: أجل، لنذهب إلى المنزل.

خمّنت أنّه يقصد شيئًا آخر، ولكنّني تمنّيت أن أكون مخطِئة، ربّما كان مجرّد سبابًا.

همس: ليس إلى المنزل، لا بدّ من أن نهرب يا جيا.

- ماذا تقول...

أردت أن أثبّت كاحله، ولكن كانت يداي ترجفان.

- لنعد إلى المدينة، إلى الجدّة.

أجبته: لا تقلق. أنا هنا معك.

حتّى وإن سرَت في ظهري قشعريرةٌ، فقد كنت خائفة لأنّني معه، ولم أنتبه إلى ذلك سوى في تلك اللحظة. لم أحتمل حتّى فكرة ألّا نعود إلى المنزل. أحببت المدينة، وأحبّ أخي أيضًا، ولكن لا يمكنه أن يرغمني على الاختيار.

بحثت عن فرع يصلح لحالتنا، وبينما أبحث حولي تمنّيت أن ألمح أبي. تخيّلته خارجًا من خلف شجرة ما، ومسرعًا نحونا لينقذ أندريا ويضمّني إليه ويقول: أنا موجود ولا يجب أن أقلق على شيء، وكلّ شيء سيسير على ما يرام. سيكون الأمر مثل الاستيقاظ من كابوس، واكتشاف أنّنا كنّا أسفل دفء الأغطية، في أمان. وعندئذ لن يبقى لدينا أيّ دافع للهروب، وسيكون دليلًا على أنّنا سعداء مثل العائلات

الأخرى، وأنّ أخي كان يهذي فقط، وأنّه يُمكننا البقاء، ولسنا مجبرين على الاختيار.

- أبي؟

ناديت أكثر من مرّة، ولكن لم يصلني ردّ سوى صخب الأمطار التي بدأت تهطل، وأنين أندريا.

- أبي؟

صرخت مرّة أخرى، في وجه الأشجار والسّماء.

اندفع أخي: توقّفي عن ندائه! أنتِ تعرفين أنّه لن يأتي! فهو غير موجود.

هل كنت أعرف؟ ربّما ليس بعد، ربّما أُجبرت على إدراك ذلك في تلك اللّحظة. فأبونا لا يتبعنا في الغابة، ولا يسهر علينا. إذا استطعنا العودة إلى المنزل أم لا، يعتمد الأمر على قدرتنا. هل فعل ذلك حتى لا يجد نفسه وقد استسلم وساعدنا؟ رُبّما. هل ليقوّينا ويضمن لنا النّجاة في حالة الكوارث؟ ربّما. لكن هل هذا حبّ؟

كفى، قلت لنفسي، حتّى وإن استمرّت الأسئلة تعصف برأسي، بينما أندريا يردّد أنّ علينا الاتّجاه نحو طريق البلدة، مهما كان، علينا العثور عليه ثمّ الذهاب بلا عودة.

نزعت الوشاح، وثبّتُّ به فرع شجرة في عظمة قصبة ساقه، صرخ، ولكنّه تركني أكمل. كان منزلنا بعيدًا، ولم أكن أعرف في أي اتّجاه. أخذت من الأرض فرعًا آخر، وأعطيته لأندريا

ليستخدمه كعصا. كُنّا مفقودين في مكان غير محدد في الغابة، ولكنّنا سنهتدي إلى طريقنا.

- لنذهب.

قلت وأنا أضع ذراعه على كتفي: استند إليّ.

أصبح عليَّ فقط أن أحدّد الاتّجاه الّذي يجب علينا السير فيه. بدأت الآن تُمطر بغزارة. إذا كانت الغابة تمتدّ على شمال الحصن، يكون منزلنا جنوباً. لنعثر عليه، يكفينا مراقبة الظلّ الّذي يعكسه جسدنا على الأرض، لكن للأسف لا أثر للشمس في السماء. أردت أن أفحص أوراق الأشجار - فالأجزاء الكثيفة المُرتفعة عادةً ما تتّجه جنوباً - واتّباع أجزاء الحجارة الأكثر نظافةً، من الجانب المُقابل للمستنقع.

استمرّ أندريا في الإشارة إلى نقاط بعيدة، مُشجعاً إيّاي على البحث عن طريق البلدة. أحاول التركيز. أمام عينيّ لا أرى سوى مياه ودرجات من اللّون البنّي. من حين إلى آخر أتعرّف إلى إشارة ما، نقطة سبق أن مرَرنا عليها، ولكنّني لم أستطع الرّبط بين الإشارات لتكوين خطّ سير.

أثناء ضمّي أندريا، فكّرت: إذا متنا سنموت معاً، لن أكون بمفردي، أخجلني هذا. فكّرت: إذا هجرنا منزلنا لن ننجو. لن ننجو بلا أوامر، وبلا ضمان وجود شخص يفكّر أن يقوّينا كلّ يوم. ومع أوّل

كارثة سنتهاوى.

ثمّ خطرَت على ذهني صورة أمّي من جديد وهي تفحص خواتمها في ظلال الحجرة، وكذلك «العالم الجديد» في المدينة، وطريق البلدة. إذا استطعنا السّير لمدّة أطول بطريقة أو بأخرى سنصل. كنّا بالتأكيد سنلفت الأنظار، صبيّان بلّلتهما الأمطار تمامًا، ووحيدان، معهما حقيبة ظهر معدّة للبقاء على قيد الحياة، وكاحل مكسور ومربوط بفرع شجرة ووشاح، ستصل إلينا الشّرطة وسنكون مجبرين على التّفسير. لكن كيف يمكننا تفسير تصرفات أبينا؟ فهو بقميصه المربعات، يدرس جداول معقّدة لينقذنا، إنّه يريد خيرنا، ولكن هذا لن يفهمه أحد سوانا.

فجأةً تراءى لي ضوء الحصن من بعيد، وانتهى وقت الاختيار.

همستُ لأخي، وأنا مُستمرّة في دعم وزنه بذراعي: وصلنا إلى المنزل، إنّه القدر.

ردّد هو، بينما يرتجف من الألم: القدر فعلًا. القدر الّذي قررته أنتِ لنا.

هرعت أمّنا لتقابلنا على العتبة: هل أنتما بخير؟ سألتنا وهي تضمّنا بقلق، ثمّ سألت أخي: ماذا حدث لقدمك؟

رفع كتفَيْه، ثمّ التفَتَ نحوي بنظرة عدوانيّة لن أنساها أبدًا.

ينتظرنا أبي جالسًا إلى مائدة الغذاء، علَّق: رائع، لقد عدتما.

صرخ فيه أندريا: خاطَرْنا بألّا نعود، كان يمكن أن نموت!

أجاب هو بنبرة هادئة: لنفكّر الآن في كاحلك.

وفي النّهاية أضاف بصوت منخفض: الحياة هي دَفع الموت قليلًا إلى الاتّجاه الآخر.

بدا يتحدّثُ مع نفسِهِ وليس معَنا.

(33)

السّاعة الآن الخامسة وخمس دقائق فجرًا، ولم أغمض عينيّ بعد. أنهيت البسكويت. واشتغلت في منزل الدمى، والصالون والمطبخ والحمّام وغرفة النوم، وصممت أيضا غرفة لتكون ورشة، وبنيت كل الأثاث بأغطية الزّجاجات، وقطع من البوليستر، ونفايات أخرى، ولكن ثمّة تفاصيل أخرى يجب الانتهاء منها.

منذ ساعتين، وأنا ألقي بنظرات خاطفة على الهاتف المغلق على الطّاولة أماميّ. هذه الأداة لطالما أهملتها، وقصرتها فقط على العمل، تكتسب الآن فجأةً قدرة عجيبة على جعلي أتساءل في قلب اللّيل، ترى من حاول البحث عنّي؟

أتوقّف عن المقاومة. أشغله فتمتلئ الشّاشة بالإشارات: سبع مكالمات. اثنان من رقم ليس مسجلًا لديّ، وخمس من أنجلينا. لا بد أن شيئًا ما قد حدث. أكتب لها على أمل أن أكون مخطئة. ربّما وضعتِ الهاتف في الحقيبة دون أن تغلقه جيدًا، فبدأتِ المكالمات عن طريق الخطأ؟

وفي أقلّ من دقيقة اتّصلتْ: جيا، منذ أخبرتُ أوجينيو أنّه لن يستطيع الذّهاب إليكِ، وأنا أنتظره في «اللاشيء»، لكنه لم يأتِ بعد. وفي المنزل، ترك لنا ورقة قال فيها إنه يفضّل الذهاب إلى مكانه، عن الحضور إلى حانتنا، لكنّه لم يشرح

المزيد. جيا، أنا لا أعرف أين ذهب! ولا أعرف ماذا أفعل!

لم أسمع صوتها بهذا الذّعر من قبل. إنّها مرتجفة، ومضطربة، وغير متماسكة بالمرة.

أجيب، وأنا أحاول أن أطمئنها: لا تقلقي، سترين أنّه سيعود.

ولكنّي أعرف جيّدًا جدًّا أنّ عدم وجود أوجينيو معها هو خطأي. ألعن نفسي. كيف استطعت أن أخون موعدنا؟ نحن لسنا جزرًا، ولا نعيش فقط لأنفسنا. ألكي نُهدهد آلامنا، نتسبّب في الضرر لمن حولنا!

تعود أنجلينا إلى البكاء بهدوء: لم تواتني الشّجاعة لأتّصل بالشّرطة، لا أريد التّفكير في الأسوأ. هل يخطر على بالكِ أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

أفكر: أجل يخطر على بالي. ويمكنني أن أُشير إلى المكان تقريبا بكلّ تأكيد.

أعترف: أعتقد أنّني أعرف.

أودّ لو استطعت أن أخبرها بالمكان، هكذا يمكن أن تذهب هي لتبحث عنه، ولكنّي وعدت أوجينيو بأنّني سأحفظ سرّه تحت أي ظرف. ولن أخونه الآن بالتّأكيد.

- أنجلينا، أنا...

بدا وكأنّها توقّفت عن التّنفس، ثمّ همست: لا تقولي لي إنه وقع في كارثة؟

أجيب على الفور: لا، لا أعتقد هذا بالتأكيد. الفكرة أنه...

وأكاد أن أقول لها، ولكنّي أوقف نفسي في الوقت المناسب: دعي لي هذا الأمر، سأذهب للبحث عنه وأخبرك.

أختتمُ، على الرّغم ممّا يعنيه هذا: أين يُمكن أن يذهب أوجينيو؟ ببساطة في ما وراء الحدود. خارج الحي.

قبل أن أندم على ما قلته، أودّع أنجلينا وأنهي المكالمة.

أسأل نفسي: ماذا إذا كان قد حدث له شيئًا؟

ثمّ أحاول أن أهدأ. يجب أن أعثر عليه في أسرع وقت. أرتدي ملابسي بقدر ما تسمح به الظروف وأخرج. إنّه الفجر والهواء منعش، ولكن ليس باردًا. ليس كأيّام الفجر المعتادة في شهر مايو. أفكّر برعب في بكتيريا كواترو سينيغاس. فأثر هزّة جناحي فراشة يمكن أن يتسبب في إعصار على الجانب الآخر من الكوكب. إنّ أنفاس العالم هي أنفاسنا نحن...

أعرف أنّه كان يجب عليّ، إن عاجلًا أو آجلًا، عبور الخطّ الخفيّ الّذي يفصلنا عن باقي المدينة. في مستقبل قريب، غير محدد، ربما في حياة أخرى، هذا ما فكّرت فيه، ولم أكن مستعدة لعمل ذلك الآن.

أعرف الطّريق، يكفي أن أعبر الجسر الصّغير وصولًا إلى الكنيسة، ثم أسير بمحاذاة القناة وصولًا إلى وسط المنطقة، بمجرد أن أصل إلى الطّريق الدائري أبحث عن موقف الأوتوبيس. قد يبدو ذلك سهلًا، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ. فكم مرّة صارعت فيها رغبتي في الرّجوع. أنظر خلفي، إنّه كلّ ما لدي. لكنّني أقول لنفسي، هذا ليس حقيقيًا، فلدي أيضًا أوجينيو. لدي صديق، ويجب أن أعثر عليه.

وصلتُ إلى المحطّة المركزيّة منذ خمسة أعوام، ليس معي سوى حقيبة ظهر وسرير نوم. سرت حتّى منزل جدّتي، دون أن أرفع عيني عن الأرض، إلّا مرات معدودة لأقرأ أسماء الشوارع. كنت أتمنّى ألّا يلاحظني أحد، وهذا ما حدث، حتّى أشار طفل في إشارة مرور إلى حقيبة الظّهر وسألني إذا كنت عائدة من رحلة كشافة.

- تقريبًا.

كنت في حالة خوف، حتّى أمام طفل صغير.

- وهل قضيتِ وقتًا ممتعًا؟

- تقريبًا.

لم أعثر على إجابة أفضل.

هل قضيتِ وقتًا ممتعًا؟ لقد كانت تلك حياتي حتّى هذه اللحظة. لم أتعرّف إلى ما يمكن للمرء

فعله سوى ذلك. شعرت لحظتها، بثقل كبير يجثم على صدري إلى درجة أنني تنفست الصعداء عندما ذهب الطفل في اتجاه مختلف عن اتجاهي.

دون أن أخطط لأي شيء، وصلت إلى مدخل مسرح لاسكالا. كم مرّة حكَتْ لي أمي أنها ذهبت إليه في طفولتها! في الحقيقة، طالما تخيلته مسرحاً عظيماً، إلّا أنّ الواجهة بسيطة، والمبنى من الخارج أصغر بكثير ممّا توقّعته. لكنّني كنت متأكّدة أنه يتلألأ من الدّاخل، وكم تمنيت أن أراه. كم تمنّيت رؤية الذّهب، والمخمل الأحمر، والنّجف الضخم الّذي يتدلّى من السّقف، وكذلك خشبة المسرح، والصّالة المكدّسة بالمتفرّجين، والأصوات المنتشرة بصداها الّذي يداعب صدرك، والأزياء الوهميّة والمبهرجة أو الكئيبة، والأوركسترا الّتي تتحرّك في تناغم...

كنّا نستمع أنا وأمّي في الحصن إلى ماريا كالاس تغنّي في عروض: أرميدا، والتركيّ في إيطاليا، وآنا بولينا وماكبث، وميديا. كنّا نستمع إلى كالاس أكثر من الآخرين، لقد كانت صاحبة التأثير في أمّي، الّتي كانت تراها رائعة وتنسى بها آلامها.

وفي ذلك اليوم أمام مسرح لاسكالا همستُ في ذكرى المرات الكثيرة الّتي وعدتني بها أنّنا سنذهب معاً: ماما، أنا أمام المسرح الآن، ولكن أين أنتِ؟

وفي النّهاية، وصلتُ إلى مياه النافيليو، وهدأت.

لا بدّ أنّني اقتربت من بيت جدّتي.

الآن أجدُني تقريبًا في المكان نفسه، والسّاعة قد تجاوزت السّادسة والنّصف صباحًا. بدأت الحركة تنتعش على الطّريق الدّائري، والسيّارات تغيّر اتّجاهاتها. يرفع أصحاب المقاهي السّدائل بملل.

عرفت الخطّ والمحطّة، وها هو الأوتوبيس يقترب. فجأةً، أدركت مدى بلاهة فكرتي؛ فكيف سأعرف على أيّ أوتوبيس صعد أوجينيو؟

- هل قرّرنا؟

تضايق السّائق من نظراتي الفاحصة، ربّما يتعجّل للذّهاب إلى المحطّة الأخيرة، ليترجّل عنه بعد دوريّة اللّيل.

الخطّ يعمل أربع وعشرين ساعة في الأربع والعشرين ساعة، كما شرح لي أوجينيو.

أعتذر وأصعد على متنه. ينطلق الأوتوبيس فجأةً مجبرًا إيّاي على التّشبث بالدرابزين حتى لا أقع. يتكوّن من هيكلين متّحدين بجزء أكورديون من الكاوتش، وينطلق كالسّهم على الطّريق السّريع، بينما يهتزّ الصّفّ الطّويل. أمّا أوجينيو فليس هنا.

المدينة سلسلة من اللّافتات النّظيفة والمغبرة في ما وراء النّافذة الصّغيرة. أعرف أنّ الخطّ يعبر الطّريق الدّائريّ كلّه، فالطّريق الدّائريّ عبارة عن دائرة كبيرة حول وسط المدينة. وفي نهاية

الخطّ، يكفي عبور الطّريق لتغيير الاتّجاه والعودة إلى الخلف. خطرت لي فكرة: سأنزل في المحطّة وأنتظر هناك، وأفتّش كلّ أوتوبيس يتوقّف لي، سواء إلى هذا الاتّجاه أو الآخر، لأتأكّد من أنّني لن أفقد أوجينيو.

لم أكن أعرف أنّ عليّ حجز المحطّة أو السّائق، وأن على المارّة الإسراع بالفعل، ففيه يقفز الكثيرون، نظرًا إلى أنّ المنتظرين كثيرون. عندما أنجح أخيرًا في النّزول، أجد نفسي بعيدة عن المكان الّذي صعدت منه، والسّاعة قد تجاوزت السّابعة. والمرور في الشّارع الكبير بدأ يتكاثف. أجد أمامي فندق لجمتين، ومطعم برجر كينج. وخلفي بقّالة صينيّة، ومتجر أدوات كهربائيّة. يمكنني أن أجد اتّجاهي في أيّ غابة، أمّا المدينة فالأمر مختلف. إنّها تفتقر إلى ذكائها الخاصّ والبدائيّ. إنّني أشعر بالضّياع، وأفقد نقطة الارتكاز.

ماذا لو لم أجد أوجينيو؟ ماذا لو أصابه شيء؟ ماذا لو عاد إلى المنزل وتصرّفت أنجلينا بتهوّر؟ ماذا لو تسبّب خطأي... ها هو الفزع يصيبني، ودقّات قلبي تتسارع. أحاول التّركيز على الحافلات الّتي تتوقّف أمامي. أشغل ذهني بقراءة الإعلانات الملتصقة على جانب كلّ واحدة، وأعدّ الثّواني الّتي تظلّ فيها ساكنة قبل أن ترحل مرّة أخرى، وأخترع أسماءً للسّائقين: كارليتو، ديميتري، سعال

جاف، ساندرو، جوليلمو، ماسترو ليندو...

أشعر أنني أصبحت أفضل. ولكن مرّت أكثر من ساعة، وتوقّف أكثر من عشرين أوتوبيسا ولا أثر لأوجينيو. من أحد الأوتوبيسات، تنزل سيّدة ضخمة محمّلة بالأكياس، وكأنّ حياتها بأكملها بداخلها. جلست على أريكة معدنية بجواري لتريح قدميها المتورّمتين بشدّة، وبدأت تتحدث مع نفسها.

ثمّ فجأةً، في الأوتوبيس الّذي توقّف أمامي، وبين النّاس المتجهة إلى عملها، أشاهد عدسة آلة تصوير. يخفضها أوجينيو، ويحدّق فيّ مُندهشًا. فها نحن الواحد منّا أمام الآخر. في اللحظة الّتي أوشَكتُ فيها على العودة إلى المنزل والاتّصال بالشّرطة، ها هو خلف النّافذة الصغيرة، وتتدلّى من عنقه آلة التّصوير الّتي أهديته إيّاها.

أقفز إلى الأمام لأتمكّن من صعود الأوتوبيس معه، قبل أن تغلق الأبواب. نحن في مكانين متقابلَين، أفسح لنفسي الطّريق لأصل إليه. بمجرد أن أقترب منه يبتهج، سعيدا برؤيتي بِشحمي وعظمي لا مجرد سراب.

يصيح بحماس وراحة: جيا! أنتِ على الحافلة!

ويلتقط لي صورة.

كنّا في غاية القلق! أرغب في أن أقول له، لكنّني لا أستطيع.

لا أنسى أنّني السّبب في وصولنا إلى ذلك الوضع. لحسن الحظّ أنّه بخير، ولا يبدو لي أنّ شيئًا خطيرا أصابه. بل يبدو مثل تلميذ في رحلة.

أقول عندئذ، متأبّطةً ذراعه: أوجينيو، لنعد إلى المنزل.

- جيا، انظري إلى الخارج.

يجيبني مشيرًا إلى النّافذة الصّغيرة بعينين لامعتين.

أرى حديقة صغيرة، ومحلّ تخفيضات ضخم، ومحطّة بنزين، وبنايات متراصّة. أرى أناس، أناس كثيرة بلا أسماء. إذا توقّف الزّمن ومَنحني صورة لتلك اللّحظة، لكنت أطلقت عليهم أسماء بالتّأكيد، ونسجت لهم قصصًا، لأشعر أنّني قريبة منهم، ولأحوّلهم إلى أشخاص حقيقيّين.

يمكن أن أسمّي السّيّدة الجالسة أمامي، بشعرها المثبّت بمشبك، والطّفل على ساقيها: إيطاليا. والصّبي السّمين، الّذي يرتدي قيصا ضيقًا، ويحاول أن يختفي ليساعد الجميع على المرور: خبز أبيض. والفتاة الّتي تحمل حقيبة الحاسوب على ظهرها وكعبها مرتفع: الرافعة.

ولكنّ الزّمن يجري سريعًا، وهم يتتابعون بلا توقّف، كلّ منهم مشغول في حياته.

يضغط أوجينيو على معصمي: إذن، كيف سار الأمر مع مارجريت، هل ستعيد فتح متجرك؟

متجري؟

- أوجينيو، لننزل ونعد إلى المنزل.

- متى سيُفتح من جديد؟

يسأل بنبرة أمل، حتّى وإن كان قد خمّن ما حدث: ألم تأتِ؟

- بل جاءت، لكنّها ليست ابنة دوروني. لم يكن لدوروني أبناء، ولن تساعدنا.

أخبرتُه بكلّ شيء، وكأنّ الأمر لا يخصّني، لكنّ أوجينيو لا ينخدع، يتنهّد وهو يلقي نظرة على السّائق: ولكن هذا كان يسعدك.

أنظر أنا أيضًا إلى السّائق، وأريد أن أطلب منه أن يأخذ الطّريق السّريع ويحملني بعيدًا، أريد أن أشعر بنشوة السرعة، والجري بلا توقف إلى مكان بعيد، وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم.

- أوجينيو، لنعد أدراجنا.

- ولكنّي لا أريد العودة إلى «اللّاشيء»، لا أطيقه. أكره رائحة الطّعام، وأكره البقاء هناك، ساكنًا، خلف منضدة البيع، أراقب الزّبائن. أكره الموائد المتّسخة، والفتات أسفل الأحذية، والخزانة، وبقايا الطّعام في سلّة المهملات، والأكواب وعليها آثار الشفاه، والدّلو وبه المسمحة المتّسخة. وأكره، بالأخصّ، رؤية أبي ماريًا خلف المنضدة ليشطف فمه، وأكره، أكثر من كلّ هذا، نظرة أمّي المتعبة، الّتي يجب أن تحملها. بالنّسبة

إليّ، هذا المكان هو الجحيم!

يلتفت إلينا بعض الأشخاص، لكننا لا نهتمّ. لا بدّ أن نتحدّث الآن، وإلّا فلن نتحدّث أبدًا، لا بدّ أن نتحدّث في فوضى المدينة لأننا لن نستطيع ذلك في صمت منزلي.

- أنا أيضًا فكّرت في لحظة ما...

ولكنّي توقّفت، لا أستطيع هذا.

- حاوِلْ أن تتحدّث بصراحة مع أبوَيك. عبّر لهما عن حلمك، إن عاجلًا أو آجلًا سيفهمان.

- أنتِ حياتك سهلة! لا تحتاجين إلى مراعاة أحد. عائلتك لم تعد موجودة.

عائلتك لم تعد موجودة. قالها بخفّة صبيّ هرب من المنزل في سن الثالثة عشرة. لم يقلها ليجرحني، لكنّه تسبب في ذلك.

في الواقع، أنا التي لم أعد موجودة بالنّسبة إليهم، أريد أن أقول له ذلك، لكنّني أترك نظري ينزلق على النّافذة الضّبابيّة بعض الشّيء، أخلق مسافة مع كلّ شيء في محاولة للبحث عن مكان آمن، بداخلي. ربما يكون المكان الوحيد.

(34)

مرضت أمّي في صمت.

نظرًا إلى أنّها كانت تقضي أغلب وقتها راقدةً في الفراش بسبب نوبات الصداع، وتغلق المصاريع، وتضع قطعة مبللة على عينيها، فقد استطاعت أن تخفي عنّا ألمها الجديد شهورا. اكتشفنا فيما بعد، أن مرضها بدأ بألم بسيط في البطن، وبعض التقلّصات القوية التي تداهمها ليلا. ثم بدأت هذه التقلّصات تزداد وتصبح أكثر حدّة، إلى درجة تُجبرها على كتم أنفاسها. لكنّها، في كلّ مرّة تبوح فيها بآهاتها، تقنع نفسها بأنّها لن تتكرّر ثانية.

إعتقدتُ أنّها أكثر حزنًا من المعتاد. لا تجد دافعًا تنهض من أجله من الفراش، ولا حتّى مشاركتنا الأكل والوقت، أو الرسم، أو سماع الموسيقى. في بعض الأمسيات، بينما أراقبها خفية، ساورني الشكّ أنّها تتمنّى بشتّى الطُرق أن تصل النّهاية الملعونة، مرّة واحدة وينتهي كلّ شيء. حتّى تتحرّر أخيرًا من ثقل الانتظار، وحتّى يكون لديها دليل على أنّ حياتها لم تذهب سدى.

عثرتُ عليها في ظهيرة أحد الأيّام، التي كان فيها أبي وأخي في الغابة يقطعان الحطب، منكمشة على نفسها في الفراش، تغرس يديها في معدتها، وتصرخ وتبكي، متقلّصة، ومتيبسة كحجر.

في لمح البصر، تحوّلت كلّ تصرّفاتها الغريبة

في الأشهر الماضية إلى قطع بازل سهلة الجمع والتركيب. جسدها المتقلّص، والّذي تصدر عنه تشنّجات، أفزعني. ربتّ على ظهرها وشعرها وكتفيها وساقيها، حتّى هدأت قليلًا.

ثمّ همستْ: ساعديني.

لقد قضيتُ الأعوام الثّانية والعشرين الأولى من حياتي، أستعدّ للكوارث. لكن كان من الصعب بمكان، أن أتوقّع مصيبة كهذه. كبرتُ بفكرة أنّنا خالدون لأنّنا نستعدّ لذلك.

على الكومودينو، لاحظت، بجوار المُنبّه، هَوْنًا داخله خليط قاتم من الأعشاب. فهمت على الفَوْر أنّ أبي يعرف، وتلك طريقته في علاجها. فبدأت أرتجف.

كنت قادرة على قيادة سيّارة أبي الباندا بِلَون ورق السكّر، حتّى وإن لم أكن قد قدتها سوى بضع كيلومترات بطول الطريق الممهّد الّذي تعبره حقولنا. لكنّني لم أكن أعرف أين توجد أقرب مستشفى، ولم يكن أمامي أيّ اختيار.

إصلاح جسد معطوب ليس كإصلاح الأشياء. أثناء الساعات الطّويلة الّتي حجزوا فيها أمي في صالة العمليّات، ظللت أكرّر على نفسي تلك العبارة: ليس عملًا يمكننا القيام به، كان خارج إمكانيّاتنا. كان لا بدّ من التعهد به لآخرين، ولحسن الحظّ كان هؤلاء موجودين. تصرّف موظفو المستشفى

بسرعة وعجلة، ولم يرفضنا أحد.

كنت أسير ذهابًا وإيابًا في غرفة الانتظار التي ينيرها المصباح النيون. اتصلوا بأبي من المستشفى، صرخ، ثم طلب التحدث إلي، صرخ مرة أخرى ثم أغلق الخط. من حين إلى آخر أنظر إلى خارج النافذة لأرى إن كان سيأتي، ولكن بلا فائدة.

عندما أحضروا أمي إلى الجناح، جلست بجوارها. رأيت شرخًا خفيفًا في السقف، أردت لحظتها أن يكون لدي سلم وبعض البياض لأعيد طلاءه. الآن أعرف أنه يجب علاج الشقوق على الفور.

فجأة، همست أمي وعيناها مغلقتان: أنتِ وأندريا يجب أن ترحلا فورا.

وكأن الصوت لا يصدر عنها، ولكن من مكان سري في قلبها، مكان خفي، حتى هي لم تكن تعرف شيئًا عن وجوده: أنا وبابا سنعرف كيف نهتم بأنفسنا. سنتصرف.

- ماذا تقولين يا أمي؟! سرعان ما سنعود إلى المنزل وسنكون كلنا معًا.

- لقد مكثنا معًا بما يكفي. بل أكثر مما ينبغي. وماذا ربحنا من هذا؟ النتيجة أنكما، لكي تتركا منزلنا، عليكما بالهروب. أجل، لا بد أن تفعلا هذا. لا بد أن تفعليه من أجلي، أنا التي لم تستطع ذلك. لقد تحول حلمنا إلى كابوس، وتحولت

رغبتنا في الحرّيّة إلى قيد... إلّا أنّ أباك لا يُدرك ذلك. إنه الآن بعيد جداً، بعيد بعد السنوات الضّوئيّة. لم يعد معنا. وليس في أيديكم شيءُ لتفعلاه لإنقاذه. أقسم لك، لا بد أن تصدقيني. لا شيء. ولكن على الأقلّ يمكنكما إنقاذ نفسيكما. كوني قويّة يا جيا، فأنتِ تستطيعين ذلك. لديك العديد من الخصال الرّائعة. أنتِ مستعدّة لمواجهة العالم، حتى ولو بدا لك عكس ذلك.

توقّفت، ولم أكن أعرف إذا كانت ستضيف شيئاً آخر. مكثت في انتظارها، وقلبي يكاد ينخلع، والشّعور العبثيّ بأنها تتحدّث معي من وراء القبر، يتملّكني.

أكملت: سيكون نوع من الموت، ولكنّ الموت جزء لا يتجزّأ من الحياة. العالم في الخارج، ينتظرك. إنه موجود من أجلك. لا يمكنكِ الاكتفاء بالنّظر إليه من النّافذة. كلّ دقيقةَ تعيشينها في العالم ستكون مكثّفة وثمينة. يمكن أن تكون مؤلمة، ويمكن أن تعرّضي للمخاطر، ولكن لن يكون هذا سوى إثبات أنّك على قيد الحياة. وهدف الحياة هو أن نحياً لا أن نخاف.

ضغطتُ على يدها، آملاً في أن تفتح عينيها. فعلت ذلك، رفعت جفنيها ورأتني، ربّما للمرة الأخيرة، رأتني بما أنا عليه في الحقيقة، كما استطعت أنا أيضا رؤيتها أخيرا على حقيقتها.

إذا كنّا أدركنا ذلك في الوقت المناسب. إذا لم

يتبع أبي علاجًا بديلًا. إذا كنّا أخذناها قبلها إلى المستشفى... ولكن في الحصن كانت الافتراضات مختلفة.

اعترض أخي، وهو يحفر الأرض بعنف: لو بقيت في البيت، لنجت.

كان يرتدي حذاءً برقبة، وقميص أبي القديم والشاحب. وبدأ هو الآخر يطلق لحيته مثله. من يوم مغامراتنا السيئة في الغابة، انغلق أكثر على نفسه. كأنّه انطفأ، ولكنّه يعدّ نفسه للصراع. توقّف عن انتقاد أبينا، ولم يعد يعرض علي الهروب، بل بدا مستسلمًا لواقع أنّ طريقة حياتنا هي الطريقة الوحيدة الممكنة. الآن، لا بدّ أنّ موت أمّنا قد زوده بالدّليل القاطع.

- كانت أمّنا هي من طلبت منّي أن آخذها إلى المستشفى.

حاولت أن أمسك ذراعه بيدي، ولكنّه أفلت منّي.

- لكنّها لم تكن تعرف ماذا تريد.

- بالتأكيد، لأنّها كانت تتألّم بشدّة. تتألّم من شهور. لقد فعلنا الاختيار الصواب.

- لقد فعلت الاختيار الأسوأ. لم تعد ماما موجودة، والخطأ خطأك.

صارعت بكلّ كياني كي لا أصدّقه، لكي لا أسقط في الفخ. فثقل الذنب كفيل بأن يسحقني

إلى الأبد. تنفّست بعمق وسحبت دموعي إلى الخلف. لقد وثقنا من الطّبّ، وفي الواقع، توجد وجهات نظر لا نهائيّة، ووجهة نظري ستقلّ قيمتها عمّا نشأت عليه: فكلمات أبي ليست قانونًا. خمنت ذلك في ميلانو، في خبرتي الوحيدة بعيدًا عن الحصن، ولكن في تلك اللحظة بالتّحديد، تعلّمت قبول ذلك.

لو كان أخي قد رأى أمّي في المستشفى، لو كان أتى ليودّعها، لو كان استطاع مساعدتها والاستماع إليها كما فعلت أنا.

- المرض معاناة، ولكنّ المستشفى كانت الموت.

قال أندريا، وهو يكرّر ما سمعه منذ قليل من أبينا.

دافعت عن نفسي: كانت هناك إمكانيّة لإنقاذها.

- إذن، لماذا لم يفعلوا هذا؟ سأكشف لك السّرّ: المستشفيات أنظمة اقتصاديّة. الشّخص الحيّ يشغل فراشًا، وبالتّالي يكلّف مالًا. ليس في مصلحتهم إنقاذه.

لم أرغب أن يسيطر عليّ الفزع، ولكنّني شعرت أنّني على وشك ذلك. قناعات أخي تفزعني: أندريا، ماذا تقول؟

- كان لدى ماما سرطانٌ لا يمكن شفاؤه،

اعترفوا بذلك. ألم يكن من الأفضل أن نهتمّ نحن بها، حتّى النّهاية؟

- صعبٌ شفاؤه لأنّه اكتُشف متأخّرًا أكثر ممّا ينبغي. نحن لسنا أطبّاء. إلّا أنّهم هناك خفّفوا من آلامها. استعادت وعيها، وكانت أفضل... إذا كنّا اكتشفنا مرضها مبكّرًا، ربّما كانت الأمور ستسير على نحو مغاير. ألا تدرك ذلك؟

بدا أنّه لا يدرك ذلك، بدا أنّه لا يُدرك ذلك على الإطلاق. أصبح كالجدار.

أصرّ: خدعَنا أبي عن عمد. جعلنا نمكث في الظّلام، وأقنعها هي الأخرى أن تكذب علينا. نزع عنّا وعنها فرصة الاختيار.

مكث أندريا صامتًا للحظة، وهو يحدّق إلى الأرض الّتي يحفرها.

- ما زلتِ طفلة.

أكّد هو في النّهاية ببرود، وكأنّه ينتقم منّي، لأنّني لم أطعه في ذلك الصباح، في الغابة منذ اثني عشر عامًا. وكأنّه منذ تلك اللّحظة تخلّى عن كل شيء، حتّى عن حُبّه لي.

أصررْتُ: أمّي تحدّثت معي في المستشفى، ووعدتها بأنّنا سنرحل من هنا. سنفعل ذلك في الغد. ستحمينا هي من حيث تكون، إنّ هذا ما تمنّته. هي من قالت لي هذا.

- أنت مجنونة. تريدين الهروب بعد ذلك الّذي

حدث؟ وهجرة بابا؟

لا أريد أن أهجره. يمكنني منح أيّ شيء، حتّى أتمكّن من التوفيق بين كلّ الأشياء، ليأتي هو أيضًا معي. ولكنني كنت أعرف أن هذا مشروع مستحيل. إذا مددت له يدي، سأعطيه بذلك الفرصة ليجذبني من جديد إلى الداخل، ولن تكون لدي أي قوّة للخروج من هنا.

في ذلك اليوم، فكّرت في العالم الجديد واليوم الّذي قضيته مع جدّتي، اليوم الوحيد في حياتي كلّها الّذي شعرت فيه بالخفّة، دون أي تهديد يقبع على رأسي، سواء كان كارثة أم مخاطرة فقدان حب عائلتي. ربّما كان ذلك المتجر مستقبلًا ممكنًا، حتّى ولو مختلفًا عن أيّ شيء توقّعته حتّى هذه اللّحظة.

شعرت برغبة في التّحدث مع أندريا عن ذلك، ثمّ ترددت، سيكون بمثابة الاعتراف بخيانتي له. بأنّني احتفظت لنفسي بثروة ليست له لأنّ جدّتنا في ذلك اليوم، اختارتني بدلًا منه، بينما أجبر هو على اتباع أبي، ولم يستطع الانحراف، ولو للحظة، عن الأرصفة المقرر عليها وجوده. لعشرة أعوام تجنبت مشاركته ذكرى ذلك المتجر، كيف سيمكنني أن أفعل ذلك في تلك اللّحظة؟

عندئذ قلت: حسنًا، لن يكون هناك فردوس في الخارج. ولكنّه الواقع. سواء أعجبنا أم لا، فهو سبيلنا الوحيد لنفهم ذواتنا، وفي أيّ الاتّجاهات

نسير... لنوجد. إذا سقطت شجرة في الغابة ولم يسمعها أحد...

- ستتسبّب في ضجّة.

قاطعني بغضب: ستتسبّب في ضجّة! ضجّة شديدة! ألا تسمعيها في اللّيل؟ ألا تسمعين ضوضاء الغابة؟ كيف تفكّرين في ترك كلّ هذا؟ إذا فعلت ذلك، سيلاحقك. لن تحظي بالسّلام أبدًا، لماذا لا تفهمي هذا؟ هذه هي حياتنا. الآن لم يعد لدينا خيار.

أخذت نفسًا عميقًا: بدأت أقتنع أنّه من الأفضل أن نعيش ملاحَقين، بدلًا من ألا نعيش مطلقًا.

اِستعاد أخي الجاروف في يده، وعاد يحفر بغضب.

قال لي: على الأقلّ سننام بهدوء، دون أن نخون أحدًا.

قضيت تلك اللّيلة في أرَق، أتقلّب في الفراش. هل أتصرّف كشخص أنانيّ؟ هل من الخطأ محاولة السّعي للحصول على ما أريد؟ تبعث اللّحظات الّتي شاركتها مع عائلتي الدّفء فيّ، ثمّ أعود وأفكّر في أبي. ذلك الجسد الضّخم الّذي يبرز في شمس الصيف أو أمام نيران المدفأة، كأكثر الشّخصيات رعبًا في التّاريخ... لكنّه كان واقعيًا. فسعادتي العقلية تعتمد على مزاجه. عندما يشعر بعدم الرّضا، أسقط كشرة عالقة في آنية، لا

نجد طريقًا للهروب.

خارج الحصن لا أملك شيئًا، ولست شيئًا. ماذا سأفعل في العالم؟ ماذا يمكن أن أكون فيه؟ هل سأستطيع مواجهة المخاطر؟ هل سيكون لي وجود؟ هل رحيلي هو عقاب بالوحدة أم بالفشل؟ أم أنه نجاة من الألم؟

مددتُ يدي لألمس حقيبة ظهري الموضوعة أسفل الفراش. من بين الأشياء القليلة، توجد فيها أيضًا إوَزّة دوروثي وورق الخطابات ذَوَا الزرافات الّذي أهدته لي أمّي. بجوارها، توجد حقيبتنا للعدّة، سآخذها هي الأخرى، فإنّني لن أستطيع الاستمرار يومًا واحدًا من دونها.

- إنّ هدف الحياة هو أن نحيا، لا أن نخاف.

همست لأخي في الفراش المُجاور، وأنا أردّد كلمات أمّي، ربّما لأُقنع نفسي بها أنا أيضًا.

شدّ الأغطية فوق رأسه، ولم يجبني. أندريا، الأخ الّذي لم أرغب قطّ في الانفصال عنه، والذي أحببته كما أحببت نفسي، بلا شروط، هو الّذي أراد الهروب قبلي، لن يأتي. اِختار أن يهدئ الأدرينالين بالهدوء، وأن يخوض مغامرة العالم بطريق مجهول، بينما أنا أفعل العكس تمامًا، وأخون كل شيء. لماذا؟ ما زلت أسأل نفسي هذا السّؤال يوميًا. لأعثر على نفسي؟ ولكن كيف يمكنني ذلك بينما أصر على رؤية العالم من

النّافذة؟

فقط التّفكير في أمّي هو ما ينجح في تهدئتي. وإدراكي أنّني لا أرغب في إحباطها، على الأقلّ ليس كثيراً. والتّفكير أنّه ما زالت هناك فرصة في الجانب الآخر، إذا استطعت فقط أن أملك القوّة لأضع قدماً أمام الأخرى.

(35)

تُفاجئني أديلايده: ما زال لدينا أمل، هذا ما رغبت في قوله لكِ.

ثمّ تفحصني: هل نمتِ متأخرة جدًا هذه اللّيلة؟

أجيب، في محاولة لإخفاء أثر المغامرة الّتي قمت بها خارج الحيّ: آه، حالة طوارئ ولكن انتهت.

بينما أفتح باب المدخل، وجدتها على البسطة. تُهرول إلى العمل، لكنّها أرادت أن تراني وتتحدث إليّ ولو لدقيقة. تحمل أريا على ظهرها حقيبة الحضانة الصغيرة، وتمسك بيدها دمية رابانزول.

تُكمل أديلايده: يمكن لأملنا أن يُلخَّص في كلمة واحدة.

تتوقف حتّى أسألها التّفاصيل، ولكنّني متعبة وحزينة ودائخة بعض الشّيء، لذلك أنتظر أن تتحدث هي.

تُكمل منتصرة: كراودفانديبج (١٠١). لا تقولي لي إنّك لا تعرفينه...

أعترض: أعرف ما هو. سمعت عنه فقط، ولكنّي لا أفهم.

ترفع سبابتها: إسمعي، سأمرّ عليكِ هذا المساء، لأشرح لكِ ما في ذهني. ولكن عندما أدقّ على بابك، من فضلك افتحي.

أُمسك حقيبة المثقاب الكهربائيّ بِيَدي، وأضع الخوابير في الجيب الأماميّ للأوفرول، وأحمل حقيبة المعدّات على كتفي. أدقّ الباب بهدوء. أعاني من حموضة في معدتي بسبب نبيذ الليلة الماضية، وأشعر بتعبٍ بسبب قلّة النوم. يبدو لي أنّني أقف على سطح عوّامة. النّور الّذي يتموّج على البسطة قوي إلى حد أنّني أرغب في خفضه.

إنّها العاشرة والنّصف من صباح يوم الإثنين في شهر مايو. أقول لنفسي، ربّما ذهب إلى الكلّية. ربّما مشغول بالدّروس أو الامتحانات... ولكنّني لا أكاد أفكّر في العبارة كلّها، حتّى أرى جاري يفتح الباب على مصراعيه. يرتدي تيشيرت بنفسجيًا فاتحًا اليوم. وفي يده علبة لاصق فينافيل.

- قذائف جدران؟

يمزح عندما أطلعه على الخوابير. ثمّ ينظر إلى اللاصق في يده: معذرةً، لكن لا بدّ أن أدخل قبل أن يجفّ الصّمغ! تفضّلي.

ويهرع نحو الصّالون.

أُغلق الباب خلفي ببطء.

أرى على الجدار لوحةً للمفاتيح. أسفلها بقليل، رفّ رفيع وطويل، وضعت عليه فواتير ومنشورات إعلانيّة ومراسلات ذات طابع بيروقراطي و... ورقتين أو ثلاث من تلك التي أرسلها إليّ!

هل يُجري اتّصالاتٍ عن طريق المراسلة مع آخرين في البناية؟ مع أديلايده؟ مع راقصة الباليه الكلاسيكيّ في الطّابق الثّاني سلّم D؟ مع الطّالبة العجيبة التي تقطن في الطّابق الأوّل سلّم A؟ أم مع الصّبي القاطن في الطّابق الأخير، أمامي؟

يطلّ من الرّدهة وبيده إحدى الحفريّات وريشة رسم، وينظر إليّ متسائلًا: إذن، ألن تأتي؟

- أجل، معذرة، كنت أتأكّد من...

ولمّا لم أعرف كيف أكمل، أسارع للّحاق به.

- تبدو كأنّها صَدَفَة غريبة، ولكنها صَدَفَة غريبة ساكنها عاش منذ ثلاثمئة مليون عام مضت.

يشرح لي وهو يُطلعني على الحفريّة التي يعمل عليها.

- لا يجب أن تحكم على الصَّدَفة من عنوانها أبدًا!

يضحك على دعابتي، بينما يضع الحفريّة برقّة على حامل من البلاستك المقوى وسط الطاولة.

أنتهز الفرصة لأخرج قلمًا من حقيبة المعدّات، ومعه ميزان الاستواء والمتر للقياس: أصدقائي المخلصون ورفاق كلّ المغامرات، نظرًا إلى أنه يستحيل علي مجرد تخيل موقف من دونهم كالذي يحدث الآن.

أسأل: هل لديك سُلّم؟

يحضره لي على الفور، وهو يتمرّقل بغرابة على

حافّة البنطلون: قلت لكِ إنّني كارثة في تلك الأشياء...

يقول عندما أسنده بِيَدي حتّى لا يسقط.

أقمع الانفعال من ملامسة بشرته، وباستخدام المتر وميزان الاستواء، أحسب كيف أضبط الواجهة الزّجاجيّة في وسط الجدار.

- هل لديك أيّ قطعة قماش لنضعها على الأرض؟ يمكنني أن أتسبّب في اتّساخها جدًا.

يجيبني وهو يطلعني على يديه المشغولتين بالصّمغ والرّيشة: هل يمكنكِ أن تحضريها بنفسك؟ ستجدين واحدة على قطعة الأثاث في المدخل.

أُطلّ على الرّدهة. التّحرُّك بمفردي في منزله يثير بداخلي انطباعًا ما. أحيي بابتسامة المصابيح المعلّقة ذات الضوء المُتقطّع، وأهمس: لا بدّ أن أُخبِر لُمبَتَكَ الصّغيرة. الآن سأخبر صاحبك القابل للانهيار بهذا.

باب المطبخ موارب أيضًا اليوم، الضّوء الحيّ للنّهار ينفذ كالنّصل على أرضيّة الأرض المُبلّطة. أعتقد أنّني استطعت تمييز قطعة الأثاث الّتي أرسلني من أجلها. تقع تمامًا أسفل الرّفّ الّذي توضع عليه كُتب رسائل لا أعرف لمن. ألقي عليها نظرة سريعة، لا تمكّنني من قراءة شيء. بسبب الاحترام أم الخوف؟

أفتح الدّرفة وأحاول التّركيز بحثًا عن قطعة

القماش. في ما عدا كرة تنس، ومُمطِر، وبعض الصّحف القديمة أعثر على واحدة شبه نظيفة. ولكنّني أقف فجأةً فيدور رأسي. أستند إلى الرّف، وتقع عيني على ورقة في قمّة الكَومة:

يمكن أن تتأخّر، ولكن...

إنّها بداية الرّسالة الّتي تركها لي على العتبة! أستمرّ في التّشبث بالرّف لأعثر على التوازن. إذن، لم تكن سوى محاولات الكتابة إليّ؟ هل كان متشكّكًا في ما يجب أن يكتب لي؟ هل سأل نفسه إذا كان يجب عليه عمل ذلك؟

جاءني صوته من الغرفة الأخرى يسألني: هل عثرت عليها؟

لوّحتُ له بالقماشة عندما عدت، بحيث لا أخاطر بأن يقرأ الأفكار الّتي تطير بسرعة البَرق داخلي مثل طيور السّنونو في سماء مارس.

أراقبه خفية، بينما يتعامل بذراعه مع الحفريّات. يبدو منهمكًا كأنّه نسي تمامًا وجودي. عندما يتعلّق الأمر بي، يتعامل بحرص واهتمام، ولكنّه الآن يحوِل الحرص والاهتمام إلى حفريته.

أخرج المثقاب الكهربائيّ، وأصعد على السُّلّم. يتصارع طرف المثقاب مع العجين الإسمنتيّ والحجر، وتتحرر سحابة كثيفة من الأتربة. أضغط على أسناني وأستمرّ في الضّغط على المثقاب. أنجح

في المهمّة الأولى، وأضع الخابور الأوّل وأمسك بالمثقاب من جديد.

في النّهاية، يساعدني جاري على رفع الواجهة الزجاجية. نعود خطوة إلى الوراء لنلقي بنظرة معاً.

يصيح: رائعة! الآن تنقصها فقط الحفريّات.

ثمّ يشير بذقنه إلى كَوْمة من المجلّدات على المنضدة المنخفضة: ولكن قبلها لا بدّ أن أنجح في اجتياز الامتحان الأخير.

- هل ستصبح عالم حفريّات؟

- متأخّر قليلاً. وذلك لأنّني أكرّس نفسي أيضًا لأبحاثي الميدانيّة. وعملت لكي أعيل نفسي. الآن انتهت نقودي، ولكن لحسن الحظّ انتهيت أيضًا من الدّراسة الجامعيّة.

بعد لحظة تردّد، يسبقني إلى الرّدهة. باب غرفته مفتوح اليوم ولا أستطيع منع نفسي من إلقاء نظرة إلى الداخل: تغزوها الكتب.

قال لي بنبرة شبه اعتذاريّة: القراءة هي ما أفعله كي لا أمكث كثيرًا مع نفسي.

أعترف: الأمر سيّان بالنّسبة إليّ.

تنظر إليّ عيناه المتّسعتان وكأنّها ترغب في فهمي.

أقول، مندفعةً بالاحتياج المفاجئ لأن أحيها،

ولو للحظة واحدة: في رأي أمّي، المسرح هو العالم المغلق في غرفة، والسينما هي العالم المصور مرّة واحدة إلى الأبد، والكتب هي ما يمكن للعالم أن يكونه. كلها طرق لنجد أنفسنا بعيدين عن المنزل، دون أن نضطر إلى الذهاب إلى أيّ مكان. كان حلمها أن تأخذني إلى لاسكالا.

- تبدو أمّك شخصيّة مثيرة للاهتمام.

- كانت.

يفهم على الفور: يؤسفني هذا.

ولكن يدقّ هاتفي في اللحظة الخاطئة ويقطع حوارنا.

- ألم يدقّ المُنبّه؟ ماتت قطّتك؟ أو مشغولة أكثر ممّا ينبغي في بناء مدخنة، يا مدام دوريه؟

تهاجمني حرير على صوف.

أتلعثم: كنت أعلّق واجهة زجاجيّة.

- على الأقلّ لم تسبّبي في أضرار... إلى أن يثبت عكس ذلك. بطبيعة الحال لا يمكنني أن أثبت ذلك لكنّني أقسم على سيارتي الميني أنك أنتِ من علّقت ذلك الورق المقوى. وأنا مستاءة من ذلك، أؤكّد لك، ويمكنني الإبلاغ عنك.

تزفر: ولكنّك محظوظة، ولن أفعل ذلك. فسلسلة محلّ الهامبرغر ستشترك أيضا في المزاد، وأحبّ أن أضيف أنّني أتوق إلى اللحظة التي سينتهي فيها كلّ هذا. أيّ ساعة ستأتين اليوم؟ ما زالت هناك

العديد من الأشياء الّتي تحتاج إلى إصلاح.

- اليوم؟

لم أكن قد فكّرت بعد كيف سأواجه هذا الأمر، ربّما فكّرت ألّا أعود إلى المكان ببساطة.

- سأمرّ بعد قليل.

وجدت نفسي مُجبَرة على قول هذا، لأكسب بعض الوقت، أو لتخلي، أو لأنهي تلك المحادثة في أقرب فرصة.

يومئ جاري وهو يتظاهر بالغضب: أرى أنّكِ تجيبين على الآخرين. مساء أمس حاولت مهاتفتكَ مرّتين، فقد عثرت على رقم هاتفك في لوحة الإعلانات.

كان هو...

- أُفضِّل الرّسائل أسفل الباب.

أشعر بحمرة وجنتي، ولكنّني قلتها.

تتّسع عيناه الكبيرتان.

يسألني بعدها، محرَجًا قليلًا: كم حسابنا؟

بالطّبع، هذا عمل، أقول له السّعر.

يقول لي عندما أسلّمه الفاتورة بينما يمدّ لي يده: أنا أكيله.

- أكيله؟

شيء غريب ورائع.

- مثل أكِله كومبانيوني متسلّق الجبال.

- وفكّرت أيضًا مثل أخيل بطل إلياذة هوميروس.

- كومبانيوني أيضًا كان بطلًا بطريقته، أحد أوّل رجلين في التّاريخ وصلا إلى قمّة K2. أبواي كانا من متسلّقي الألب.

أشعر بالألم من استخدامه لذلك الماضي. أرجوك لا تقل لي إنه... أرجوك، لا ليس هو أيضًا، ليس هو.

- في أيّام الأسبوع، أثناء وجودي في المدرسة، كانا يقومان برحلات صعبة. والسبت والأحد يأخذاني معهما في تلك السّهلة، إذا أمكن القول. وكنت أبحث عن الحفريّات.

أشعر برغبته في إكمال الحكاية، ولكنّه لا يعرف كيف. يحني جسده إلى أسفل وكأنه يحمل ثِقلًا: وفي أحد الأيام لم يعودا. هذا ما حدث.

أريد أن أضع يدًا على ذراعه، وأقول له إنّ بعض الأشياء من الأفضل تركها مدفونة بداخلنا، ربّما نعثر عليها مجدّدًا في الكتب، ولكن لا نتحدّث عنها، لأنّنا بالحديث عنها لا نفعل سوى جعلها أكثر واقعيّة. إلّا أنّني بنفسي حكيت لتوي عن أمّي، وفعلت ذلك حتى يرى ألمي. لأنه موجود.

أهمس بِصَوتٍ مُنخفضٍ جدًّا: يؤسفني هذا.

- داخلنا أسرار مدفونة يمكن للآخرين فقط كشفها.

- هل تحفظ الاقتباسات في اللّيل بدلًا من النّوم؟

يحمرّ وجهه قليلًا: في الواقع، هذه كلماتي.

- إذن، من الأفضل أن تكتبها في مكان ما. هكذا، عندما تصبح مشهورًا لأنّك اكتشفت كوارتو سينيغاس، يمكنني أن أقول إنّ لديّ اقتباسا لك لم ينشر.

يضحك: يا ليت.

- لا يمكنها أن تمطر إلى الأبد، أليس كذلك؟ هكذا تعلّمنا كنزتك.

يردّ بعينين حيويّتين ولامعتين، تنفذ إلى داخلي: بالفعل.

وأنا أودّعه، أفكّر كم أتمنّى أن يصعد هو أيضًا بكلّ حفريّاته في فلك نوح الخاصّ بي. الآن أنا متأكّدة أنّنا سنكون متوافقين.

(36)

- الاستيقاظ المبكّر يجلب الثّروة!

تقول حرير على صوف باندفاع وهي تلوّح بهاتفها.

اليوم أيضًا ترتدي في قمّة الأناقة، ملابس لامعة من ماركات مشهورة، ويبدو أنّ مزاجها أفضل من المعتاد.

- يجب أن أقول إنّني بدأت أحبّ هذا الحيّ، وسأفتقده كثيرا عندما لن يصبح لديّ، قريبا، دافع للقدوم إليه. بالتّأكيد إذا كان به مطعم سوشي، أو مكان أفضل قليلًا لتناول الغذاء مع أبي لكان ذلك أفضل.

- يوجد مطعمان جيّدان، ربّما يُعجبانك، لكنّهما للشّراء التّيك أواي فقط. ثمّ يمكنك الجلوس على شاطئ النّافيليو. ويمكن أن أقول لك أين.

- على الجسر وأقدامنا تتدلّى على المياه الخضراء؟

- لماذا لا تذهبين إلى مقهى «اللّاشيء»؟ أنجلينا تطهو جيّدًا جدًا.

- تقصدين ذلك المكان الّذي يطلّ على الميدان الصّغير ذي الكراسي البلاستيكيّة؟ يبدو أنّك لم تري أبي جيّدًا.

ويبدو أنّك لم تفهمي روح هذا الحيّ، أردت أن أجيبها. ربّما لأنّني متعبة، فاليوم صبري قليل.

أعاني من صداع يُفجّر رأسي، ومعدتي تمزّق، ويغمرني حزن كبير. إنه أحد تلك الأيام التي يجب أن يقضيها المرء أسفل الأغطية، مع شخص يمكنه أن يحضر له الشاي والبسكويت. ثمّ أتذكّر أنّني شخص ناضج وأعيش بمفردي، وأنّني أكلت أكثر ممّا ينبغي من البسكويت ليلة أمس.

أعلن بِبرودة: سأعمل على إصلاح البضائع المُتبقّية وسأنتهي من العمل.

تجيب بينما تتصفّح بِالسّبابة شاشة الهاتف: كنت أعتقد أنّك ستهتمين بِبيعها أيضًا!

- ستهتمّ هي بأن تجد لنفسها مسكنًا.

لكنّها لم تسمعني: إسمعي، يجب أن أذهب. إنّه غداء مهم اليوم مع أبي. أراكِ فيما بعد.

ألمس الإوزّة الخزفيّة في جيبي. وجودي هنا الآن، يشعرني بمشاعر مختلفة تمامًا عمّا اختبرته الأسبوع الماضي. أنظر إلى كلّ الأشياء الّتي اعتنيت بها في تلك الأيام وهي تنعكس في مرآة ضخمة ذات إطار مبقّع. تبدو لي كأنّها تنظر إليّ كأطفال متأنقين لحفلة ألغيت في اللّحظة الأخيرة. البيانو الّذي كان من قبل مستعدًا لأن يعزف، بدا الآن مغلقًا. طاقم الشّاي المُرمّم ظلّ على الرّفّ مع الفناجين المقلوبة. جمعت التّماثيل الصينيّة كأنّها فرقة حربيّة هاربة. كلّ شيء معد للرّحيل.

أقرأ من جديدٍ المكتوب على الجدار بجوار الخزانة: في هذا المتجر، لا يوجد ثمن للأشياء، ولكن كل شيء له قيمة.

لم أستطع إنقاذ هذا المكان، وسأحمل دائمًا على كاهلي شعورا بالهزيمة. عندما أطلّ من التراس لن تكون هناك أية لافتة، ولا شبابيك حمراء. الساعات التي عاشتها هنا في الداخل جدّتي ودوروثي وآديلايده وأنجلينا وبريشيللا وأريا، ستيهت حتى تختفي، وكأنها لم تكن. لقد فعلت كل ما بِوسعي ليصبح ذلك ممكنًا، لأرى إذا كنت قد عثرت في الغابة الكثيفة على الطريق الصحيح.

- ولكن لنعد إلينا.

أقول بتعبٍ للمرآة المؤطّرة.

أُخرج من حقيبة الظّهر برطمانًا قديمًا ووعاءً حافظ حرارة به مياه ساخنة. أسكب المياه في البرطمان وأُضيف غراء السّمك، وهكذا تصبح المياه جيلاتينيّة، ولا تبلّل الخشب أكثر ممّا ينبغي، بينما تنزع عنه الأوساخ. أغطِي الإطار كله بالجيلاتين.

أسأل الأشياء حولي: أين ستذهبون؟

بقطعةٍ قطنيّةٍ أُزيل الجيلاتين من فوق الإطار، ثم أجفّفها وأنا أُغطّيها بنشارة الخشب التي احتفظت بها جانبًا بعد أن انتهيت من تصميم

الأجزاء لبيت الدمى.

- الآن ارتاحي قليلًا، أراكِ بعد قليل.

بينما أبحث عن شيءٍ آخر لأرتّبه، أسمع من يناديني من الخارج.

- إستعرت درّاجة لألحق بك في وقفة الغذاء.

تشرح أديلايده لاهثة، عندما أخرج إلى الرصيف:

- لم أستطع الانتظار حتّى المساء، كنت أتمنّى أن أجدك هنا.

ثمّ تتوقّف لالتقاط أنفاسها: ولهذا فهي علامة مبشِرة.

أرفع كتفي: أتيت لأودّع الأصدقاء.

تترجل من الدّرّاجة وتدفعني إلى الدّاخل: جيا، لا يجب أن نستسلم، لا يمكننا التصرّف كأنّ شيئًا لم يكن. ماذا سنفعل إذا فقدنا هذا؟ هل أستسلم لمنطق المتجر الّذي أعمل به؟ هل ستعودين لتسليك الأحواض؟

- وما الضّرر في هذا؟

- لا شيء، ولكنّنا فعلنا كلّ شيء حتّى وصلنا إلى هنا، والآن الحياة تطلعنا على طريقٍ آخر. عمرنا تقريبًا الثّلاثون، ولا بدّ أن نصدق في مستقبل ما.

تضغط على ذراعي: ثمّ أنّ الأمر لا يتعلّق فقط

بي وبك، ولكن بنا، بالمجموعة الّتي كوّناها، في الحيّ والمدينة والعالم! ألا تتذكّرين؟ أن نمنع، ونحيك الخطط، ونعترض ونجتهد، ونفسد... هل سينتهي هنا كلّ نشاطنا السّياسي؟

- هذا لا يعني أنّنا لم نحاول؟

- إذن لنحاول مرّة أخرى! قلت لكِ إنّ هناك حلًا: لننظّم تمويلًا شعبيًا.

- حصلت الشّركة على اقتراحات ملموسة - أعلمها

- ليس لدينا وقت.

- إذن دعينا لا نفقد المزيد منه. فكّرت كثيرًا مساء أمس. فكّري فيَّ وفي نفسك وأنجلينا وبرشيلا... عدد كبير يؤمن بهذا المكان، ولا يريد أي «تحديث» للحي، لأنّك تعرفين نتيجة هذا، أليس كذلك؟ سيكون علينا الرّحيل من هنا، لأنّ كلّ شيء سيتضاعف ثمنه، وسنشعر بالغربة في منازلنا، إمّا نظلّ فيها ونضحّي تضحيات لا تصدق، مجبرات على العيش ومحاطات بأماكن ومتاجر لا تمتّ لنا بصلة.

أعترض: لا أحد منّا لديه مُدّخرات.

- حقيقيّ، ولكن إذا وضعت كلّ منّا بعض النّقود، وإذا استطعنا جذب آخرين للاشتراك معنا.. لنحاول. ماذا سيكلّفنا ذلك؟ رأيت بالفعل كيف يسير هذا الأمر، وسأنظّم أنا كلّ شيء. عليكِ فقط أن تعثري على الكلمات لتحكي القصة.

- أنا؟

- كما تفعلين مع الإوريغامي ومع لافتاتك.

أريد أن أقول لها إنّ هذا أمر آخر. في الأوريغامي أستخدم كلماتِ الآخرين. واللافتات مجرّد إشارات. أستخدمها لأحذّرِ الآخرين، وأطرّز عليها، كحدّ أقصى، فكرة جميلة. الأمر هنا يتعلّق بطلب مساعدة، وطلب مساعدة يعني الفشل، هكذا سيرى أبي.

أهزّ رأسي. لست مُقتنعة، ولا أشعر برغبة في ذلك. لا. من الأفضل أن نعتمد على قوانا، وأن نقف على قدمينا.

- هل من الأفضل إذن أن يتحوّل المتجر إلى محلّ مراهنات؟

أسمع صدى صوتها، وكأنّها تقرأ أفكاري.

أتنهد، ولا أجد إجابة جيّدة.

تُصرّ: لنحاول أن نطرح مشروعًا. لنرى ماذا سيحدث، ليس لدينا الكثير لنخسره. أليس الفشل مجرّد وجهة نظر؟ بالنّسبة إليّ الفشل الحقيقي هو الاستسلام.

وجهات نظر: إذا سقطت شجرة في الغابة...

أسألها: ماذا تتوقّعين أن تربحي، أقصد في أفضل الحالات؟

- النّقود الكافيَة لشراء المتجر.

- عندئذٍ من سيديره؟

- نحن! من سوانا؟

حان الوقت لأزيل نشارة الخشب من فوق الإطار وأجفّفه بمجفّف الشعر، ولكن جلست هي أمامي تطالبني بالنظر إليها.

- أردت فقط أن أنقذه، إدارته أمر آخر. لا أعرف إذا كنت أستطيع هذا.

بدت مُندهشة: بالتأكيد تستطيعين هذا! اِسمعني، لا بدّ أن أرحل الآن. هل نتعشّى في منزلك هذا المساء؟

نتعشّى معًا؟ في منزلي؟ إنّ المساء هو اللّحظة الّتي أمكث فيها مع نفسي، أراجع يومي وأرتّب لليوم التّالِي. لا يمكن أن أترك نفسي للاضطراب وإلا سأرتبِك.

أخترع أيّ عذر: أعتقد أنّني ليس لديّ سوى سلطة خضراء، ربّما من الأفضل أن...

- السّلطة الخضراء رائعة! هكذا ألتزم ببعض الحِمية الغذائيّة. سأحضر بعض النّبيذ.

- لديّ هذا.

لا شيء يمكنه أن يزحزح أديلايده عن قناعتها. بعدما أنظر إليها، تستقلّ الدّرّاجة وتختفي في آخر الشّارع، أجلس خلف الخزانة، وأجبر نفسي على ألا أفعل شيئًا، وأن أمكث لأصغي.

رأسي مُزدحم بكلّ أنواع الافتراضات. لأشرد عنها، حاولت التركيز مع صمت المتجر. ولكن لا وجود فعلي للصمت: يصر الخشب في مكانٍ ما، وتزن مصابيح النّجفة بطريقةٍ تقريبًا لا تُسمع. يعبر الهواء من خلال الباب المُوارب فيخشخش الحاجز المصنوع من النّسيج، وطرف كيمونو معلّق على الخزانة. يدغدغ التنفّس أنفي، ويذكّرني أنّني على قيد الحياة. وجودي هو الصخب الأكبر هنا بالداخل، أدرك هذا فجأة. لست حيّة فقط، بل أنا أيضًا في مكانٍ يشبهني. فأنا أقرب لنفسي الآن ممّا سبق. وبهذه الأفكار أهدأ.

(37)

تطرق أديلايده بابي في التّاسعة مساءً، أستيقظ فَزِعة. سقطت في النوم تقريبًا منذ نصف ساعة، برأسي على ذراعي المعقودتين فوق مائدة المطبخ. بجواري الكوب الّذي كنت أنوي شربه أثناء الانتظار، مليئًا.

أسألها، بعدما لاحظت تعبير وجهها اليائس: هل انتظرتِ طويلًا؟

تحمل أريا نائمة بالبيجاما.

- تقريبًا خمس دقائق، ولكن أريا ثقيلة الوزن. هل يمكنني أن أضعها على الأريكة؟

- بالتّأكيد.

أجيبها وأنا أبتعد لأدعها تدخل.

إنّها المرّة الثّانية الّتي تأتي إلى منزلي، بدأت أشعر أنّني على سجيّتي. نجتاز الردهة في الظّلام، أنير أباجورة في الصّالة تعكس نورًا جميلًا منتشرًا، خافتًا، بحيث لا يوقظ الطّفلة. تريح أديلايده أريا على الأريكة. أضع أنا عليها غطائي العازل للحرارة، حريصة على أن أضع لها الجزء الذّهبي في الدّاخل.

- اِقتصاديّة وخفيفة، وإذا استيقظت ستفكّر أنّها أصبحت أميرة.

أشرح لها، وأنا أهمس نظرًا إلى أنّها كانت تراقبني بارتباك.

- أعطيني فكرة لثوب. بالمناسبة قبل أن أنسى.
تُخرج من جيبها متر الخياطة.
- ينقصني مقياس.
في غمضة عين تلفّ خصري بالمتر ثمّ تُحرّرني. مكثت متجمّدة كأنّني مانيكان، خَشية أن أهينها إذا سألتها عمّا تتحدّث.
تفتح الحقيبة وتُسلّمني عبوة مستطيلة، لتغيّر الموضوع: أحضرت الجيلاتي. في الأفلام عندما يخطّطون لمشاريع كبيرة للمستقبل يأكلون دائمًا الآيس كريم. أليس كذلك؟ حتّى وإن كنتِ تشاهدين أفلامًا للمثقّفين أكثر، أعرف هذا. تلك التي يدخّنون فيها الغليون.
ثمّ تضحك تقريبًا في صمت.
لم يكن لديّ وقتٌ لأفكّر في عذر مناسب لأنسحب من الكراودفانديج لأنّني نمت، والآن ها هي أديلايده أمامي بكلّ حماسها، أخشى أنّني لن يمكنني التراجع.
بعدها بساعتين، فتحنا صفحتنا الخاصّة على موقع خاصّ، وفي ما يتعلّق بوصف المشروع بدأنا نضع النّقاط على الحروف.
مرحبًا بكم جميعًا،
نحن جيا وأديلايده، ومهمّتنا هي إنقاذ «العالم الجديد»، محلّ ساحر للأثاث والمنتجات القديمة في حيّنا، محلّ له قصّة رائعة للغاية.

~~إن حينا حي فريد من نوعه~~ نحن نعتقد أنّ حينا حي فريد، وذلك بفضل من يعيشون به، فالأماكن بساكنيها. كان «العالم الجديد» ملك دوروني والآن سيصبح ملكًا ~~لامرأتين/صديقتين~~ لشابتين صديقتين ستعملان بكلّ جهدهما للحفاظ على روح الزمن، وتؤمنان ~~بالجمال وبالقصص المرتبطة بالأشياء، بقيمة القصص المرتبطة بالأشياء،~~ وبإعادة التدوير للأفضل [تقول أديلايده إنّه تعبير أفضل من مجرد إعادة التدوير]، ردًا على النّزعة الاستهلاكية، واللامبالاة، وعمليّات الإنتاج المُتلاحقة.

إذا أنقذنا «العالم الجديد»، سننقذ أيضًا جزءًا من حينا. إذا أنقذنا الحيّ، سننقذ جزءًا من أنفسنا.

ساعدونا!

وأعلنت أديلايده في النّهاية: إذن فنحن شريكان.

(38)

أضع المشتريات على مائدة مطبخ السّيّدة داليا: لم تأت إلى المتجر يوم الأحد.

- غاليتي، قلت لكِ إنّني لن آتي.

تمنّيت لو اكتفت بذلك فقط لألحّ عليها، وأشعر ببعض الإثارة. أفتح الأكياس وأساعدها لتخرج علب الطّماطم، وزجاجة زيت الزّيتون، وأكياس المكرونة: فاتك كشف خطير. مفاجأة جميلة بالفعل.

- شيء سيفاجئني؟ في هذا السّنّ؟

أضع حزمة السكّر في خزانة المطبخ بجوار الأربع الأخرى. فهي من الأشخاص الذين يشعرون بالأمان أكثر في تخزين السّلع الغذائيّة الأساسية، لأنّه لا أحد يضمن شيئاً. ولن أكون أنا بالتأكيد من سيجد ذلك غريباً.

- لم تأت مارجريت؟

- سيّدة داليا، مارجريت قد أتت. سيّدة رقيقة جدّاً وأنيقة جدّاً، وثرية جدّاً. ولكنّها ليست ابنة دوروثي.

تشدّ السّيّدة داليا نفسها على أطراف أصابعها الموضوعة في الخف، لتنظّم البولينتا في الرّفّ العلوي. عندما تلتفت لتنظر إليّ، وفي عينيها ضوء، ولكن لا يبدو لي بسبب الدهشة.

أشرح: إنّها قريبة. ولكن مارجريت الّتي تحدّث عنها دوروثي كابنتها، لا وجود لها. لم يكن لدوروثي أي أبناء.

ترفع السّيدة داليا كتفيها، وشيء ما في تعبير وجهها يفضحها بشكل حاسم.

- كنت تعرفين؟

- ماذا عن ذلك؟

أعترض: تسلّميني خطابات دوروثي، وتهملين تفصيلًا مهمًا كهذا؟ كان يمكنك إبلاغي! كنت ستوفّرين عليّ تعبا كثيرًا...

- ومن سيمكنه أن يوفّر عليك تعب الحياة يا فرحتي؟ أجل كنت أعرف أنّ مارجريت مجرّد وهم. ولم أبلغك.

جلست وهي تسند كفّيها إلى المائدة.

- كنزي، تفقد الحياة معناها عندما يكون المعنى الوحيد بالنّسبة إليك يكمن في ما تفقدينه. لطالما قبلتُ وهم دوروثي، وتركتها تعيش به. فإذا كانت تشعر بالاحتياج لأن يكون لها ابنة، فلتكن لها. أحيانًا يصبح العالم الّذي نخلقه أفضل من الحقيقيّ، ونحتاج إلى شخص آخر يصدّق وجوده معنا.

أفكّر مرّة أخرى في والديّ، وكيف شعر كلٌّ منهما باحتياجه إلى الآخر ليبنيا معا تلك الحياة المليئة بالإثارة والرّاحة في الحصن.

- وهل مؤكّد أنّ حمايتنا من الحياة هو الشيء الصّواب؟

ضيقت السّيدة داليا عينيها: العالم عذاب...

أفكّر في لوحاتها، والعبارات المبتورة، وما قرأته في خطاب دوروني. أتشجع: سيدة داليا، إذا كانت دوروني سلمتك خطابات كتبتها لابنتها قبل أن تموت، فربّما تكون فعلت ذلك لأنّها أرادت أن تقرأيها.

تحدّق فيّ كأنّها رأت شبحًا.

أكملت: وهل تعرفين لماذا؟ لأنّ في تلك الخطابات توجد معلومة مهمّة تخصّك. ونظرًا إلى أنّ هذه الخطابات الآن في يد قريبتها، أخشى أن أطلعك أنا على ما كتبته. أتمنّى أن أفعل الصّواب... ما رأي حضرتك؟ هل تريدين هذا؟

- أنا...

يرتجف صوتها، وهي تفرُك المِفرَش بين أصابعها: هل لفلوريان علاقة؟

- لقد نقلت الخطاب كلّه. من أجلك. إنّها الحقيقة الّتي تطرق بابك. لتقرأيها لو أردت.

تشحب السّيدة داليا. ترتجف يداها أكثر من المعتاد: هل رأيك يا كنزي أنّه يجب عليّ معرفة هذا؟

- أجل، إنّه خبر جميل، على ما أعتقد.

يبدو أنّ شيئًا ما أوقفها، ولكنّ شيئًا آخر بدا كأنه يدفعها إلى القراءة.

تردّد متوتّرة: هل لفلوريان علاقة؟

- لحضرتك علاقة.

تنظر إليّ بنظرة مشكّكة، ثمّ ترتدي النظّارة المدلّاة على صدرها وتأخذ الخطاب في يدها.

22 مايو 2003

عزيزتي مارجريت،

كلّ عام وأنت بخيرا من ذا الّذي يقول إنّه بعد سنّ معيّن نتوقّف عن الاحتفال؟

حتّى أنا، وقد تجاوزت الثّمانين، لا أستسلم. لكن لأعترف، لا أعرف كيف أواصل رفع سديلة «العالم الجديد» كلّ يوم، لكنّني أنجح في ذلك. ففكرة إغلاق هذا المكان غير محتملة.

ماذا سيحدث لكلّ الأشياء داخله؟ ماذا سيحدث لثلاثين عامًا من الحياة؟ كيف يمكنني هجرة رفيقات المغامرة اللّاتي يأتين لزيارتي، بعضهنّ مع البنات، بل وأحيانًا الحفيدات؟

تغيّرت الأزمنة، ولا فائدة من الالتفات إلى الوراء. النّاس يريدون الأثاث الّذي يعمل. هل سمعت قطّ عن أثاث يعمل؟ ولهذا، العديد من البضائع الخاصّة لا تباع، ونتقدّم في السّنّ هنا معي... ولكنّني لا أستسلم. ما زال هناك من يأتي ومن يؤمن بشخصيّة الأشياء وجمالها وروحها.

منذ بضعة أشهر مات إينزو، زوج داليا، سبق وحكيت لك عنه. في أحد الأيام، منذ أعوام، أتى إينزو إليّ في السرّ وحكى لي أنه كان يعرف كلّ شيء. كان يعرف واستمرّ في حبّ زوجته بالطريقة نفسها، ولكنه لم يمتلك الشجاعة ليخبرها بذلك. لم يكن بحاجة إلى ذلك، كان الأمر جميلاً هكذا، بألا تعرف أنّ أمرها كُشف، وأن تستمرّ في الشعور أنها على سجيّتها في المنزل، بالدور الذي منحته لنفسها. لم أدرِ إذا كنت موافقة على ذلك، ولكنّني بالتأكيد لم أجادله. في نهاية الأمر، كانت حياته. ولكن شعرت بالأسف على ذلك.

منذ أن مات لا أعرف إذا كان عليّ أن أقول هذا لداليا. حقيقيّ أنه أراد أن يحبّها بهذه الطريقة، على الرّغم من كلّ شيء. ولكن في رأيي هي أيضاً أحبته، بغضّ النظر عن قصة فلوريان، ومن حقّها أن تعرف هذا.

أحسدها بعض الشيء، فلم يطالبها أحدٌ بأن تتغيّر. استحقّت الحبّ ببساطة على ما هي عليه.

لم يكن لي مثل حظّها. في ما عدا المتجر ومن يتردد إليه، لم يكن لي حظّ آخر في الحياة. ولكن حظ واحد يكفي إذا كان عظيماً. فكلّ منا موجودٌ في هذا العالم لسبب ما. هل تفهمين لماذا لا أريد إغلاق هذا المكان؟

بالأمس دخلت إلى المتجر فتاة صغيرة نظرتها

بريئة وعيناها تلمعان. عندما رأيتها فكّرت فيك على الفور. جعلتها تعدني أن تعود، وأعطيتها واحدة من إوزاتي الخزفية، التي لن أبيعها أبدًا.
أنتظرها كما أنتظرك، فقد انتظرتك حياتي كلّها. لا يمكنني فقدان الأمل في استمرار هذا المكان من بعدي. وعدتني تلك الصبية أنها ستفعل ما بوسعها. وأنا أصدّقها.

مع حبي،
دوروثي.

ابتلّت عينا السيّدة داليا، ثمّ بدأت الدموع تنهمر منهما بصمت، حافرة خطوطًا على وجنتيها النحيفتين. الآن فقط أدركت أنني لم أحضر لحظة بكاءٍ حقيقيّة لإنسان في حياتي، بخلاف أمّي، وتسبب لي هذا المشهد في تأثّر لا يحتمل.
- هل يمكن أن أفعل شيئًا لمساعدتك يا سيّدة داليا؟ أي شيء...
أخرجت منديلًا مطرّزًا، وأمسكته بين أصابعها:
إستمعي إليّ لو كان لديك بعض الوقت.
- أنا هنا.
أجيب، لكنّني أشعر بالخوف. تبدو عينا السيّدة داليا كأنهما رحلتا لتوهما في رحلة طويلة وشاقة، وترغب في الوصول إلى نهايتها بأيّ ثمن. هل سأستطيع البقاء بجانبها؟
بدأت: كنت أمرّ على «العالم الجديد» في أوقات

فراغي؟ إلى حدّ أنّني أحيانًا كنت آخذ معي أشغال الإبرة. في إحدى الأمسيات، وفي أحد أعياد الربيع التي نظّمتها دوروثي، تعرفت إلى فلوريان. لم يرغب إينزو في الحضور. اعتاد القول إنّ المتجر هو «شيء يخصني». لم يشعر فيه أنه على سجيته. كان فلوريان غجريًا، يعزف الكمان، وكان وسيمًا واثقًا بنفسه، ورحالة. روحه حرّة. مختلف تمام الاختلاف عن زوجي الذي كان متحفظًا وصامتًا ومحددًا.

تحدّث كأنها تحكي قصّة شخص آخر، وأنصت إليها كاتمةً أنفاسي تقريبًا، خشية أن أفسد عليها اللحظة.

- يُصدر فلوريان شعورًا بالمغامرة، فهو متعطّش للعالم، وكذلك أنا، لكنّني نسيت هذا. فقد وصلت إلى المدينة بفكرة أنّ حياتي ستتغير، وأنّني سأقوم باكتشافات وسأرى أماكن وسأعيش كلّ يوم شيئًا جديدًا، لكنّني وجدت نفسي في بنايتنا، أقوم بأشغال الإبرة. كنت وحيدة، وليس لدي إمكانيات لتغيير مستقبلي. في تلك الليلة، لم أعد إلى المنزل. أجل، لماذا تنظرين إليّ هكذا! كنت أنا أيضًا شابة يا عزيزتي! اخترعت عذرًا وغطّت عليّ دوروثي. قلت لنفسي إنّ إينزو سيصدّق ذلك، كان أطيب من أن يظنّ شرًا.

بدت قصّة تشعر نحوها السيّدة داليا بالخجل. أحاول ألّا أظهر أيّ انفعال، حتّى لا أؤثّر على

حكايتها.

تستمرّ بشيء من التّعب: في صباح اليوم التّالي، رفع فلوريان الغطاء الّذي وضعه فوقنا على أرض المتجر، ونظر إليّ بعينيه الشّديدة الخضرة. أردت أن يتوقّف الزمن هنا، لكنّه أمسك يديّ وقال لي: تعالي معي. كنت شابّة، هل هذا ممكن؟ ماذا كانت نواياه الحقيقيّة؟ هل يمكنني امتلاك الجرأة لأترك إينزو، الّذي أعيش معه حياة هادئة ومحبّة؟ هل يمكنني ترك إينزو الّذي أنقذني وأحضرني إلى المدينة، باسم احتياجي لشخص، أو حب، أو فرصة جديدة؟

أمكث وأنفاسي معلّقة، على الرّغم من أنّني يمكن تخيل كيف سارت الأمور. ذلك الّذي أريد معرفته هو السّبب.

- نظرت إلى فلوريان وهو يختفي بحقيبته الصّغيرة، بحثا عن مغامرة جديدة. قلت له: سألحق بك. قال لي: سأكتب إليك من كلّ مكان أقف فيه، لتعرفي أين يمكنكِ العثور عليّ. وفعل ذلك بالفعل. أرسل إليّ خطابات كثيرة - كنت أقرأها ثم أحرقها واحدا تلو الآخر في الحوض - عن أماكن رسمتها بعدها بأعوام، كأنّني ذهبت إليها. واستمرّت حياتنا أنا وإينزو هادئة، منفصلة عن الجميع. وكلّ يوم، لمدّة ثلاثين عامًا، سمعت الدّعوة إلى العالم، والرّغبة في أن أرحل دون أن أنظر إلى الوراء. في النّهاية مكثت

ثابتة في مكاني أحدّق إلى الباب.

ترفع كتفيها، وتضحك عيناها قليلًا، في استسلام. ثم تنظر إلى الخطاب الّذي ما زالت تمسكه في يدها.

- إذن كان إينزو يعرف... أتذكّر الآن الأمسيات الصّيفية الّتي قضيناها في المطبخ نلعب لعبة الكلمات، وفي كلّ المرات الّتي أنقذني فيها بوشاح عندما تنخفض الحرارة في المنزل، وفي الرّحلات الّتي قمنا بها ونحن نفحص كروت بوستال الآخرين، ونستعيد بالتّفاصيل خطّ سيرهم على المحيط الأطلسيّ، دون أن نترك المنزل قطّ، لأنّني في تلك اللّحظة لم أكن أشعر برغبة في هذا، لأنّني كنت أخشى ألّا أرغب بعدها في العودة، أن أندم على اختياري. هذا ما كنت أخشاه بالفعل.

ربّما لن يستطيع أحد أن يفهمها مثلي.

أقول: الاختيار مؤلم، سواء اختار المرء الرّحيل أم البقاء. لقد رحلت بالفعل لكنّني لا أتوقّف عن النّظر إلى الوراء.

تنظر إليّ السّيّدة داليا وكأنّها استطاعت أخيرًا أن تفهمني.

تجيب في النّهاية: ليت الأمر بهذه السّهولة، فالحياة صعبة، ولكنّها جميلة إذا عشناها مع أحد. ذكّرتني بتلك الفترة وبذلك المتجر وبمجموعة الصّديقات.

حيث كانت طريقي في السّفر. عشت وقتها فترة سعيدة على الرغم من كلّ شيء.. الاختيار صعب، لكن طالما نملك القدرة عليه، فنحن لا نزال على قيد الحياة. أنت تعرفين ذلك، أليس كذلك يا كنزي؟

(39)

أبي العزيز،

لقد منحتني اسم إلهة. لقد منحتني كلّ ما استطعت، لكنّه لم يكن كافيًا.

عشت أعوامًا مثل جزيرة، حتّى أصبح نداء البحر قويًا أكثر ممّا ينبغي. عندما ألقيت بنفسي داخله، اعتقدت، بسذاجة، أنّك ستلحق بي، أننا سنبني طوافًا معًا. ما لم أفهمه هو أنّ لحاقك بي يعني تخلّيك عن جزيرتك، والغرق.

المدينة مليئة بالنّاس. لا أعرف في ما يفكّرون، وما هي أمنياتهم ولا أحزانهم. لديهم أصدقاء، ذهبوا إلى المدرسة، إلى السوبر ماركت، للتزحلق ولمدن الملاهي. أراقب الألفة الّتي يحيون بها، والمستقبل الّذي يبنونه، والأطفال الّذين يكبرون والأشياء الّتي تحدث لهم. العالم موجود في الخارج وعلينا اكتشافه.

أبي، عندما وجدنا أنا وأندريا نفسينا في الغابة وحيدين، وكُسر كاحل أندريا حينها، كنت واثقة أننا لن نجو، شعرت بأكبر خوف في حياتي. ناديتك، ولكنّك لم تجب.

وقتها فهمت أنّك أمامي كلّ يوم، ولكنّك لست موجودًا فعليًا. وأنّني وحيدة مع أندريا. لا يمكننا الاعتماد عليك ولا على أمّي، لأنها هي الأخرى بدت غير موجودة. ذلك اليوم عندما عدت إلى

المنزل، لم أعد كما كنت. بالتأكيد لجوت. وذلك علّمني أنني ربّما أستطيع النجاة في أيّ موقف أتعرض له في الحياة. وها أنا هنا الآن، أراقب العالم من نافذة ما. لا بدّ أن أتعلّم كلّ شيء من جديد، وأن أنسى كلّ شيء.

أفكّر كلّ يوم في الأمسيات الّتي قضيتها معكم أمام المدفأة. في المرّات الّتي اصطحبتني فيها في رحلاتك الاستكشافية بحثًا عن الكنوز. في كلّ المرّات الّتي صلّحنا فيها شيئًا ما معًا. في الصفير المزدوج الّذي يخرج من بين شفتيك عندما تشعر بالفرح.

أبي، لقد صدَّقتُ بالفعل في حلمك. جسّدته في ذهني ملايين المرّات. عندما أسمع صوت الصفّارة الّتي وضعتها في المطبخ، سأقبض على أرنبي الفرو، وسأهرع إلى حجرتنا الكبيرة أسفل الأرض وأنا بالبيجاما. كنت أعرف أنّك ستهتم بإحضار الحقائب الّتي نُعدّها دائمًا في الخزانات. كنت أشعر بأنّني أعيش من أجل هذه الفكرة: أن أستعدّ لألجو، ستكون الخاتمة متوافقة مع كلّ مجهوداتنا. وستصبح آنذاك البطل الّذي طالما حلمت أن تكونه.

ولكن يجب أن تعلم أنّك بالنّسبة إليّ كنت دائمًا بطلًا.

ثمّ حدثت أشياء كثيرة. لا أريد أن أتحدّث عن أمّي. لقد رحلت دون أن أودّعك ودون أن

أحدّثك عن ذلك اليوم، وأظنّ أنّ هذا سيظلّ الشيء الوحيد الّذي أرغب في قوله لك. ولكنني أعتقد أنها أيضًا سترغب في أن نتمكّن من عناق بعضنا مرّة أخرى. لا أطلب منك أن تترك جزيرتك، ولكن أن تزور جزيرتي، وأن نعود مرّة أخرى ولو لأمسية واحدة كأب وابنته. الحصن دائمًا في قلبي، ولكنّ العثور على الطّريق الّذي يقود إليه أصبح في غاية الصّعوبة. تعاليا لتزوراني.

كتب لي أحدهم، ذلك اليوم، رسالة: رفض الموت يعني أيضًا رفض الحياة.

ربّما معنى أن نعيش ليس أن نُبعد الموت قليلًا كلّ يوم، ولكن أن ننسى وجوده، ولو للحظة واحدة، حتى نستطيع أن نؤمن بوجوده حقًا.

العالم يجرحنا، والمستقبل مُتزعزع، ولكنّنا لا نملك سوى الحاضر، ولذلك أطلب منك: لماذا لا نُجرّب؟

في انتظاركما.

ابنتك

جيا.

(40)

حَيُّنا حيٌّ فريدٌ بفضل من يعيشون به!
أماكننا بساكنيها!
إذا أنقذنا «العالم الجديد»، سننقذ جزءًا من الحيّ.
زوروا موقعنا لتنضمّوا إلينا.

صنعت هذا الصباح أكثر من ثلاثمئة ورقة، استخدمت فيها قلم الحبر السائل وورق تغليف كنت أحتفظ به في المنزل. سأضع واحدة أسفل كلِّ بابٍ من أبواب المجمع السكني، بداية من سلّمنا، ثم سأوزّع الباقي في الحي.

قبل أن أزحلق الورقة أسفل باب أكيله، ترددت. أتنصت لأفهم إذا كان في البيت: صمت مُطبق. لم أحدّثه قطّ عن المتجر. هل أوقع الورقة أم أتركه يخمّن؟ هل سيتعرف إلى خط يدي؟ بالتأكيد، ليس هذا النظام البيئي الأقدم في الأرض، ولكن ما الضرر من الرغبة في إنقاذ متجر؟ وإذا فشلت، فيم سيفكّر؟ في نهاية الأمر، يمكن للحياة أيضًا أن تفاجئني. لا أعرفه بالدرجة الكافية لأستبعده، واليوم أريد أن أؤمن بكل شيء. أنظر حولي قبل أن أضع قُبلة سريعة على الورقة، وكأنني أتمنى لها حظًا سعيدًا (أو أتمناه لنفسي؟) وأتركها لتجري على أرضية مدخله.

خلف ورقة تروفيو أضيف: يجب أن تأتي لتراه،

جيا.

بمجرّد أن أنتهي من سُلّمنا، أتوجّه إلى السّلالم الأخرى. أبواب قديمة، وجديدة، مغطّاة بالسّتائر، استُبدلت بجدران ثمّ فُتحت مرّة أخرى، أبواب بلافتة وأخرى بدون، أمامها مماسح مستهلكة، ومبقّعة، وممزقة، مع أحذية متروكة في الخارج، وأوانٍ مكدّسة بالمظلّات أو بدونها، نباتات حية وأخرى ميتة. كلّ واحد منهم يستحقّ دعوة! أمرّرها من أسفل الباب دائمًا، وقلبي يخفق خوفا ورعبا من فكرة أن يفتح أحدهم الباب ويفاجئني في تلك اللحظة.

كان كلّ شيء يسير على ما يرام، حتّى اصطدمت بالسيدة القاطنة في الطّابق الثاني من السلّم A، صاحبة الكلب الدلماسي. تصيح: لا أريد إعلانات!

يصدع صوتها في أنحاء البناية كلّها.

أهمس: لا تقلقي، إنّها مجرّد مبادرة للحيّ.

- ألست أنتِ الفتاة الّتي أحضرت قصعة ماء لكلبي أثناء اجتماع مجلس السكّان؟

- بلى، أنا هي.

تمسك بيدها الورقة: سأقرأها بتمّعن إذن. سلام!

انتهت الجولة، ولحسن الحظّ لم يطلّ أحد آخر. وآخر ما أفعله هو أنّني أعلّق منشورا على لوحة الإعلانات:

هل أنقذتم متجراً من قبل؟
زوروا موقعنا،
حيث يوجد عالمٌ صغيرٌ عظيمٌ في انتظاركم.

الآن ينتظرني «العالم الجديد». أتّجه إلى هناك بمزاج مختلف عن مزاج الأمس. فأنا ذاهبة إلى هناك مفعمةً بالأمل. ربّما يكون التمويل الشعبي شيئاً يبدو عبثياً لي فقط، فماذا يمكنني أن أعرف عن منصّات المشاركة، أنا التي ليس لديّ كمبيوتر أو هاتف ذكيّ؟ ربّما تكون أديلايده على حق، ويمكن للأمر أن ينجح. من جهة أخرى، إذا سار العالم بالطّريقة التي أتخيّلها أنا، لكان مختلفاً تماماً.

أعبر الفسحة وأنظر إلى أعلى، شرائط من السّحب الخفيفة في السّماء الزّرقاء، كأنّها القمر مرسوماً. أفكّر في خطاب أبي: بدأت أكتبه منذ خمسة أعوام، ثمّ فجأة، مساء أمس أنهيته. ثنيته، ووضعته في الظّرف. غلقه أشعرني أنّني تسلّمت رخصة القيادة. لا بدّ أن أقرّر أن أرسلها، أن أنطلق.

ألاحظ سيّارة فخمة، وللسّخرية، ركنت أمام بوّاباتنا، من ذلك النّوع المنخفض، الطّويل والقاتم مثل الحشرات. ليس من نوع السّيّارات التي أختارها، بأمانة، هذا على افتراض أنّني يمكنني ذلك، وإذا كان لديّ مكان أذهب إليه، مع احترامي الكامل للنّمل والخنافس الجميلة والفاتنة

الجمال.

يُفتح بابها إلى أعلى، ولدهشتي، أجد فيكوبريلو يخرج من ناحية باب السّائق. يأمر زوجته أن تحمل الأكياس من صندوق السيّارة الأمامي وينظر إليّ بضيق. لا يوجد بيننا شيء شخصي، لكن التناقض بين شخصيته واعتداده بنفسه، وبين مجمّعنا السّكني المتداعي يبدو مضحكًا للغاية.

توجّه لي الزّوجة نظرة حزينة، كأنّها تعتذر. أومئ إليها إيماءة بسيطة، وأنا مستاءة لأنني ضحكت عليهم، ولا أعرف إذا كانت محاولة لإنقاذ الموقف أو لتدميره تمامًا، أسلّمها نسخة من الإعلان.

ما زال باب المتجر مغلقًا. لا أرى حرير على صوف في أيّ مكان.

أربّت على المعدن الأحمر، ألاحظ التّراب عليه فأفكّر في ضرورة غسله لأعيده إلى لمعانه القديم. حقيقيّ، إنه ربّما خلال فترة قصيرة لن يكون داخله أيّ شيء، ثمّ تحلّ محلّه ماكينات مراهنات، أو هامبرغر مجمّد على ورقة خسّ تبدو من البلاستيك. لكن في الوقت نفسه، «العالم الجديد» موجود ومن الصواب منحه قيمته، فهذا ما يستحقّه متجري العزيز القديم. ستهتف السّديلة بمجرّد تلميعها: هنا توجد أشياء جميلة، ومن يدري، ربّما سيصغي إليها أحد ما.

أذهب سريعًا إلى المنزل لآخذ إسفنجةً وقماشةَ تنظيف ودلوا، حيث سأضع المياه الساخنة ومعيارٌ ثلاثة أغطية من الخل، آخذ معي أيضًا سلّمي الأسطوانيّ.

إنّه عمل متعب، ولكنّه يجلب الرّضا: أثناء الدعك، يتجلّى اللّون الأحمر اللّامع فيأخذني من جديد إلى زمن دوروثي، والضفيرة البيضاء الّتي تتدلّى على كتفها كأنّها حمامة، وإلى اليوم الّذي ذهبت فيه مع جدّتي وهي ترتدي ثوبا بنفسجيا وأزرق.

لا بدّ أنّ جدّتي فخورة بمحاولاتي. يُصيبني الحزن من فكرة أنّها لم تكن موجودة عندما عدت، وأنّها هكذا لن تعرف أبدًا أنّني غيّرت من حياتي. ظللت خلال أعوام إقامتي في الحصن، أكتب لها خطابات على ورق الخطابات الّذي أهدتني إيّاه أمي، ثمّ أقطعها إلى قطع صغيرة جدا خوفًا من أن أُكتشف.

جدّتي العزيزة، أفكّر كثيرًا فيكِ وفي ثوبكِ وروبكِ الأبيض والجيلاتين.

أرغب في العودة إلى المدينة، لكنّني لا أستطيع. لماذا لا تأتين أنتِ لزيارتنا، وربّما أعود معك لفترة؟ هل يمكنك إقناع أبي؟

جدّتي، كيف حال دوروثي؟ ما زلت أحتفظ بإوزّتها وأودّ لو أحضرتها لها يومًا ما.

إذا متنا، لتعلمي أنني سعيدة بأنّه كانت لي جدّة مثلك.

أنهيت تنظيف الجزء الأعلى من الباب، تسيل المياه بالخلّ، فأفكّر في عمل فني معاصر من تلك المعنونة: بلا عنوان. أنزل من على السلّم لأبدأ بالجزء الأسفل، وبينما أعمل، يسير صاحب محلّ التبغ ذهابًا وإيابًا على الرصيف خلفي.

يصيح في الهاتف: هل سيعطونني الآن هذا التمويل أم لا؟ تبًا، إنهم يموّلون الجميع، حتّى اللصوص! وأوراقي سليمة. لا، قلت إنني أودعت بالفعل كلّ شيء. ولكن يا للقرف، ما الذي ينقص أيضًا؟ هذا الموقف يضايقني وأنت تعرف ذلك، ماذا يحدث عندما...

لا أعرف إذا كان مستمعه يعرف ذلك، ولكن يمكنني أن أتخيّل ما يمكن أن يحدث. بينما أتجسس عليه بطرف عيني، أرى أنّه ينحني ليلتقط شيئًا. ويقطّب جبهته. أتعجب: إنّه أحد إعلاناتي عن التمويل الشعبي. لا بدّ أنّه سقط من جيبي.

بمجرّد أن انتهى من قراءته، وجّه نظرة شريرة إلى المتجر وأخرى أسوأ إليّ. أكمل الدعك، متظاهرة بأنني منهمكة مع بقعة عنيدة.

- سيصرخ الباب ألمًا.

أعرف على الفور صوت حرير على صوف، فألتفت.

- من يرغب في أن يُبدي حُسنه...

تبدو حرير على صوف مهمومة بطريقة لم أرَها مِن قبل. أطلب منها إذا كان في إمكاني أن أجفِف السّديلة بالقماشة قبل أن ترفعها.

تسخر، ولكن بنَبرة حزينة: وهل نصنع لها أيضًا ثَنيَة خاصّة أم نترك لها شعرها طبيعيًا؟

بمجرّد أن أنتهي، تعود إلى الخلف.

تقول لي: إرفعيها أنت بحقّ السّماء. خدمة كاملة.

أتذكّر موعد غداء الأمس، وأسألها إذا كانت في النّهاية عثرت على مكان في الحيّ.

تهزّ رأسها: لحقت بأبي في مركز المدينة، ولكن أتعرفين شيئًا؟ كان يمكننا جدا شراء الأكل ثم تناوله وأقدامنا تتدلّى على النّافيليو.

لا أفهم ماذا تقصد: الجلوس على النّافيليو فكرة جيّدة دائمًا.

- ليس عندما يُخبرك أبوكِ عن رغبته في التّنازل لكِ عن الشّركة ثم يتراجع.

تضع كومة ورق على إحدى الخزانات، وتغلق باب المتجر.

- من خلال بيع هذا المكان كنت سأُطلعه على قيمتي. ولكن كما يبدو، لا يكفي هذا.

- ولكنّكِ لم تبيعيه بعد.

- بالضبط. فأنا لم أدر الصّفقة جيّدًا. يقول إنّ ما يدمّرني هو ضعفي كامرأة، والأشياء الّتي يجب استعادتها، وما إلى ذلك.

فقدت حرير على صوف تمامًا مظهرها الواثق في نفسها. تبدو بالفعل محبطة، وأفهمها. أنا أيضًا عندما كنت أخطئ الإجابات في فلك نوح كنت أشعر مثلها.

- على كلّ حال، سبق وقدّمت لك نفسي، ولكنّك لم تفعلي هذا بعد. ما اسمك؟

أسألها، لأتخطّى المسافة الأخيرة الّتي تفصلنا.

- بياتريتشه.

- بياتريتشه! مثل...

- حبيبة دانتي، وما إلى ذلك.

- في الحقيقة كنت أفكّر في مسرحيّة شكسبير «الكثير من اللّغط حول لاشيء». بياتريتشه تلك تعدّ النّموذج الأوّل للنّسويّة.

- تخيّلي.

- توجد شخصيّات نسائيّة بخلاف العشيقات في مسرحيّات شكسبير!

أقول لها بابتسامة.

تسخر: الآن، وقد عرفت هذا، أشعر بالتّحسّن.

- سأقول لك شيئًا يشعرك بتحسّن حقيقيّ. بائع التّبغ سيقدّم عرضًا بالتّأكيد. سمعته للتو وهو

يتحدّث عن هذا في الهاتف.

تزفر هي: لا يهمّني، في رأي أبي لست مستعدّة بعد لأتولّى مسؤوليّة الشّركة، وربّما لن أستعدّ أبدًا. على كلّ حال، سيكون من الأفضل أن أجد لنفسي وظيفة لأنّ المشاريع الاستثماريّة غير مناسبة لي.

- يؤسفني أنّ أباك يفكّر بهذه الطّريقة، ولكنّني أراه مخطئًا. و... يؤسفني أنّني تدخّلت في عملك.

أفاجئ نفسي بِقَول هذا.

تومئ هي بيدها، تبدو على شفا البكاء: لا أحد يمكنه معارضة الفنون الجميلة.

أعترف: طالما أراد أبي... أن أستمرّ في أن أكون جزءًا من مشروعه. لم يكن يهمّه إذا كنت ذكرًا أو أنثى. لكنّني رحلت وتركته.

وألمس المَظروف في الجيْب الجانبيّ من الأوفرول: كتبت له خطابًا أطالبه فيه بهدنة. إستغرقني هذا خمسة أعوام.

أتساءل كيف انزلقتُ على أرصفة الثّقة هكذا: أودّ كثيرًا لو أرسلته، ولكنّني أقول لنفسي: إذا لم يبحث عنّي على الإطلاق، ماذا يمكن أن يهمه منّي؟

- إذا لم يقبلني للعمل معه، ماذا يمكن أن يهمّه منّي؟

تنظر كلٌّ منّا إلى الأخرى.

وتقول في النّهاية: لا بدّ أن ترسليه.

أتخيَّل أبي يفتح صندوق البريد في نهاية الشّارع، كعادته كل أسبوع، يفعل ذلك للتأكّد ليس أكثر. لم يكن يصل إلينا أيّ بريد في الحِصن، في ما عدا بعض الإعلانات ذات طابع مهمل، ولكن يمكن أن يعبث أحدهم بالصندوق أو يدمّره، لذلك كان يذهب للتأكّد دائمًا.

أتخيَّله يُحدّق في الظّرف مُندهشًا، مُتجمّدًا، مُتأثّرا. ثمّ أمامه طريقان، إمّا أن يتركه هناك، أو يلقي به أو يحرقه، وإمّا أن يأخذه بين يديه ويتأمّله عن قرب أكثر. هل ستكون لديه الشّجاعة لأن يفتحه؟ وهل إذا قرّر قراءته سيقرأه حتّى النّهاية؟

أتخيَّله واقفًا على قدميه، ثابتًا في حذائه الضّخم في الشّارع، لحيته طويلة وعيناه ضيّقتان، متعبتان، ومُحاطتان بتجاعيد غائرة، منغرستان في الكلمات الّتي كتبتها بقلمي الحبر على ورق الخطابات ذي الزّرافات، من منزل الجدّة في ميلانو. في العالم البعيد هناك.

أتخيَّل يديه القويّتين تُمسكان بالورقة أمام عينيه، محاولًا ألّا يضغط عليها حتّى لا يمزّقها، ربّما يترك على الحوافّ، على الرّغم من محاولاته، بعض البصمات السّوداء. أتخيّله يهزّ رأسه، يسبّ، يلفّ الخطاب، ثمّ أعيد الشّريط من جديد وأتخيّله يترك دمعة تُبلّل لحيته وتنسال حتّى تصل إلى ياقة

قيصه المربّعات.

تُرى هل يفتقدني كما أفتقده؟

- ها هنّ العشيقات السّعيدات يَصلنَ.

تُعلّق بياتريتشه، وهي تقطع تأمّلاتي بينما تشير بالسّبابة خلفها، خارج الحاجز الزّجاجي.

أحطّ في المتجر بسرعة البرق، ببعض الدّوار. في الواقع تقف أريا على العتبة مع أديلايده، الّتي تصيح بسعادة: حصلنا على استجابة بالفعل!

ودون أن تهتمّ بوجود بياتريتشه، تُعلمني بأنّ إعلاننا رآه حتّى الآن أكثر من عشرين شخصا، ووصلتنا مساهمتين، الأولى بخمسين يورو والثّانية بعشرين. وعندما رأت إحباطي رفعت السّبابة: إنّها السّاعة الأولى، سبعون يورو في أوّل ساعة.

تمرّ بياتريتشه بيننا بنظراتها، وكأنّها تشاهد مباراة تِنس بين فضائيين.

في النّهاية تشرح لها أديلايده: لقد نظّمنا تمويلًا شعبيًا.

تضرب بياترتشه جبهتها بِكفّها: لم يكن ينقصنا سوى هذا.

- لا نريد إعاقتكم، فقط الاشتراك في المزاد بطريقة قانونية.

- أنتنّ مجنونات!

ولكنّها قالتها كأنّها تمدحنا.

التفتتْ أديلايده نحوي: جيا، كلّ شيء تحت السّيطرة، وسننجح.

تثلج قلبي رؤيتها مُقتنعة إلى هذا الحدّ.

تعلن الآن وهي تُخرج هاتفها المحمول: الآن حانت لحظة الصور.

تتحمّس أريا: الصّور، الصّور، أنا سأساعدك يا ماما.

تلتقط أديلايده صوراً للمتجر، ولمنتجات من كلّ الأنواع من مختلف الزّوايا (من أجل الضّوء!)، أتأمّل تعبير وجهها العنيد، والنّشاط الّذي تتحرّك به. أفكّر في ذلك الّذي قصّ أجنحتها. هل تلقي بنفسها كاملاً في الحياة بهذه الخفّة المدهشة حتّى لا تشعر بنفسها مقيّدة مرّة أخرى؟

كانت دوروثي ستُحبّها، أنا متأكّدة من هذا. كانتا ستقضيان السّاعات في التّحدّث، جالستين على المقاعد المكسوّة بالقطيفة، وهو الشّيء البعيد عن إمكانيّاتي. لو كانت معي المرّة الأولى الّتي فيها دخلت إلى هنا أوّل مرّة، لتركتهم ليقرأوا عليها أوراق التّاروت، بل وستقدّم نصائح حب أيضا لذلك الشّاب، أنا متأكّدة من ذلك.

الآن يُمكننا أن نجعل الجميع يُجرّبون أثوابها الخلّابة، وربّما تكتشف أيّة آلهة تسكن في كلّ شخص يدخل إلى المتجر. أتخيّلها خارجة من وراء الحاجز الخشبي، وبين يديها سحابة من التّلّ البنّي،

وتقول: النّاس رائعة.

- جيا، تعالي. اجلسي هنا وتظاهري بأنك تصلحين التّماثيل الصّغيرة.

- ولكن في الحقيقة...

أردتُ الاعتراض، لم يلتقط أحد صورًا لي قطّ، ولا يبدو لي الوقت المناسب لأنّ أبدأ الآن، وأن أجلس خصيصًا لهذا، لكنّها وضعت بالفعل بين يدي أحد التّماثيل الصّينيّة الخزفيّة. أخفض نظري لأهرب من العدسة.

- جيّد جدًّا، جيّد جدًّا...

استمرّت في التّرديد وهي تصوّر في متتالية سريعة.

- أشعر بالرّياح تدفعنا إلى الأمام.

بمجرّد أن تنتهي من التّصوير، تعانقني سريعًا: سأهرب للذّهاب إلى العمل، وأنت إلى الحضانة. تشير إلى ابنتها: الحياة صعبة على من يصارع ليحسن مستقبله.

تتنهّد بياتريتشه، وهي تنظر إليها تبتعد: لا أدري أيّ عمل يقوم به أبوها، ولكن لو كانت لديه شركة فأنا متأكّدة أنّه سيسعد بتركها لها.

(41)

بينما أُصلِح مقعدًا بِلَون التّركواز، تسير بياتريتشه ذهابًا وإيابا بلا هوادة، دون أن تتناول الغداء مع أبيها. لا تزال غاضبة منه. والشّخص المُهان شخص ضائع. لا بدّ أن يتوقّف العالم لينظر إليها ويواسيها. أتمنى فعل ذلك، لكن لا أعرف لو كانت مشاركتها خبرتي ستفيدها بشيء.

أخفض نظرِي إلى المقعد: عاد إلى تألّقه، حتّى وإن كانت البقع لا تزال ظاهرة فيه. ربّما حدث ذلك عن طريق الاتّصال غير المقصود بمصدر حرارة. أجدها تمنحه طابعًا خاصا.

تلتفت بياتريتشه فجأة: إِسمي، أعتقد أنّك أصبتني بالعدوى.

- ماذا تقصدين؟

- لديّ فكرة مجنونة. لا أستطيع نزعها عن ذهني، لكنّها تستحقّ التّنفيذ. هذه الصّفقة حاليا في يدي، سواء رضي أبي أو لا. عادةً ما تُباع الأماكن فارغة، بلا أيّ شيء داخلها: لذا فهذه الأشياء مُلكي. وأنا سأتنازل لكم عنها. يمكنكم بيعها وإضافة ثمنها إلى ما تجمعونه عبر التّمويل الشّعبيّ لشراء المتجر، سيكون هذا أفضل، لكن إذا لم يحدث هذا سنتقاسم الرّبح.

- هل أنتِ جادّة؟!

- لقد أصبحت لِتوّي شخصيّة جادّة حقًّا، بعدما

هجرت تأدِيَة دور الشّخصيّة الجادّة.

لا أعرف كيف يجب ردّ فعلي. لا أستطيع التّوقّف عن الابتسام.

تبتسم هي أيضًا.

- أشكرك على الجنون! كَم فيّاض منكِ. سأتحدّث في ذلك مع أديلايده.

- إفعلا هذا قبل أن أعود عن قراري.

بينما ألتفت إلى المقعد، ألمح وجود شخصٍ ما في ما وراء الواجهة الزّجاجية. لوهلة، أشكّ في قدرتي البصريّة نفسها، لكنّ الصّورة واضحة تمامًا. معطف وسحابة من الشّعر البرتقالي، إنّها السّيّدة داليا!

تُصرّح لي بمجرّد أن أقترب منها: ليس لديّ إنترنت لأرى موقعكم. لذا أتيت بنفسي كما كنّا معتادات أن نفعل في زمنٍ ما.

هجوم بسيط يبدو دفاعًا، وكأنّها ترغب في أن تقول: أنا لا أشعر بالحنين.

أشعر بفرحٍ غامر لأنّها أتت إلى هنا. لا أُثقل عليها، بل أقدِم لها ذراعي أدعوها للدّخول.

أُشجّعها: تعالي لترى بعينيك.

ويبدو لي غريبًا كيف أراه أنا أيضًا كأنّها المرّة الأولى.

تفحص السّيّدة داليا المتجر، حريصة على ألّا

يفلت منها أيّ انفعال، لكن على الرّغم من ذلك، يظهر تأثرها، إلى حدّ أنّ بياتريتشه تنظر إليّ بتساؤل، أجيب عليه بإيماءة إيجابيّة برأسي لأطمئنها.

- لقد فعلتِ عملًا عظيمًا يا فرحتي، أجل، أحسنتِ.

أخيرًا تؤيّدني السّيّدة داليا، بينما تمسك بذراعي. تستمرّ في رؤية كلّ شيء، حتّى تفلت منها دمعة، تُجفّفها سريعًا بالسّبابة.

- أرأيت لماذا لم أكن أرغب في المجيء؟ فالماضي مضى. لكنّه بالنّسبة إليك حاضر. وأنت صبية عزيزة على قلبي، وتقومين بمشروع جميل. أريد أن أخبرك شيئًا.

ثمّ تشير إلى الأريكة الموضوعة في الصّالة الرّئيسيّة: لنجلس هنا دقيقة. هل يمكن ذلك؟

أجلس بجوارها، دون أن أتمكّن من تخيُّل ما ترغب في قوله.

تبدأ: ليست لديّ مدخرات، ولكن إذا أردتم سأعطيكم لوحاتي، لتجرِبوا بيعها.

هل ستتنازل عن أعمالها الفنّيّة؟ تلك الدّقائق المُنقذة، الصّغيرة منها والكبيرة؟ تلك الأنسجة الّتي عليها سكبت كلّ ذاتها، وأحلامها، وندمها ووحدتها؟

إستمرّت: أريد التّخلّص منها، احتجت إليها فترة،

لكن انتهى هذا الآن. أتحدّث مع حبّي الحقيقيّ: الواقع.

تهمس لي بياتريشه: ليس فقط ناد للتّسلية، ولكن للاعتراف أيضًا. لا أريد أن أثقل عليكما، سأرحل.

تضيف وهي تمرّ بجوارنا.

تكمل السّيّدة داليا بمجرّد أن نصبح بمفردنا: لأعوام، اعتقدت خطأً أنّ حياتي الحقيقيّة تنتظرني، حيث لم أجد الشّجاعة حينها، أمّا الآن فقد فهمت أنّ الأمر ليس كذلك. حياتي الحقيقيّة هي ما عشته بالفعل، وليس ما تخيّلته. إنّ المتخيّل يبدو لنا دائمًا أفضل ممّا نعيشه، ولكن ما نعيشه هو الواقع: وهذه هي قيمته الحقيقيّة.

- سيّدة داليا، لوحاتك رائعة الجمال.

هل هذا لأنّني أتعلّق بالأشياء كأنّها أشخاص؟ لكن، ما رأي جدران منزلها في ذلك؟ وهي، كيف ستخلد إلى النّوم محاطة بجدران عارية، دون صحبة لوحاتها؟

- حبيبتي، يجب أن نتعلّم التّخلّي...

أردت أن أسألها: ولكن كيف نفعل ذلك؟ هل يمكنك أن تعلّميني! ربما هو كذلك بالفعل، هل استجماع الشّجاعة في أيّ سنّ؟ وهل يمكن وداع النّدم على الأمنيات القديمة؟ أريد أن أتخلّى عن أشياء كثيرة، بداية بأفكار معينة، ثمّ ماضي

الّذي يتبعني كظلّي، والشّعور بالقمع الكامن داخلي، و...

بينما أبحث عن كلمات مناسبة، تدخل أنجلينا.

تسألني بتعجب: نجمتي، كنتِ تعرفين إذن؟ تعرفين حكاية الحافلة وما إلى ذلك؟

يفلت مني تعبير بالجزم: بالفعل. ولكنّني أردت أن أحترم حلمه و...

- اِهدأي، تمام. أعرف كلّ شيء. تمام. ولكن سائق أوتوبيس؟ أقصد، أنا أعرف أنّه لا يحب «اللاشيء»، كيف لي أن ألومه، فصبيَة اليوم يجرون خلف أشياء أخرى. وأفهم رغبته في التمرد على أبيه، وأفهم أنّه متعجِل ويبحث عن طريقه، لكنّه كان دائمًا صبيًا حريصًا، وأعرف أيضًا مدى حبّه لجدّته... أفهم كلّ شيء، ولكن أن يحلم بأن يصبح سائق حافلة؟! مِن في مثل سنه يحلمون بأن يكونوا رواد فضاء، مخرجين، أطباء!

أعترف: طالما حلمت أن أفتح متجر حدائق. لكن لحسن الحظّ أنّ أوجينيو يحلم بشيء آخر، أليس كذلك؟ ثمّ لا بدّ أنّه أمر شديد الجمال أن يقود أحدهم ديناصورات الطّريق تلك.

- إن كنتِ تعرضين الأمر كذلك...

تنظر إليّ أنجلينا ورأسها مائل إلى أعلى: حدائق؟

أفتح ذراعَيّ: هذا ما حدث.

عندئذٍ فقط أدرك أنّني لم أقدّم بعد أنجلينا إلى

السّيّدة داليا. تعرف كلُّ منهما الأخرى بالشّكل فقط، هذا ما قالتاه لي، ويبدو أنّ بينهما نوعًا من التّفاهم.

أخيرًا، تقول لها السّيّدة داليا، وهي تشعر أنّها مدعوة في القضيّة: يمكن أن يسير الأمر إلى الأسوأ يا عزيزتي، وسائق الحافلة ليس عملًا سيئًا.

تلحق بنا أديلايده أيضًا. أسرع لمقابلتها حيث أتشوّق إلى أن أخبرها عن عرض بياتريتشه.

تعلّق بنبرة ساخرة: آه، والآن أصبحت بياتريتشه.

إلّا أنّها في النّهاية تتحمّس: كنت أعرف أنّها، في الأعماق، تحتاج فقط إلى هزّة.

- يا صبايا!

تصيح بريشيللا، وهي تظهر أيضًا إلى العتبة: شيء جميل أنكنّ هنا. جربت الحضور، بلا أمل كبير، بعد ذلك الذي حدث يوم الأحد.

- اتّخذت الأمور منحى غير متوقّع.

دعتها أديلايده للدّخول لتقصّ عليها كلّ شيء. وجدنا أنفسنا جالسات حول الطّاولة الصّغيرة، ونحن نفكّر في ما يجب علينا عمله.

تضيء أديلايده فجأة: لديّ فكرة! لماذا لا ننظّم يوم بيع مفتوح كبير يوم السبت؟ بيع للحيّ؟

تصفق كلّ الأيادي، بحماس، بينما أشعر أنّني

غير مستعدّة تمامًا: يوم بيع، بمعنى؟

تشرح أديلايده، أنّه نظرًا لمرض ياتريتشه، يمكننا فتح المتجر بشكل استثنائي لبيع البضائع، وربما تصبح فرصة جيدة لجمع النقود والتحدث عن المشروع. ينقبض قلبي لمجرد فكرة الانفصال عن كلّ تلك الأشياء، ولكن سرعان ما يجتاحني شعور بالإثارة لأنّنا سنضمّ إلينا أيضا سكّان الحي.

تقفز أنجلينا: سأحضر أنا الطّعام.

اقترحت بريشيللا: ويمكننا أن نضع ديكورًا لطيفًا يتّسع ليصل فوق الرصيف.

معبِرةً بذلك عن رغبتها في الاشتراك.

تمتمت السّيّدة داليا أنّ لديها بعض المعارف يمكن أن تُرسلهم إلينا.

تسأل أديلايده: جيا، ما رأيك في الفكرة؟ لماذا لا تقولين شيئًا؟

- ماذا إذا لم يأت أحد؟ وإذا لم نَبِعْ شيئًا؟ وإذا عرقلنا بائع التبغ؟

نهرتني السّيّدة داليا: إذا، إذا، إذا! وإذا انتهى العالم غدا؟

أردت أن أقول: بالضّبط!

قالت أديلايده لتختصر الحوار: لو لم نجرّب، لن نستطيع معرفة كيف ستسير الأمور. وحتى إذا تحقّق واحد من سيناريوهاتك، حسنًا، سنكون

على الأقلّ قضينا وقتًا مُمتعًا للغاية.

أستسلم: حسنًا.

يُصفّقن. ثمّ تُخرج أديلايده مُفكّرة من حقيبتها، وتبدأ بإعداد قائمة بالأشياء الّتي يجب تنظيمها. نحتاج إلى الدّعوات لنضعها في فتحات بريد كلّ سكان الحيّ، ونحتاج إلى عمل الكثير على موقع الإنترنت، وتعليق لافتات، وإجراء مكالمات، وطرق أبواب المعارف، والتّحدث مع أصحاب المتاجر، والتّواصل مع البلوجرز وصفحات المعلومات، وإخبار السلطات... بل من الأفضل ألّا نفعل هذا. القائمة طويلة جِدا، وخاصّة أنه ليس أمامنا من الوقت سوى يومين.

أحد أغلى الأشياء الّتي ربحتها من هذا كلّه هي أديلايده. وهذا ليس أمرًا هيِنا. أعود إلى المنزل وأنا أصفِر، ورأسي مليء بأفكار مُشجِعة.

أتوقّف أمام فتحة صندوق الخطابات الحمراء، على النّاصية بين شارع متجر «العالم الجديد» وشارع منزلنا.

من أجل المدينة، ومن أجل كلّ الجهات الأخرى. ملخّص رائع للخطاب الّذي أمسكه بِيدي.

أنفخ فوقه وكأنّني أبثّه بعض السّحر.

أبي في نهاية الطّريق الضّيّق، أصابعه القويّة تُمسك بالورقة ذات الزّرافات، البُقع السّوداء،

كلماتي. أخي ورغبتي العارمة في أن يكون بجانبي من جديد.

أقرِب الظَرف الأبيض مكتوبٌ عليه عنوان الحصن، من فتحة صندوق البريد. واقفًا على الحافّة بين ما لم يكنه في كلّ تلك الأعوام، وكل ما قد يكونه إذا أتتني الشّجاعة لأن أدفعه دفعة صغيرة وأطيّره حتّى يصل إليه، في تلك الزّاوية البعيدة من العالم.

بمجرّد أن يدخل، يُصبح خارج سيطرتي، ولن يعود ملكي وحدي. وسواء جاءني رد أو لا، فهذا أمرٌ على الحياة أن تقرّره. يمكنني الانتظار، مدركة أنني فعلت كلّ ما بوسعي. أضغط على أسناني، وأتنفّس. أدفعه برفق في الثّقب. يحطّ على الخطابات الأخرى. الآن أصبح له أصدقاء، ولم يعد وحيدًا. سلام يا أبي.

(42)

في سنّ التّاسعة، بدأت كتابة خطابات لصديقتي روسيلّا. لكنّها لم تعرف ذلك.

روسيلّا طفلة حقيقيّة، لكنّها لم تكن صديقتي بالفعل. كم حلمت أن نصبح أصدقاء، حتّى وإن كنّا نلتقي فقط، عندما أرافق أبي إلى محلّ الأغذية في أقرب بلدة منّا، من أجل المؤن. كانت رحلة طولها عشرون كيلومترا، خمسة منها في الطّرق الضّيقة الّتي تأخذنا من الحصن إلى طريق البلدة.

تقضي روسيلّا وقتها جالسة على كرسيّ بجوار الخزانة، ورأسها منحنٍ على دفتر. على الرغم من أنّ واجهة الثّلاجة تخفيه جزئيًا، لكنني استطعت رؤية رائدة الفضاء ميركوريو(15) على الغلاف، رائدتي المفضّلة، حيث كنت أرى نفسي فيها. تعرفت إليها من خلال مجلّة ثمينة للغاية، إلى درجة أنّني كنت أتعامل معها كأنّها من ورق البردي، لكنّها للأسف سقطت بعد ذلك في البئر.

ترتدي روسيلّا ملابس آخر صيحة مليئة بزينة لامعة، ليست تلك الّتي ضاقت على الأخ الأكبر، كما يحدث معي. تذهب إلى المدرسة، ولذا تعرف كلّ أطفال البلدة الّذين يدخلون المتجر من وقت إلى آخر مع أبويهم أثناء وجودنا، لكنّها تكتفي بتحيتهم بإيماءة من ذقنها أو بـ«أهلا» خفيفة، بينما تغرق في عالمها. أمّا أنا، فلم تكن تنظر إليّ، فأنا

بالنّسبة إليها غير موجودة. كنت متأكّدة من ذلك، لأنّها لم تتعرّف عليّ بعد.

ما جذبني إليها بشدّة، طريقتها الغامضة والمتعالية. الحزن والشعور بالوحدة النابعان منها جعلاها مختلفة عن باقي الأطفال. كنت متأكّدة بأنّ بيني وبينها أشياء كثيرة مشتركة، على الرّغم من الاختلاف التام في بيئتنا. مصيرها هي أيضا كان محتومًا، على سبيل المثال، بدأت بالفعل في مساعدة والديها في محلّ الأغذية. تكتب في دفترها عندما لا تكون جالسة على المقعد، تعيد تنظيم الأرفف بجهم، بل لا تعتذر عن خطأ بدر منها أثناء قيامها بعملية حساب خلف الخزانة، ولا حتى مع العملاء الصبورين. ما أحتاجه فقط، هو أن أنتهز الفرصة المناسبة، لأوجّه إليها بعض الكلمات، ليصبح بعدها كلّ شيء طبيعيا.

تخيّلت هذا المشهد في ذهني مئات المرّات: ينسى أبي شيئًا في السيّارة الباندا، ويتركني بمفردي في المتجر أخيرا. أقترب من واجهة الثلاجة، وبدون ترتيب، أقول لروسيلا إنّ دفترها رائع، وإنّني أنا أيضًا أحبّ رائدة الفضاء ميركوريو، لأنّها رقيقة، ووحيدة وترغب في أن تصبح طبيبة.

كنت سأسألها إذا كانت تعرف أنّ قصر الرّائدة ميركوريو، اسمه أيضًا قصر مارينر على اسم مارينر 10، أول مسبار فضائيّ حطّ على كوكب عطارد (ميركوري). وقتها بدا عطارد صخرة لامعة

مليئةً بالحفَر، مثل التّجاعيد على وجه البحار، وهي تحكي تاريخ تأثير الكُويكبات عليه. كلّنا نتأثّر بالكُويكبات في حياتنا، ولم يكن ما حدث لعطارد سرا غامضًا. فغياب المجال الجوّي يجعل سماءه سوداء حتّى في النّهار، وتبدو الشمس من فوقه أكبر ثلاثة أضعاف.

وبعد أن أكشف لها كلّ هذا، سأسألها كم عمرها، ثمّ سأتظاهر بعدها بالدّهشة لأنّني اكتشفت أنّنا في العمر نفسه، وهو الشّيء الّذي أعرفه بالفعل، حيث سمعتها تقول سنّها في إحدى المرّات. سأسألها إن كانت تجد التّسلية في المدرسة. ستدهش روسيلّا من حياتي على أطراف الغابة. وستسحر بي كثيرًا كما أشعر أنا نحوها، ستنشأ بيننا صداقة مراسلات، ونتشارك عبر الكلمات رؤيتنا للعالم. نظرًا ليقيني بأنّ هذا سيحدث إن عاجلًا أو آجلًا، بدأت بالفعل أكتب لها. يقول أحد خطاباتي:

عزيزتي روسيلّا،

السّبب الحقيقيّ الّذي من أجله أُعجب بكوكب عُطارد، أنّه من الصعب اكتشافه. قربه من الشّمس يجعل مسألة الوصول إليه معقّدة، وتحتاج إلى تحكّم حراريّ في الموجات، معقّد للغاية. لهذا السّبب لا تُنظّم طلعات استكشافيّة لرؤيته عن قرب. إنّه وحيد وغامض، تمامًا مثلي أنا وأنت.

هل تعرفين، أنّه بعد بلياريْن من السّنوات من

الانفجار الكونيّ، وُجدت حياة على فينوس؟ ثمّ زادت حرارة الكوكب جدًا، فاحترق كلّ شيء، حكى لي أبي هذا. في رأيه، ما حدث لفينوس ربّما يحدث عن قريب لكوكب الأرض.

أعرف أنّه ليس جيّدًا أن نحمل الأخبار السيّئة، ولكن أريد أن أكون صادقة معك. فأنت صديقتي المفضلة. ألا تشعرين بالخوف؟

محبّتي،

جيا.

جالسةً على الأرض، أفتح الملفّ الّذي يحوي الخطابات الّتي كتبتها لروسيلا في زمنٍ ما. كانت من الأشياء القليلة الّتي وضعتها في حقيبة الظهر في لحظة هروبي من الحصن. أبدأ في إعادة قراءتها، وأخيرًا، أعرف لماذا شعرت باحتياجي إلى أخذها معي، فقد كانت جزءًا أساسيًا منّي، ذلك الّذي منحته لشخصٍ آخر. ماذا كان سيحدث لو كنت أرسلت تلك الخطابات للبقّالة، فالعنوان معي، كتبته بعناية على ورقة بيضاء؟ هل كان أبي سيخمّن ذلك العطش للعلاقات الّذي طالما شعرت به؟ ذلك الاحتياج الملّح للآخرين؟

الشّيء الوحيد الّذي استطعت التّفكير فيه، ليلة هروبي من الحصن، هو أنّه في كلّ حياتي لم يكن لدي صديق قطّ، وأنّني لن يكون لي واحد أبدًا. كلّ ما يشعر به الآخرون سيظلّ سرًا، وما

حدث بداخلي أعرفه أنا فقط، بدا وهمًا، دون أن أستطيع مشاركته.

(43)

تسأل بياتريتشه، الّتي لم تتراجع فقط، بل ها هي تمدّ إلينا يد المساعدة: هل نضع الأريكة الصغيرة في الخارج؟ أم ربّما تجلب الأمطار بهذه الطّريقة؟
أرفع عيني بعفويّة، فلا أثر لأيّة سُحب.
- أجل، أرى أن نضعها في الخارج.
تجيب بريشيللا دون أن تنتبه للمزحة: وأرى أن نضع بجوارها كرسيًا ومقعدًا، وربّما طاولة صغيرة. كهذه الّتي قرّرت أن أبتاعها.

منذ اليوم، وبريشيللا من أكثر داعمينا كَرَمًا. تقول إنّها بكلّ الأشياء الّتي ستبتاعها من «العالم الجديد»، ستصبح أخيرًا الشّقّة الّتي تعيش فيها، مسكنها. وبعض الأشياء الّتي أنقذناها ستنقذها، وذلك بأن تقرّبها قليلًا من نفسها الأصليّة. وها هو ردّ ملموس على السّبب الّذي لأجله أحارب من أجل هذا المكان. منذ يومين وليلتين، وأنا منهمكة في تجديد كلّ شيء هنا في الدّاخل، بدءًا من طفايات السّجائر الّتي تعود إلى فترة العشرينات، حتّى لعبة شطرنج قديمة للتّسلية في أوقات الرّحلات، مرورا باللّافتات، ومفارش صغيرة، وحليّ، وشمعدانات، ودفاتر، وعدّة جولف، ومصابيح ذات أشكال غاية في الغرابة.

لن يعرَض كلّ شيء للبيع. بعض الأشياء ستظلّ هبةً للمتجر. على سبيل المثال: الصّالون

الصّغير الّذي اعتادت دوروثي أن تستقبل فيه صديقاتها، وطاقم الشّاي، وأوزتها الخزفية، والبيانو. اتّفقنا جميعا على أنّه إذا كُتب لهذا المكان أن يفتح من جديد، لا يمكن أن يحدث ذلك دونها. فهي هوية المكان.

تقترح أديلايده: كيك وبسكويت أنجلينا يمكننا أن ننظمها على البيانو. ما رأيكن؟

إنّها تقريباً ساعة الغداء، وليس لدينا وقت كثير قبل فتح الأبواب. بريشيلا أكثرنا تنظيماً تعهد بالمهامّ لكلّ منّا: ستنقل أديلايده بمساعدتي الأثاث الضخم الّذي ظلّ في وسط المتجر، وستهتمّ بياتريتشه بتنظيم المعروضات الصّغيرة، وستنظّف أريا التّراب، أمّا هي فستنظّم الجزء الخاصّ بالخزانة.

تبدأ أريا: ولكن كم هنّ جميلات بناتك يا مداما دوريه، كم هنّ جميلات!

تلحق بها أمّها: إنّهنّ جميلات وسأحتفظ بهنّ، إنّهنّ جميلات...

لكنّها بعد أن تنظر إلى هاتفها، تتوقّف ثمّ تقول: يا إلهي!

- هل حصلتم على تمويل مجهول بمليون يورو؟

ترفع أديلايده عينيها عن الهاتف، وتوجّه نظرة مرتبكة إلى بياتريتشه، الّتي تحدّثت للتو، ثمّ إلى الأخريات. تعود إلى الشّاشة ثمّ إلينا. وفي النهاية،

تمرّر لي الهاتف كأنّه قنبلة على وشك الانفجار. لا تبدو أخبارًا جيّدة.

على الشّاشة، ظهر الشّات الخاصّ بصفحتنا للتّمويل الشّعبي، حيث وصلت رسالة:

لتحاولن إذن أيّتها الدّجاجات. حاولن فقط إعداد عرضكنّ الأحمق اليوم في الظّهيرة. أنصحكنّ بإزالة كلّ ما في ذلك المكان بهدوء، بدلًا من التّدخّل في أشياء لا تخصّكنّ. ثمّ لا تقلن إنّني لم أحذّركنّ.

هل هذا يحدث بالفعل؟ الرّسالة من مجهول، والموقع يسمح بذلك. أرفع عينيّ نحو الأخريات، يطلبن أن يعرفن. أريد قراءة الرّسالة بصوت مرتفع لأشاركهنّ، وأريد فعل ذلك بلا مبالاة، أو على الأقلّ بشيء من الطّمأنينة، لكنّ محيط الأشياء أصبح متزعزعًا ومشوّشًا. أعيد الهاتف إلى أديلايده، وأترك نفسي لأسقط على المقعد. أستمع، بينما تعيد هي الرّسالة، إنّها بعض التّهديدات الّتي تلقّيناها.

لبعض الوقت، لا أحد منّا يفتح فاهه. خيّم صمت متوتّر قطعه، فجأة، وصول أنجلينا.

- ها هي!

تقول بفرح، بينما تضع على سطح الخزانة صينيّتين من الحلويات، خرجتا لتوهما من الفرن، وتحمل خلفها شريطًا من الرّوائح: حسنًا؟ ماذا

حدث؟

تمرّر لها أديلايده الهاتف، لتقرأ بعينيها. تبحث عن نظّارتها في الحقيبة، وتقول: إذا لم أجدها، هل يمكن إعطائي ملخصًا؟

ولكن لا تجرؤ أيّ منّا على التفوّه بكلمة. ثمّ تأخذ الهاتف بيدها، وكلّما تقدّمت في القراءة، ازداد تعبير الجدّية على وجهها.

تصيح أخيرًا: يا للسّماء!

ثمّ بتجهّم وغضب واستياء: مَن يمكن أن يكون هذا؟

ودون أن نقرّر هذا، نجتمع حول الطّاولة الصغيرة المعتادة. تستند بياتريتشه، وهي واقفة، إلى ظهر المقعد الّذي أجلس عليه، وذراعاها معقودان.

أفترض: لا بدّ أنّه بائع التّبغ.

تتنهّد أديلايده: هذا شبه مؤكّد.

- إن لم يكن زوجي هو من فعل ذلك.

تصيح أنجلينا، وهي تُجفّف جبهتها بمنديل.

تضحك بريشيللا، معتقدة أنّها مزحة، ثمّ تتراجع على الفور.

تشعر أنجلينا بأنّها يجب أن تُفسّر ما قالته: لا يعجبه أنّني أنتزع من وقت عملنا، أقصد «عمله»، الخاص بلعب الورق. ولا تعجبه هذه

«التفاهات»، هكذا يُسمّيها.

ثمّ ترفع كتفيها: لكنّني لا أعتقد أنّه قادر على فعل الكثير، لأنّه ببساطة لا يعرف معنى كراودفانديج.

هذه المرّة تنفجر هي في ضحكة قصيرة.

أسأل نفسي أكثر من الأخريات: ماذا لو كان فيكوبريلو؟

يسألن جميعهنّ في صوت واحد: من؟

- لا، لا أحد، زوج إحدى جاراتي، المحامي ذو سيّارة السّباق. أعتقد أنّه يكرهني.

تردّ بريشيللا: آه، ذلك الشّخص الّذي يعتقد نفسه عريفًا. لا أعتقد أنّه ينزل إلى هذا المستوى.

أؤكّد: لا، لا أعتقد أنّه هو، ولا حتّى زوجك يا أنجلينا، ولا حتّى موظّف سلسلة الهامبرغر. لكنّ واقعيّات... لا بدّ أنّه جارنا هنا.

تنحني أنجلينا باتّجاهنا: وماذا يمكن أن يفعل لنا؟

أرفع كتفي: أيّ شيء، فالمحلّ هشّ، وكذلك نحن.

تصيح أديلايده: هذا ما يرغب هو في أن نصدّقه.

تتدخّل بياتريتشه: هل يمكن أن أدلي بدلوي، نظرًا لأنّ هذا المكان، من النّاحية العمليّة، ما زال ملكي؟

ننظر إليها.

- يخشى بائع التبغ المُنافسة في المزاد، لكن ما يخشاه أكثر من أي شيء آخر، هو ألا يحصل على تمويل من مصرفه. هذه الرسالة منذ ثلاث ساعات. أما هو فقد هاتفني منذ ساعة، وكان سعيداً جداً لأنه حصل على تمويل البنك. سيقدم عرضه، وهذا يكفي لأن يهدئه. لكن لا يمكننا التأكد من كل شيء...

إستمعنا إلى الخبر ببعض الارتياح، لكن ساد صمت انهماكاً في التفكير، حيث غاصت كل منّا في هواجسها. فكرت أنا: لو لم يكن هو، هل يمكن أن يكون شخصاً لا نعرفه؟ ماذا لو لم نستطع صد الهجوم؟

ثمّ قطعت أديلايده الصّمت: ليكُنْ ما يكون، لا بدّ أن نتجاهل هذا. ما هي الرّسالة التي نمنحها أهمية، هل سنتراجع مع أوّل تهديد؟ حسناً، نحن لا نعجب بعض سكان الحي، لسبب ما يبدو عبثياً، يروننا مصدر تهديد. على كلّ حال، عندما يتّحد الأشخاص فهم دائماً مصدر تهديد، وخاصّة لو كنّ نساء. ماذا إذن؟ هل يعتقدون بالفعل أنّ بإمكانهم حلّ الأمر بالعنف؟

تجيب بريشيللا: للأسف نعم، يكفي فتح الصّحيفة.

- حسناً. ولكنّنا كثيرات، ومعاً.

أضيف: ونعرف كيف ندافع عن أنفسنا.

تجيب بريشيلا: يجب أن ننظر في مسألة الدّفاع عن أنفسنا. أمّا في ما يتعلّق بالجوانب القانونية فأنتنّ تعرفن من تسألن، ولكن في ما يتعلّق بالأمور الباقية...

أريد أن أقول إنّني موجودة.

تُصرّ أديلايده: الشّيء الأوّل للدّفاع عن أنفسنا هو ألّا نخاف.

إذا كان بالفعل مَن هدّدنا هو بائع التّبغ، فأنا أعرف ما سيحاول فعله. فهو شديد الثقة في نفسه، إلى حدّ أنّه لا يُخفي أوراقه. قال هذا في أوقات لم نشكّ فيه، والقدر أراد أن يقول هذا لي بالتّحديد.

أقول بنبرة حاسمة: يمكننا أن نُجرّده من أسلحته.

أريد أن أضيف سلسلة كبيرة من الضّمانات، من نوعيّة: استعدادي التّقنيّ، وما سمعته يقوله في الهاتف، والخطّة الّتي في ذهني، لكنّني لا أعرف من أين أبدأ ليفهموني.

أسأل باندفاع: هل تثِقن فيَّ؟

ينظرن إليّ بفضول. لا أعرف لماذا سألت هذا السّؤال، لكنّني أعرف أنّ سماعي كلمة نعم سيسعدني.

ما زلنا نجلس حول الطّاولة المُنخفضة، في متجر لامع ومعطّر، سيفتح أبوابه للزّبائن بعد قليل. إذا

رآنا أحدٌ من الخارج، ربّما اعتقد أنّنا مجموعة من الصديقات يثرثرن في شتّى المواضيع. هل نحن بالفعل صديقات؟

تصيح أنجلينا: بالفعل نثق فيك يا لجمّي!

والأخريات يؤكّدن بعدها.

أردّ بارتياح: إذن، لتعلمن أنّ لديّ خطّة. لنستمتع الآن.

ويبدو لي أمرًا لا يُصدّق أنّني قلت ذلك.

(44)

على الرّغم من المزاج المُتقلّب، نشرب في الغرفة الخلفيّة نخباً من زجاجة شمبانيا، حريصات على ألا نفكّر في التّهديدات.

تُصرّح أديلايده، وهي تفتح غطاء الزّجاجة: الوصول إلى هذه اللّحظة هو نجاح بالفعل.

وتضيف بعد أن تنظر في الهاتف: وأحبّ أن أخبركم، أنّنا حصلنا بالفعل على ربع المبلغ!

تحدّث عنّا الكثيرون أونلاين، ولا بدّ أنّ المنشورات نجحت أيضاً.

تبدو بياتريتشه مُحبطة: هل ستجمعن الثّلاث أرباع المتبقّية اليوم؟

تجيبها برشيللا بغير اقتناع: على الرّغم من أنّ هذا شبه مستحيل، لكنّ كلّ شيء ممكن.

توجد أشياء عديدة ثمينة هنا بالدّاخل، ولكن بالتّأكيد لن تصل إلى ثلاث أرباع أقلّ قيمة ممكنة لهذا المتجر، ولا حتّى إذا بعناها كلّها. لكن أديلايده مُقتنعة أنّ فتح المتجر للبيع بالمزاد، سيجذب فاعلي الخير في الحي، وأيضاً من خارجه.

تحثّنا: لندع الحماس يقودنا. لا بدّ أن نُعدي الآخرين.

فتح «العالم الجديد» للجمهور، شيء أكثر واقعيّة، وأعظم من أيّ حلم. أشعر بضيق في أنفاسي،

وارتجاف في ظهري. الذّعر الّذي تخيّلته في طفولتي من فتح متجر ما يخصني، تضاعف. لكنّني للمرة الأولى، لا أعرف منذ متى، لست بمفردي، وأشعر بأنّني إذا حدث لي أي شيء، فسأجد من يتدخّل للدفاع عني.

تخبرنا أديلايده، وهي تنهي الكأس في رشفة: السّاعة الآن الثالثة! والمتجر مفتوح الآن للجمهور.

ستستقبل هي العُمَلاء وتحكي لهم عن المشروع، بينما ستهتمّ أنجلينا بالمأكولات والمشروبات: الشّاي والكيك مثلما هو التقليد، أمّا بريشيللا فستكون مسؤولة عن بيع لوحات السّيّدة داليا. وأنا سأتولّى الإشراف العامّ.

أطلّ على الخارج، أجد بائع التّبغ يراقب الشّارع بنظرة عابسة، ويلقي نظرة على الصالون الصغير الّذي وضعناه في المدخل، ثم يدخل إلى متجره ملوّحا بقبضة يده، وصائحا بشيء لم أستطع سماعه.

لكنّني لا ألاحظ الشّاعرة إلّا بعدها. أراها جالسة على الرّصيف المقابل لنا، تمسك القلم بيدها، وتحدّق في ورقة متّسخة. يبرز من جيبها جزء من الدّعوة الّتي وزّعتها في الحيّ. أسعد برؤيتها، ثم أنشغل ببعض الفضوليّين.

تهتمّ أديلايده بالاستقبال. يهتمّ بعض سكّان المجمع السّكني بالسّجّاد الجداري المغزول عليه مشهد صيد، ربّما من إنجلترا. إنّها القطعة الأعلى

لدينا. تتقدّم أديلايده بثقة وترحاب. توظّف خبرتها في التعامل مع الجمهور لصالحنا. إنّها مديرة رائعة.

أراقب المشهد وأحاول التماهي معه. أرجو ألّا تورطني أديلايده في مواقف مشابهة. بدا أنّها اقتنعت، فلم تدعني أنضمّ إليهم. بعدها بقليل، يرحل سكّان المجمع السكني أمامي دون أن يشتروا السجّاد الجداري أو أي شيء آخر. ترفع أديلايده، من الجهة المقابلة للمتجر، عينيها إلى السماء.

أوّل مَن تصل ممّن أعرفهم، هي زوجة فيكوبريلو. تدخل باستحياء، ناظرة حولها، ثم تبدأ بقراءة البطاقات المختلفة.

تُصيح عندما تراني أمامها بعد قليل: أهلًا يا جيا، كم من الأشياء المثيرة للاهتمام، تهنئتي.

- أشكرك، أجل، فعلًا...

تشعر بالخجل ممّا فعله زوجها.

تقول: أتركك لما تفعلين، وسأتفقّد المتجر قليلًا.

تنظر من قريب إلى طاولة صغيرة منخفضة، ثمّ توجّه حديثها إلى رجل لا يظهر منه سوى ظهره، رافعًا مقعدًا برتقاليًا، شيء كالعرش البربري، أحد تلك الأغراض التي كنت متأكدة من أنّها لن تباع. عندما يلتفت أتعرّف إليه، إنّه فيكوبريلو. شيء لا يُصدق! مُعجب بشدة بمقعده، يرفعه

بكلّ قوّته، ويأخذه بمفرده حتّى الخزانة. أشير إلى أديلايده لتعتني هي بعمليّة البيع تلك، لأتجنب أن يغيّر وجودي رأيه، وفي تلك اللحظة بالتحديد تقترب مني لوتشيللا، بائعة الأيس كريم، التي تركت نفسها تنجذب إلى إعلان قديم لآيس كريم ساموتانا: رائع لزبائني الصغار! سيعجبهم كثيراً.

بدأ سكّان الحيّ القدامى يصلون بأعداد كبيرة. كانوا مرحين، فضوليين، وغالباً متحمّسين. منهم من لديه حكايات يقصّها عن دوروثي، مثل بائعة الأعشاب التي اعتادت علاج صداع رأسها.

أحكي، وأنا أتمنّى أن تشاهد أمّي هذا المشهد من السّماء: أمّي أيضاً كانت تعاني من صداع الرّأس، وكانت تعالجه باللافندر الذي نعدّه في المنزل.

- اللافندر طبعاً.

تؤكّد، وهي تضع على الخزانة أوانياً من زجاج المورانو.

يبتاع جيبو الحدّاد لزوجته مشبكَ صدر ملوّن بعود للسبعينات. وهي من حماسها تقبّلني على وجنتي. ثم تبتسم لي وكأننا نتآمر: منذ ثلاثين عاما لم يحضر لي هديّة! هل تعرفين أنك تشبهين جدّتك كثيراً؟ لا بدّ من أن ترتدي أنت أيضاً ثوباً من حينٍ إلى آخر!

تتدخّل أديلايده، وهي تمرّ خلفي في تلك اللحظة: سترين الأثواب التي سنضعها هنا في الداخل.

كلّها من صُنعي. وعاجلًا أو آجلًا، سترتدي جيا أيضًا واحدًا منها.

- يؤسفني هذا، ولكنّي أرتاح أكثر في الأوفرول.

بعد السّاعة الخامسة بقليل، تظهر السّيّدة داليا.

- يا إلهي!

تفلت منها، وهي في طريقها إلى الدّاخل من شدّة الانفعال.

تُحيّي بإشارة من رأسها مَن يَتوجّه إليها. أرادت أن تباع لوحاتها باسم مجهول، ولكنّها ظلّت هناك تَحوم حولها، من الواضح أنّ الفضول تملّكها، وأرادت أن تعرف كيف تسير الأمور. من بين المشترين: صاحبة الكلب الدّلماسي، في الطّابق الثّاني من السّلّم A، والّتي أخذت «لمحة من وارسو». بريشيلا تُهنّئها على الاختيار، ثمّ تنظر إليها وهي تهجم على تورتة الشّوكولاتة.

- لم تأتِ اليوم يا جميلة.

يقف علي ثابتًا في مُنتصف المتجر، وفي يده كيس مليء بالأعشاب والأسبارجوس والخرشوف والفاصوليا.

- الأخبار انتشرت في الحيّ.

يشرح، وهو يُسلّمني الكيس، ليُجيب عن صمتي المندهش.

ألاحظ بطرف عيني أنّ أحدهم يقترب مني، لكن فجأةً يبدو أنه أعاد التفكير في الأمر، وعاد بحركة غريبة إلى الخلف. حتّى اليوم يرتدي أكيله كنزته المفضلة. لقد جاء!

اِمتلأ المتجر. بعد أن أودّع علي، أحاول أن أذهب للقاء أكيله، لكنّني أخجل. أشير إليه بيدي من بعيد. يقول لي بشفتيه «جميل»، بينما يشير بإصبعه حوله. ويبدأ بقراءة البطاقة المصاحبة للوحة المرسومة بالزيت.

- كان يمكنك دعوتي بنفسك... ولكن كما ترين لست شخصاً حساساً.

قال لي عندما اقترب أحدنا من الآخر، دون أن نعرف من بادر بالخطوة الأولى. لكنّ الفوضى ساعدتنا على ذلك.

- أريد أن أبتاع هذه.

ويرفع حفراً على ورق ذي علامة مائيّة، يعود إلى القرن الثامن عشر، يجسد سلسلة من الحفريات. وضعتها في مكان واضح تحديداً من أجله.

- ولكن اطمئنّ، يمكنك أن تزيل صفراً من السعر.

أؤكّد له. فقد وضعت سعراً كبيراً، حتّى لا يبتاعه أحد غيره.

يتنهّد بارتياح: كنت سأحتاج إلى قرض من

البنك.
- أو ربّما يمكنك تنظيم تمويل شعبيّ.
- سيكون من الرّائع أن يظلّ هذا المكان مفتوحا. حتّى لو... هل سيكون لديك وقت آنذاك لتكتبي لي رسائل؟
أضاف، وهو يسبقني إلى الخزنة.
- مَن يدري...
أجيب وقلبي ينبض بأقصى سرعة، بينما ألفُّ بعناية الحفر في ورق لفّ الهدايا.
كان على وشك أن يقول شيئًا عندما دخل أوجينيو مندفعا بيننا.
- إيه! هذا المكان يبدو خزانة كنوزك بقدرة مضاعفة.
لم أرَ أوجينيو منذ الصّباح الّذي فيه عثرت عليه في الأوتوبيس.
يردّد أكيله مُتظاهرًا بالدّهشة: خزانة الكنوز؟
- هل تنقص من القائمة؟ اُنظر يا أوجينيو، والدتك هناك تتصرّف على نمط العائلة المالكة الإنجليزيّة.
ننظر إليه، يلحق بها.
يقول أكيله في النّهاية: الآن سأذهب، الحفريّات تنتظرني.
- لا بدّ أن تتحلّى ببعض الصّبر... ولكن لا يمكنها

بالتأكيد المكوث بمفردها في حوض البانيو.

يضحك.

- عندما تصبح هناك شبكة معدنيّة في قاع صناديق الفاكهة، ستصبح قصّة أخرى.

غمز لي بعينه.

وأنا على وشك الرّدّ، يعود أوجينيو ومعه مِشبَك رابطة عنق فضّي.

- لأستخدمه عندما أصبح سائق حافلة.

يعلن، بينما يمدّ إليّ يده بالنّقود.

أبحث عن أكيله بنظري، ولكنّه اختفى في الزّحام الّذي ابتلعني أنا أيضًا. لا بدّ أن أمنح تفسيرات لعشرات الأشخاص، لم يعد لديّ وقت للتّفكير، طار الزّمن حتّى المساء.

وعندما يرحل الجميع تقريبًا، ألمح تروفيو. كان يسير وحده في المتجر، مرتديًا بذلته الرّياضيّة، لم أَرَه عندما حضر. أضع يدي على كتفه.

أقول له: أنت هنا.

يَلتفت إليّ. أحاول تفسير صمته. هل هو ذلك الصّمت الّذي يعبّر به عن نفاذ صبره، عندما لا تسير الأشياء على ما يرام؟ أم ذلك الّذي يعبّر به عن تعبه ورغبته في الاستلقاء على الفراش؟ أم ذلك الّذي يشعر فيه بأنّه لم يعد لديه كلمات من أجل العالم؟ بدا لي أنّه الصّمت الّذي يَنتابه عندما

ينظر إلى الأشياء الجميلة ويتأثر.

رفع ذراعه، وتركه معلقًا في الفضاء، بيني وبينه قصعة من السيراميك مرسومة يدويًا. يفكّر في بيليه، أنا متأكدة، لأنني أنا أيضًا فكّرت فيه عندما رأيتها.

- أحسنت.

قال لي فجأة، وهو ينظر في عيني، بعد أن أخذ باقي النقود.

ها هي إذن نبرة صوت تروفيو، قويّة وهشّة في الوقت نفسه، مثل طبقة الثلج التي تغطي البحيرات في الشتاء. تقع أحداث استثنائيّة في حياة كلّ منّا. الحصول على عمل، العثور على الحبّ، اكتشاف ديانة ما. وهناك أيضًا، من يترك نفسه ليتأثّر من مجرّد إعادة الفتح المفاجئ لمتجر أو من سماع صوت صديقه أخيرًا.

أبتسم له، بينما أحاول حبس دموعي، لكنّها تنهمر دون توقّف، وكأنّ لها إرادتها الخاصّة. كانت هناك تنتظر، لا أعرف منذ متى.

- أحسنت أنت أيضًا.

أجيبهُ حينئذ، وأفكّر أنّه فهم ماذا أقصد.

(45)

تُعلِق بياتريتشه في نهاية اليوم، وهي تُنظّم معنا المتجر، الّذي فرغ نصفه: لجاح باهر على ما يبدو لي.

أعترف: يبدو هذا. ولكن يجب أن نتأكّد من الحسابات...

تُشير إلى نفسها: لنفعل هذا الآن، تريد صاحبة المكان أن تكون حاضرة.

- يمكن أن نشعر بالرّضا.

تتنهّد أديلايده بعد أن تعلن عمّا ربحناه، لكنّها ليست راضية عن الرّقم الّذي حصلنا عليه من حملة التّمويل الشّعبي.

- الجميع بارعون في التّحدّث، لكن ماذا بعد ذلك؟

أواسيها: أردنا الوصول إلى مبلغ صعب المنال، حصلنا بالفعل على ثلثه، وهذا ليس بالقليل.

تؤكّد بياتريتشه: كثير جدًّا. لا بدّ من أن أعترف أنّه كان يمكنني المراهنة على أن أضع طوقًا لشعري إذا نجحتم في الحصول على هذا المبلغ.

- لكن في الواقع، ينقصنا أكثر من الضّعف لنصل إلى المبلغ الأساسيّ للمزاد.

أعلق.

- لقد حاولنا، وفشلنا.

تُحاول برِشيللا رفع الرّوح المعنويّة: لنحاول مرّة أخرى، يمكننا أن نفشل بطريقة أفضل. أعرف طريقة ما، فهذا مجالي.

أقول: ولكن كلّ شيء كان رائع الجمال.

تبتسم لي أديلايده ابتسامة مطفأة. تذهب لتتفقّد أريا، الّتي تجلس على الأريكة، وتشاهد أفلام الرّسوم المتحركة على الهاتف، جالسةً على الأريكة. تصحبها ليعودا إلى المنزل، وتُحيينا الطّفلة مودعة.

- ما زال أمامنا ستّة أيّام، تَشَجّعي.

تقول بياتريتشه وهي تضربني على كتفي: هناك من خلق العالم في ستّة أيّام.

أسألها وأنا أبتسم: هل كلّ موظّفي شركات العقارات لديهم روح الدعابة تلك؟

- أوه، لكنّني لم أُجبَل لأكون موظّفة عقارات... الأمر الآن رسمي.

- ربّما سيُعيد أبوكِ التّفكير ثانيةً.

- ليس من النّوع الّذي يُعيد التّفكير، لقد بنى مستقبله على ذلك. لكن لديّ فكرة جديدة.

- فكرة؟

- سأقولها لكم بعد عرضكم.

- إذن لن تقوليها أبدًا.

- سنرى، من التّعليقات المُتحمّسة الّتي سمعتها

هذا المساء: إيّاكِ أن تحولي أبدًا.

ودون حتّى أن أدرك، أقترب منها وأعانقها. تَدهش بياتريتشه، ولكنّها تبادلني العناق على الفور.

قبل أن أترك المتجر، أُحيّي في صمت كلّ روائعه، تلك الّتي أمامها حياة جديدة وكلّ الباقية.

أهمس: أنجزنا إنجازًا رائعًا.

أغلق الباب خلفي. على الرّصيف أمامي، لا تزال الشّاعرة جالسة. أذهب نحوها، لأعطيها قطعة من تورتة الشّوكولاتة المُغلّفة بالألومينيوم. ترفع نظرها، تقبّلها دون أن تندهش، وتمدّ إليّ الورقة الّتي تمسكها بِيَدها. فاليوم السّبت. بمجرّد أن أبتعد، أقرأها على ضوء مصباح الشّارع:

من جزر وحيدة

يصنع الجسر

عائلة صغيرة

تنتابني الرّغبة في الاحتفاظ بها، ولكنّني بعدها أقرّر أن أتمسّك بالتّقليد، تقليد اقتصادي الدائريّ، فأسير حتّى أصل إلى الجسر الصّغير لأتركها هناك، متمنية أن تظلّ مكانها حتّى صباح الغد لقاضية الصّلح.

(46)

أسأل: هل الوقت مبكّرًا أكثر من اللّازم؟

تفتح لي أديلايده الباب مرتدية بيجاما، وعينيها منتفختين، وشعرها منكوش، وتبدو كأنّها بالكاد تتعرّف إليّ. التشتّت المبدئي يتحوّل تدريجيًا إلى أن تنطق «أوه» مرّتين مندهشة.

تهمس بعد تثاؤب طويل: كم السّاعة الآن؟

- تقريبًا العاشرة.

أجيب، وأنا أبالغ في عمليّة التّقريب، فالسّاعة لم تتجاوز التّاسعة إلّا بقليل.

تتظاهر بأنّها تغلق الباب في وجهي: أشكرك، لكن لسنا مهتمّات.

- لكن لديّ خبر جيّد.

لهذا تملّكت الشّجاعة لكي أحضر دون دعوة في هذه السّاعة. هرعت من المنزل دون أن أغلق الغاز، أو أخلع جوربي من قدمي.

تردّ هي: إمّا أن تكون معجزة، أو يمكنني المرور عليك في غضون ساعة واحدة فقط، حتى أتمكّن من التّخلّص من التّعب والإرهاق بحمّام ساخن، خاصّة أنّ أريا لا تزال نائمة.

- في الواقع، تبدو معجزة بالفعل.

- أيّ نوع من المعجزات؟

- لم أفهم حتّى الآن.

- أشمّ رائحة خديعة.

تُغمغم، وهي تدعوني على كلّ حال إلى الدّخول.

تبتهج قدماي لمُصافحة الباركيه الدّافئ، ثمّ بساط الجلد بطول الصّالة، بينما أتبع أديلايده محاولة تفقّد طريقي بين الدمى، وأقلام التّلوين، والشّرائط، والتنورات، والأثواب، والقمصان. ألاحظ الثّوب ذا الجزء الحريري الذّهبي الدّاخلي الّذي جعلتني أجرِبه. قُطّع إلى أجزاء بمقص القماش الملقى بجوارِه، وكأنه سلاح الجريمة. لا بدّ أنّ هذا بسبب ترددي، وشعرت بالضيق. ماذا سيحدث له الآن؟

- هل يمكنك إعداد القهوة؟

قالت لي أديلايده وهي تشير إلى ماكينة القهوة بجوار حوض المطبخ.

ثمّ جلست إلى المائدة، وتركت رأسها لتسقط على ذراعيها المعقودتين.

هذه اللّيلة، نمت خمس ساعات مُتواصلة. فقد رحمني أكِيله من وقع أقدامه. خسارة أن ذلك النّوم المُفيد انتهى بكابوس، الكابوس المعتاد: أجري في الغابة، وحقيبة النّوم على كتفي، وأنادي على أبي، لكن لا يجيبني سوى صدى صوتي. لم يكن أخي موجوداً، وفي الحلم أدرك أنه لم يكن موجوداً على الإطلاق، ولم يكن

سوى ثمرة تخيُّلاتي. وأكتشف أثناء جَرْيِي أنّ الغابة عبارة عن دائرة، وهكذا، على الرّغم من ظنّي أنّني أهرب من الحصن، أجدني أعود إليه. استيقظت فريسة للذعر، وعندئذٍ رنّ الهاتف.

تسألني أديلايده، دون أن ترفع رأسها: وماذا بعد؟

- منذ قليل تلقّيت مكالمة هاتفيّة. كانت سكرتيرة مارجريت. لم أفهم منها شيئًا، لكنّني متفائلة.

وضعت ماكينة القهوة على النّار. أعتقد أنّ شعوري بالتّفاؤل هو أحد أكبر المعجزات الّتي يمكن أن تحدث، ويبدو أنّها أيضًا أدركت ذلك لأنّها أجابت: هل تقصدين أنّكِ لا تتوقّعين كارثة؟ وأنّنا لسنا على شفا حُفرة من فشل ذريع وحتميّ؟

- ربّما. لتتصّل بها قبل أن تُغيِّر رأيها، أو يداهم كُوَيكِبَ الأرض أمرٌ ما. أثق في مواهبك في التّرجمة.

السّخرية من مخاوفي تجعلني أشعر بالخفّة.

تسألني هي: تُغيِّر رأيها في ماذا؟

- لم أفهم جيّدًا، كانت نبرتها تشبه من يمدّ إليك بِطَوق النّجاة بينما تغرقين.

- بدا لك أنّه لا يوجد في الأمر حالة طوارئ.

تشير إليّ أديلايده بأن أعطيها الهاتف، وتبدأ باستعادة تألّقها المعتاد.

تمرّر سريعًا قائمة المكالمات الّتي تلقّيتها، وتتّصل. تضع الهاتف في وضع مكبّر الصوت، وتنتظر وهي تعضّ على شفتها السفلى. يبدو عليها التّركيز.

جزء منّي يتمنّى ألّا يردّ أحد. لا أريد اكتشاف مضمون رسالة مارجريت. وفي الوقت نفسه، أتلهّف إلى معرفتها. فجأةً أجد نفسي، أسقط فريسة للتوتّر.

يُصدِر الهاتف صريرًا خَشنًا وطويلًا في بارك كريسنت. أُطلق العنان لخيالي ليطير إلى هناك. أتخيّل مكتبًا جدرانه مكدّسة بمجلّدات قديمة، وفي أحد جوانبه أريكة من المخمل الأحمر، وفي وسطه مقعدان من الجلد أمام مكتب من الماهوغوني. تقطع الرّنات صمت الغرفة الفارغة. تدخل سيدة، ربّما ترتدي نظّارة، تنورتها تصل إلى الرّكبة، وشعرها ملفوف خلف عنقها، وبإيماءة واثقة، معتادة، وبضجر سرّي، ترفع السّماعة في النّهاية. لكن ربّما لا. ربّما خرجتا كلاهما: السيّدة سميث والسكرتيرة، ربّما سافرتا في رحلة إلى الخارج، وفقدت إلى الأبد رسالتهما.

يدخل الصّوت فجأةً إلى مطبخ أديلايده: صباح الخير، من يتكلّم؟

النّبرة محايدة لكنّها مُهذّبة كالعادة.

أحبس أنفاسي، بينما تشرح أديلايده الموقف. لحسن الحظّ لا تشعر السكرتيرة بأيّ ضيق من

فكرة أنّ عليها تكرار ما قالته لي منذ قليل.

شعرت السيّدة سميث بالتأثّر من خطابات عمّتها. وأعادت التفكير كثيرا في المتجر وفي مشروعنا. ما نفعله شيء غاية في الأهمية، وخاصة بالنظر إلى الزمن الذي نعيش فيه. فنحن نعبر بحياتنا اليومية عن الفلسفة الوحيدة الّتي يمكنها إنقاذنا جميعا. تشكرنا لأننا أرسلنا إليها اللّينك الخاصّ بالكراودفاندينج، وتود إعلامنا أنها هذا الصّباح أرسلت تبرعا. وتتمنى لنا من أعماق قلبها كلّ خير.

بعد أن شكرناها بكلّ حماس، ودّعناها وهرعنا إلى كمبيوتر أديلايده، لندخل على الموقع. أنشغل بقضم أظافري هربا من براثن التفكير. أحاول أن أفرمل ذهني، وألّا أصيغ أيّ احتمال. تحمل الصّفحة ببطء لا يحتمل. تدقّ أديلايده بيدها بجوار لوحة المفاتيح، كأنها تحاول تحفيز الجهاز أن يسرع. إذا كان المبلغ يتجاوز... إذا كان المبلغ...

ثمّ جاء الخبر اليقين: المبلغ الّذي تبرّعت به مارجريت سيسمح لنا بالوصول إلى المبلغ المطلوب لدخول المزاد! كرم شديد بضربة واحدة، سعادة شديدة في لحظة واحدة، لم أجرب ذلك طوال حياتي قطّ.

- لماذا تصيحان... وترقصان؟

تقول أريا بصوت رفيع على عتبة المطبخ، وهي تضمّ إلى صدرها دمية باربي رابانزيل.

تردّ أمّها وهي تقفز من السّعادة: لأنّنا سعيدات يا كنزي.

تصيح هي: إذن أنا أيضًا سعيدة!

وتلقي بِدُمْيَتِها في الهواء ثمّ تلتقطها.

(47)

- أخبريني، كيف فعلتِ هذا؟

تسبَّب لي جهاز التّسجيل المفتوح في التوتُّر، إلى حدّ أنّني تلعثمت أكثر من مرّة، وأجبرت على البدء من جديد. إنّه «مجرد بلوج معلومات صغير»، حرصت الشّابة الطّويلة القامة ذات الضّفائر الحمراء الجالسة أمامي، على تأكيد ذلك، قبل أن نبدأ الحوار. بالنّسبة إليّ، هذا يعني في كلّ الأحوال النّشر في صحيفة ما، حتّى وإن كانت في الحقيقة مجرّد موقع أونلاين، وهو أمرٌ لا يصدّقه عقل: فقد حدثت لي أشياء كان لها تأثير في العالم. إذن أنا موجودة.

أحاول من جديد: كان أبي يقول دائمًا: يجب التوقّع، والتجنّب، والتصرّف.

ألتقط نفَسًا صغيرًا قبل أن أكمل. منذ فترة، قرأت في مكانٍ ما مقالا عن طريقة عرض أفكارك الخاصّة على الجمهور، وإحدى الأساسيات على ما يبدو هي كيفيّة إدارة التنفّس. لم أتخيل قطّ أنّ المقال يمكن أن يفيدني في شيء، لكن ها هو الإثبات على أنّ القدرة على التكهن والتوقّع لها مميّزاتها.

أشرح للصّحفية: تربض الكارثة دائمًا خلف النّاصية. ويجب ألّا نتخلّ عن حرصنا. لا بدّ أن نعرف كيف نقرأ البيئة المحيطة بنا، وننتبه إلى

العلامات.

تسأل الشّابّة: وكيف تصرّفت؟

- ثبّتّ كاشفًا للدّخان. أهداه لي جيبو، حدّاد الحيّ.

أجيبها وهدفي أيضًا التّرويج لصديقي. وتجاهلت كِلو الخضروات الّذي أعطيته إيّاه في المُقابل.

- يمكن أن يشتعل حريق من أيّ حادث صغير، بدءًا من سيجارة لم تطفأ جيّدًا إلى ماسّ كهربائيّ. المتجر مكدّس بالأثاث الخشبي والسجّاد، وأردت أن أتوخّى الحذر. هذا كلّ ما حدث.

ليس هذا كلّ ما حدث، وأتمنّى ألّا تُخمّن هي ذلك. أسفل الشّابّة، رفعنا سديلة المتجر حتى منتصفها فقط، لنبعد أيّ أحداث غريبة أخرى. لم تصل بياتريتشه بعد، واضطرّت أديلايده إلى الذهاب سريعًا لعملها، وتركتني أدير هذا الموقف بمفردي.

تستمرّ الصّحفيّة الشّابّة: لقد أُعجبت بشدّة بمشروع «العالم الجديد» بفضل حملة التّمويل الشّعبي، وتمزق قلبي هذا الصّباح، عندما اكتشفت أنّ أحدا ما حاول إشعال النّار في المتجر. هل لديكم فكرة عمّن يكون الفاعل؟

أُجيب ببعض التّردُّد: بالتّأكيد لا يتقبّلنا بعض سكّان الحيّ. لكنّنا لا نملك دليلًا على قصديّة هذا

التصرّف، ربّما لم تكن سوى مزحة انتهت بهذا الشكل.

يظهر على الفتاة تعبير غاضب، وتوقّف المُسجّل: لا يدهشني أنكم لا تحجبون البعض. الكثيرون لا يبالون، والمساكين كثيرون: وقد فتحت هذا البلوج لأكشف هؤلاء. سأبذل قصارى جهدي لأتحدث مع قرائي عن هذا الموقف، على أمل أن أساعدكم. فما تفعلونه شيء غاية في الجمال.

تسألني بضعة أسئلة أخرى عن المتجر، وعن المالكة القديمة، وبعض المُحتويات التي تحمل قصصًا مثيرة للاهتمام. في النهاية، تسألني أن أقصّ عليها شيئًا عنّي.

- أوه، أنا لست سوى واحدة تُصلح الأشياء.

- أيّ نوع من الأشياء.

- كلّ الأنواع. أثاث، بلاعات، أشخاص... أيّ شيء يمكن إصلاحه.

تبتسم لي بفضول. من الغريب أن أتسبّب في هذا التأثير. منذ فترة، اعتاد الآخرون أن يطرقوا أبوابهم في وجهي، الآن يُجرون معي حوارًا، وكل هذا بفضل سديلة مرفوعة.

أختم حديثي مُستغلّة الفرصة: كلّ ما ننقذه، يمكنه أن ينقذنا يومًا ما.

لديّ انطباع أنها يمكن أن تفهمني. وبالفعل تبتسم لي مؤيدة. أحدق في الأسفلت حتى

لا أضطرّ إلى إضافة أيّ شيء آخر. تُغلق هي المُسجِل، وتشدّ على يدي معتذرة، حيث تضطر إلى الذهاب الآن، لأنّ لديها عملًا آخر، وتأخرت عليه بالفعل.

- عمل حقيقيّ، ويُدمي قلبي أنّ عليّ قول هذا. فالبلوج هو ما أرغب بالفعل في عمله، لكن لا يوجد سوى في ما يتوفر لي من وقت.

- بالنّسبة إليّ، هذا ما حدث مع الحياة، كانت تحدث في ما يتوفّر لي من وقت.

أقول، وأنا مُدركة تمامًا معنى ما قلته في تلك اللّحظة فقط.

في حين تبتعد الفتاة، أُفكّر في مدى السّعادة الّتي أشعر بها بسبب تحمّسها لمشروعنا. منذ أن وضعت اللّافتة في الخارج، اقترب بالفعل العديد من الأشخاص لمنحي توصيلة، وبفضلهم قطعت شوطًا طويلًا من الطّريق، أكثر ممّا كنت أتخيّل.

بعد أن تأكّدت من ابتعادي عن مجال الرّؤية، رفعت المِصراع. وجدت زجاج باب المدخل قد تحطّم. تلمع أجزاءه المُبعثرة على الأرض في ضوء الصّباح. تملأ سحابة قاتمة وسميكة المكان، يتخلّلها التّراب الأبيض لطفّاية الحريق. ما زالت هناك رائحة شيء محروق.

كانت صفّارة الإنذار قد أيقظتني في قلب اللّيل، عندما نجحت أخيرًا في النّعاس. لوهلة، ظننت

أنني ما زلت في الحصن، وأنّ أبي يُناديها من أجل إحدى تدريباته. لكن فجأة، أدركت أنه ليس مجرّد تدريب بسيط. إنّ الجهاز المُضادّ للحريق على الكومودينو، اشتغل ويضرب بالفعل.

نهضت مُسرعةً، ومُرتديةً نصف ملابسي، كما أفعل دائمًا في حالات الطّوارئ. هرعت إلى التّراس لأرى ما يحدث، بينما أرتدي حذائي المُضادّ للصّدمات. كانت سديلة «العالم الجديد» مرفوعة والدّخان يتطاير من أسفل الباب.

قلت بيني وبين نفسي: بابا، الكارثة حدثت وأنا مستعدّة لها.

كان بائع التّبغ قد أعلن ذلك، وكنت قد تعلّمت ألا أتجاهل أي تهديد. يجري الأدرينالين في دمي، ويجعلني أشعر بأنني حية، وبأنّ الموقف تحت سيطرتي أكثر من أيّ وقت مضى. لا أشعر بأي أثر للذعر. حل محل خوفي البدائيّ ذهن بارد ويقظ.

هبطت سلالم البناية بسرعة، وهرعت نحو المتجر في الظّلام، حيث، كما تخيّلت، لم يكن فيه أحد. وكما وضعت كشّافًا للدّخان، وضعت أيضا طفّاية حريق في المدخل. فرفعتها بسرعة بينما أوجه خرطومها لمنبع الحريق، كومة عشوائيّة من الصحف والصناديق. غم صغير، ولكنّه كان كافيا لتدمير كلّ شيء إذا لم أتدخل.

أتصرّف تمامًا كما تعلّمت، وأستطيع أن أفكّر بينما أطفئ بداية الحريق تلك. أشعر بأنني قويّة وقادرة.

بعد قليل، سمعت أصواتًا قادمة من الخارج. أحدهم سألني ماذا حدث، وإن كنت أحتاج لمساعدة.

أسرعت لطمأنتهم: حريق صغير، لكنّ النّيران خمدت. كلّ شيء تحت السّيطرة.

ثمّ جلست على الأرض، وبدأت أبكي. وضعت يدي في حجري، بينما ركبتاي ترتجفان، ورائحة الحريق في أنفي. تركت دموعي تسيل دون أن أحاول إيقافها. ترك الأدرينالين مساحة للحزن. جلست هناك أنتحب لفترة.

عندما نجحت أخيرًا في تهدئة نفسي، أخذت السّلّم الحلقيّ لأصل إلى الكاميرا التلفزيونيّة الّتي تعمل بالأشعّة ما تحت الحمراء، حيث خبّأتها في قمّة الخزانة خلف الخزنة. كانت لا تزال تعمل، وعندما أعدت الفيلم من البداية، لم أستغرق وقتًا طويلًا لأعثر على صورة الجاني.

ليس ثمّة مفاجأة.

الآن، يفسح الارتياح، للنّجاة من الخطر، مكانه للحزن على المتجر. جميع الأضرار يمكن إصلاحها، لكنّ الدخان تسبب في تسويد الأرضيّة والسّقف في بعض المناطق. لا بدّ أنّ بعض الشّرار تطاير أيضًا باتّجاه الطّاولة المنخفضة المعلّقة بقدم

مكسورة، وأصبح سطحًا شبه مُتفحّم. لقد خاطرنا برؤية حلمنا تلتهمه النّيران، تمامًا في اللّحظة الّتي فيها بدأ يتحقّق. في الواقع، بالأمس أسّسنا أنا وأديلايده الشّركة المُساهمة «العالم الجديد»، ووضعنا فيها أيضًا الأخريات كَشَريكات. وبعدها ببضع ساعات، أودعنا رسميًا عرضنا للاشتراك في المزاد.

والآن؟ الآن أشعر بالفَزَع. هل سيحدث هجوم آخر؟ ومن أيّ نوع؟ هل سأستطيع منعه؟ هل سأستطيع التّعامل معه؟ ماذا إذا فشلت؟ وإذا...

مرّة أخرى، أجد نفسي من جديد في مُنتصف الغابة. أطلب المساعدة ولا أحد يسمعني.

(48)

أخذت أديلايده إجازة بصعوبة، واستطعنا إعادة تنظيم المتجر في أبهى حلّة. فعلنا كما سبق وفعلنا، عندما جددناه من قبل، لكن ليس بالرّوح نفسها. فقد فزنا وخسرنا معارك، إلى حد أننا لم نعد نعرف كيف ستنتهي الحرب.

أستمرّ في استخدام مصطلحات عسكريّة، وهو شيء مخيف لشخصية مسالمة، عمرها سبعة وعشرون عامًا، لكنّني ورثتها، ومن الصعب التخلّي عن الإرث، أحيانًا يتطلّب الأمر حياة بأكملها، حتّى هذه قد لا تكفي أحيانًا.

السّاعات الأولى هي الأصعب. نشعر أنّنا هلكنا، نحن وكلّ تلك الأشياء الّتي تعرّضت للاهتراء بسبب أعوام الوحدة، والآن تعبث بها يد عنيفة وتحتقرها. لكنها كانت الدّليل على أنّنا لسنا الوحيدات المؤمنات بهذا المكان، ولا بالمستقبل الّذي يمكن أن يوحي به. قلنا هذا لأنفسنا ونحن نمسح وندعك وننظّف.

أتت أنجلينا لتنجدَنا بوسائل مواساة طَهَتْها بنفسها، وبِكَومة من الصحف الّتي تركتها قاضية الصّلح في «اللاّشيء». حكت لي، أنّها تترك واحدةً كل يوم على المائدة قبل أن ترحل. أحزنني الخبر، فقد انشغلت عنها كثيرا، ولم تعد تستقبل القصيدة اليوميّة، في ما عدا الأخيرة الّتي تركتها لها تلك

الليلة.

أخرج من جيبي الأماميّ «ساحر أوز»، القديم والمليء بالخطوط، وأسلّمه لأنجلينا، وأطلب منها أن تدعها تلاحظه اليوم على المائدة. على الأقلّ، سيكون لديها ما تقرأه إلى أن أتمكّن من استعادة عاداتي اليومية.

تُفيدنا الصحف في التلميع، لكنّها تفشل في تذكيري أنّ أبي كان على حقّ في أشياء كثيرة: عالمنا فعلًا على الحافة، والكوارث أصبحت ضمن جدول الأعمال اليوميّة. بعض السيناريوهات تتحقّق بالفعل. وأثناء الدعك والتلميع، أسأل نفسي إن كان أبي يجد أيّ نوع من المواساة في الاستنتاج أنّ العالم يبدو بالفعل متجهًا نحو ما تصوره.

تشعر بياتريتشه بالإهانة والغضب، تريد رأس العدوّ. لم أعترف لها أنّ لديّ التسجيلات التي تُجرّم بائع التبغ، حتّى لا نخاطر بأن تتقدّم ببلاغ ربما يدمره. فأنا أعرف زوجته بالنظر، امرأة نحيفة وشاحبة، ولها طفلتان، ولا أريد أن يدفعن هنّ الثمن. يبدو لي أنّ من الحكمة أن نُفهمه أنّ لدينا الدليل الّذي يمكننا استخدامه ضدّه في أيّ لحظة.

كلّما استعاد المتجر رونقه بالتّدريج، استعدنا نحن أيضًا ثقتنا. لا يمكننا الاستسلام. لا يمكننا إحباط مَن منحونا الثقة. لن ندع شيئًا يُخيفنا.

تلحق بي أديلايده في شركة العقارات مباشرة من المتجر الّذي تعمل فيه. لحسن الحظّ سيبدأ المزاد في الواحدة، أثناء وقفة الغداء، وهكذا لن تضطرّ إلى أخذ إذن آخر، حيث كانت متأكّدة أنّهم لن يسمحوا لها. ستأتي بريشيللا أيضًا.

قبل خروجي من المنزل، مررت على السّيّدة داليا، حتّى أطلعها على آخر التّطوّرات. عندما أخبرتها أنّنا لن نستسلم، رسمت إشارة الصّليب، وأعطتني صورة باهتة وممزّقة لأسقف يرتدي رداءً وقفّازًا أبيض وقبعة مرتفعة مزيّنة بالأحجار الملوّنة: إنّه القدّيس أمبروس يا فرحتي. أوصيك بالصّلاة.

أتحرّك من المنزل مع أوجينيو وأنجلينا. أرتدي الأوفرول المعتاد (وقد وضعت صورة القدّيس في الجيب الأماميّ)، وأرتدي أيضًا الحذاء الضّخم المعتاد، لكن في محلّ التّيشيرت أرتدي أحد قمصان أديلايده. أصرّت على أن أرتدي بشكل لائق، حتّى وإن أكّدت قائلة: إنّ ملابسك جميلة جدًا.

- لا أعتقد، لأكون صادقة.

اِنتهزت الفرصة لتخبرني أنّني لا أحتاج إلى عبارتين أو ثلاث كي أؤكّد على صدقي، فأنا غريبة، وأقول أشياء عجيبة، لكن لا أحد يشكّ على الإطلاق في صدقي. وأضافت في النّهاية أنّني لا أحتاج إلى الشّعور بضرورة تبرير ما أنا عليه.

لأنني رائعة هكذا. شعرت أنه شيء ترغب في قوله لي منذ فترة، وكررته داخلها حتى نضج إلى حد أنني شعرت بالتأثر الشديد. أعطوني شخصا يشجعني بغض النظر عن النتائج، واحتفظوا أنتم بحشد من الناس يصفق لكم إذا فزتم. ستكون أديلايده بالتأكيد على فلك نوح الخاص بي، مع أريا بالطبع.

لم أستطع التخلي عن حقيبة ظهري بما فيها من سندويتش وزمزمية، والسكين السويسري والمناديل، لكنني أفرغت منها الغطاء الحراري في المنزل، وكذلك الطعام المجفف بالتبريد، وفرن التخييم، والبطارية التي تعمل بالطاقة الشمسية، والبوصلة، وكل ما تبقى من معدات لم أكن أتردد في حملها معي، حتى بضعة أسابيع ماضية.

لا أخفي أن هذا أشعرني بعدم الأمان. ماذا لو لم نستطع العودة إلى منازلنا، أو انفجرت الحرب النووية، أو خطفني أحدهم... لكنني أحاول التفكير بعقلانية وإقناع نفسي أن الكارثة الوحيدة التي يمكن بالفعل أن تحدث، هي أن نخسر المزاد: وأمام كارثة مثلها، لن يفيد الفرن الصغير، ولا البوصلة، ولا حتى الغطاء الحراري.

أنجلينا أيضًا أكثر أناقة من المعتاد، ترتدي بلوزة زرقاء خفيفة، وبنطلونًا بيجًا بكسرة. في قدميها حذاء رياضي بحلي صغيرة لامعة وأربطة ذهبية براقة.

وصلنا تقريبًا إلى الطّريق الدّائريّ. ينتظرنا أوجينيو على المحطّة، ويخبرنا أنّ الحافلة ستمرّ خلال سبع دقائق، لديه تطبيق على الهاتف، يخبره بجدول المواعيد الفعليّ.

إنّها المرّة الأولى الّتي تراه أنجلينا فيها في زيّ السائق.

تعترف وهي تضبط له رباط العنق: تبدو أنيقًا، تقريبًا مثل شخص إنجليزي.

يتخضّب وجه أوجينيو، ويفرد ظهره بِفَخر.

ولكنّها تضيف: لحسن الحظّ أنّنا لم نقابل أباك.

الآن أصبح الحيّ خلفنا. أقنعت أنجلينا زوجها بأن يستلم الورديّة في «اللاشيء»، ولو مرّة واحدة.

- قلت له، مسألة حياة أو موت، واقبل الموقف أو اتركه.

أجيبها: وأنت تخيّلي لو تركه. بدونك يغرق هذا المكان في غضون أسبوع.

تقول لي وهي تضحك: لا تبالغي، ربّما في غضون شهر...

يبتعد أوجينيو بضع خطوات ليتأكّد من لافتة المحطّة.

أهمس: أنجلينا، أعرف أنّ هذا ليس شأني، لكنّي أعلم كم هو أمر مهمّ لأوجينيو تقبّلكما شغفه. ربّما إذا تحدّثت مع زوجك...

تتنهّد هي، وكأنّها تريد أن تفهمني أنّه موضوع طويل، واحدة من تلك المواقف التي يستحيل، تقريبا، فهمها من الخارج. لا أشعر أنّ علي الإصرار، يبدو موقفًا مشابهًا لما أعيشه، أحيانا يكفي معرفة شخصيّة الأطراف المعنيّة.

الزّحام كثيف، وبالكاد نستطيع التّحدّث. حلّ الصّيف بلا مقدّمات كثيرة.

يشعرني قميص أديلايده بأنّني مُقيّدة. في فترة ما، كان يمكن لذلك أن يقلقني، في حالة أيّ هجوم لن أكون حرّة للدّفاع عن نفسي، لكنّني الآن أحاول التّركيز فقط على ما يحدث بالفعل.

بينما ننتظر الأوتوبيس في صمت، أقول لنفسي إنّني خرجت مرّة أخرى من الحصن. هذه المرة فعلت ذلك للوصول إلى وسط المدينة، والمقامرة بكلّ ما هو غالٍ عليّ. أعرف أنّني أخاطر الإصابة بالإحباط، في واقع أرى الآن كم هو حزين وعارٍ، وسيضيق عليّ، لكن إذا كانت الطّريقة الوحيدة لتحقيق حلم ما هي افتراض الفشل، هل يكون أمامي خيار آخر؟

رحلة الأوتوبيس خانقة بسبب ازدحام المرور. رحلة مليئة بالعقبات تقطعها أصوات نفير السّيّارات وصرير الفرامل. تجري المناظر في الخارج خلف النّافذة عند الإبطاء. أرى التّصفيات، ومتاجر الأدوات الكهربائيّة، ومحلّات الموادّ الغذائيّة، ومطاعم أجنبيّة،

بالتّدريج نقترب من وسط المدينة، حيث الفنادق والمحلات الفخمة، والبنايات الخلّابة ذات الحدائق الدّاخليّة.

تقف محطّتنا في وسط شارع عريض مليء بالأشجار. ألاحظ حانة فخمة لبيع الكوكتيل، ومركزًا لجراحات التّجميل. من يصدّق أنها مدينتنا نفسها. يرتدي المارّة ملابس باهظة الثّمن، ويسيرون بثقة، على عكسنا نحن الثّلاثة، نسير متشكّكين، نكاد نكون مرعوبين، ومن يدري ما هو الانطباع الّذي نتركه.

يناديني أوجينيو وهو يشير إلى واجهة زجاجيّة غاية في النّظافة، معلّق عليها إعلانات عقارات مكتوبة بطريقة جيّدة، صور ملوّنة لحجرات داخليّة مضيئة، وبلا سعر. في الداخل، أميّز بياتريتشه، ترتدي تايرا ورديا خوخيا وكعبا عاليًا جدًّا، وتتحدّث مع أبيها، ويقف معهما أيضًا رجل يرتدي بدلة رماديّة.

تحيّيني بياتريتشه بيدها، وتبدو مشدودة. ألتفتُ إلى أنجلينا وأوجينيو على أمل أن يمنحاني قوّة لأدخل، أجدهما خائفين ومتوترين، كأنّهما على وشك الهروب.

- هيّا لنتشجّع.

تسير أنجلينا، وهي تضبط شعرها القصير، وتعدل بلوزتها.

وفي تلك اللحظة، يصلان في الوقت نفسه، أديلايده على الدرّاجة، وبائع التبغ على الدرّاجة النارية. ينزل على الرّصيف بقفزة، ومن أسفل خوذته ينظر إلينا نظرة متعجرفة. وقبل أن يتخطّانا بسرعة ويدخل إلى الشركة، ترتسم على وجهه النحيف المتجهم علامات الاحتقار والتعالي. نمكث في سكون نحن الأربعة، وكأنّ تيارًا هوائيا تسبّب في إصابة ظهرنا بالبرودة الشّديدة.

تعلن أديلايده بنظرة زجاجيّة: قدّمت استقالتي. لا أعرف، لكنّني كنت في المخزن السّفليّ هذا الصّباح، ومدّ رئيسي المباشر يديه إليّ، وتظاهر بأنّه فعل غير مقصود. ثمّ قال إنّه هو من يوقّع على إجازاتي، وأنّني ليست لي حقوق، وأنّني إذا لم... لا أعلم، إذا لم... لكن كأنّني أفقت من كابوس. قلت لنفسي لا أستطيع تحمّل المزيد، سأرحل. للمرّة الأولى أثق في ذلك. لكنّني أدرك الآن فقط أنّ «العالم الجديد» لم يصبح ملكًا لنا بعد، وربّما لن يكون، وأنّني ارتكبت فعلًا جنونيًا، وأنّ أريا موجودة، وأنّ...

- لا تقلقي، سنفوز.

أطمئنها، على الرّغم من أنّني لست مقتنعةً تمامًا: لقد تصرفت بشجاعة، ربما ليست لديّ.

تبتسم لي: ليس حقيقيًا. أنت لديك الكثير من الشّجاعة. لكن أشعر أنّني أفضل. أشكرك.

يتحدّث بائع التّبغ مع والد بياتريتشه في الدّاخل. هو أيضًا يبدو كسمكة خارج المياه، لكن إذا كنّا نحن سمك موسى فهو سمكة بيرانا. أقول لنفسي إنّه ربّما لم يصل إلى المبلغ الّذي جمعناه. فمن خلال مساهمة مارجريت، وما أرسله إلينا قرّاء بلوج الصّحفيّة ذات الضّفائر الحمراء، في النّهاية استطعنا تجاوز الحدّ الأدنى. أنظر حولي بحثًا عن برشيللا.

تقول أديلايده فجأةً بعد أن نظرت إلى هاتفها: هيّا لنذهب. أريد أن أكتشف في أقرب وقت كم كنت مجنونة.

بالكاد أنجح في التّحرّك خطوة باتّجاه المدخل. تتبعنا أنجلينا ومعها أوجينيو.

تأتي بياتريتشه لتقابلنا بابتسامة مشدودة، تسخر منّي بلطف على قميصي، ثمّ تشير إلينا نحو مكتب زجاجي. يوجد داخله مكتب خلفه كرسيّان بعجل وأمامه مسرح صغير من الكراسي الجلديّة ذات هيكل معدني.

يجلس بائع التّبغ في الصّفّ الأوّل، وقد عقد ذراعيه، وقدماه ممدّدتان أمامه. بعده ببضعة صفوف تجلس برشيللا، منهمكة في فحص هاتفها.

تصيح عندما تدرك وجودنا: أخيرًا وصلتم! هيّا اجلسوا. فسنبدأ الآن.

تخبرنا بياتريتشه، بينما نجلس: إنسحبت سلسلة الهامبرغر. عثروا على موقع أنسب لمواصفاتهم

الخمسة آلاف.

أتنهّد بارتياح، منافس أقلّ.

يسأل بائع التبغ: ألن نتحرّك؟ أنا مستعجل لأختم الصفقة وأبدأ التجديد.

في تلك اللحظة بالتحديد، يدخل والد بياتريتشه ومعه الرّجل ذو البدلة الرّمادية، والّذي نكتشف أنّه المحاسب.

رأيت المزادات في الأفلام فقط. عادةً توجد سيدة ترتدي الفراء، وتجلس في آخر الصّالة، وهي من تقدّم العرض الأخير وتفوز. لم أجد فيها بائع تبغ مخيف، ولا فرقة متنوعة من النساء شديدات الغرابة، لذلك لا أستطيع توقّع ما يمكن حدوثه.

- فلنبدأ.

يأمر والد بياتريتشه المحاسب، الّذي أثناء ذلك يجلس إلى المكتب ويُخرج ظرفَين من ملفّ.

أسمع أنجلينا تتنحنح خلفي، وأوجينيو يُسكتها: ماما. تجلس أديلايده على يميني وتضغط على يدي، وتجلس بريشيللا على يساري بظهر مستقيم. مكثت بياتريتشه على قدميها بجوار والدها، تحدق إلينا وهي تعض شفتيها.

أربّت على الإوزّة في جَيْبي، وأُفكّر من جديد في دوروتي، وفي خطاباتها، وفي السّيدة داليا، وفي يوم البيع المفتوح، وفي تروفيو الّذي قال لي «أحسنت». أفكّر من جديد في أمّي وشغفها

بالأشياء الجميلة. أفكر من جديد في جدّتي، الّتي في المرّة الأولى والوحيدة الّتي رأتني فيها فكّرت أن تصحبني إلى «العالم الجديد»، وأفكّر في مارجريت والصحفية.

بعد أن فُتح الظّرف الأوّل، ظرفُنا، يعلن لنا المحاسب نتيجته.

يلتفت بائع التّبغ فجأة، لا يتّسع لي الوقت لأقنع نفسي أنه فاز، حتى فتح المحاسب الظّرف الثّاني. لقد قدم منافسنا المبلغ نفسه!

أنتبه إلى أنّني نهضت. فأجلس ثانيةً، ثمّ ألتفت نحو أديلايده، ثمّ نحو بريشيللا.

أسأل بريشيللا: معقول؟ هل يمكن هذا؟ كيف حدث هذا؟

ينهض بائع التّبغ ويطلب التّفسير.

يخبرنا المحاسب، بكلّ هدوء، وكأنّ أمرًا كهذا كان في جَدْوَل الأعمال:

- القانون ينصّ أنّه في حالة حدوث ذلك، يجب عرض مبلغ جديد.

تومئ بريشيللا بالموافقة لتؤكّد كلامه.

- لن يستطيع!

أُضيف، لأنّنا لن نستطيع. لقد عرضنا بالفعل كلّ ما لدينا، حتى وإن أفرغنا جيوبنا لن يمكننا أن نعرض سوى القليل من اليورو.

- يمكن لكلّ الأطراف أن تأخذ خمس عشرة دقيقة للتفكير.

يختم المحاسب، وهو يضع كفّيه على المكتب ليقف، ثم يخرج برفقة والد بياتريتشه.

ينهض بائع التبغ أيضًا. يدفع الكرسيّ خلفه في ضجيج، ويمسك الهاتف ويخرج. نجلس بمفردنا في الحجرة.

تقترب منّا بياتريتشه: من جهة أخرى، في قصص كهذه، لا توجد تقريبًا نهاية سعيدة على الإطلاق.

تبكي أديلايده. أرغب في أن أحضنها، لكن ما أستطيع عمله هو وضع يدي على يدها والتربيت عليها. لا يمكن القول إننا قصرنا في المحاولة وكل ما إلى ذلك، لكنّ الشعور بالهزيمة والظلم والإهانة يحرق بالدرجة نفسها.

نحن الواهمات المسكينات. نحن اللاتي لا نعرف كيف نصبح قادرات، لأنّ العالم لا يسمح لنا سوى بالقليل. كم هو قليل الاهتمام واللطف والحثّ تجاه مجهوداتها. كم من المعارك تُخسر من بداياتها لنقص المؤيدين.

- لقد صدّقت حقيقةً في هذا، والآن لم يعد لديّ عمل.

تقول أديلايده بيأس، وهي تُحدّق في قدمَيها.

- قلت إنّ النّهاية السّعيدة غير موجودة على

الإطلاق.

تستمرّ بياتريتشه بابتسامة غامضة، وتغمز لنا بعينها.

أنظر إلى صديقاتي في هذه الصّالة المحايدة والباردة.

تسأل أديلايده بياتريتشه: فيم تفكّرين؟

تجيب وهي تجلس معنا: شيئان. الأوّل: أنّ صاحبنا قد لا يستطيع أن يعرض شيئًا جديدًا نظرًا إلى ردّ فعله العصبي. الشيء الثاني: تشجعوا...

وتتركنا معلّقات للحظة، ثمّ تعلن: يمكنني أن أعطيكم بعض النّقود.

تستمرّ: ثمّ أنكن أهديتموني إلى فكرة مهمّة. لقد فكّرت أنني سأرغب في الكشف عن المتاجر القديمة، وأن أقاوم لأحييها. من جهة أخرى، لطالما أحببت التحدّي. وعلى الأقلّ يمكن أن يكون لديّ عذر للفشل في الحالات المستعصية.

تجرؤ على الضّحك، وللمرّة الأولى توجّه إلينا نظرة من يوشك على طلب شيء. ربّما مجرد تأييد أو بعض التّشجيع، أو ربّما...

تستمرّ: نسيت تفصيلًا، إنّه شيء سنفعله جميعنا معًا، إذا وافقتنّ. ما رأيكنّ؟

أريد أن ألخص ردّ فعل أديلايده وبريشيللا، لكنّني في الوقت نفسه أخشى إحراج بياتريتشه،

أن أشعرها بأنّها مستبعدة. أشكُّ أنّه في نهاية الأمر، هذا ما يُخيفها أكثر من أيّ شيء: أن تبدو غير مناسبة. من أكثر منّي يمكنه أن يوضح لها ذلك؟ لقد ألقت بنفسها في تقديم رومانسي زائد على طبعها، والشيء المؤكّد هو أنها فاجأتنا. لم يردّ أحد منّا حتّى الآن، حتّى لو لم أكن أعرف لماذا لم أصح إلى الآن: أجلل!

يتدخّل أوجينيو، وهو يميل علينا من الخلف: الإيمان معًا بحلم أمر جميل.

ثمّ يَستدير نحو أمّه بتعبير تلميحيّ وحنون، ربّما أكثر أيضًا ممّا لدى صديقتنا.

(49)

إنّ ما يجمع البذور، بغضّ النّظر عن أنواعها، هو أنّها تحمل كلّ ما يلزمها بداخلها منذ البداية. فعند رؤيتها تبدو بلا وزن، لكن علينا أن نثق في أنّ بداخلها قلبًا ينبض بكلّ ما تحتاج إليه في المستقبل.

والأشخاص بذور. كلٌّ منّا بداخله ما يحتاجه في اللّحظة المناسبة، فقدره الحقيقيّ وضع بذوره في عمقه. لا يهم كم من الزّمن يستغرق هذا، لأن لحظة النّمو تحين في النّهاية. أفكّر الآن، هذا هو إذن سبب جيد لكي أحمل بذوري على فلك نوح. ليس فقط لأنّها يمكنها أن تبقيني على قيد الحياة إلى الأبد، بل أيضًا لكي آخذ معي ما يمكن أن يدهشني في «العالم الجديد»».

بالنّسبة إلى بياتريتشه، كان يكفيها بضعة أسابيع وفريق من النّساء مستعدّات لكلّ شيء. الآن تنقل إليّ فكرتها شعورًا بالعظمة والخفّة في آن، وكأنّني يمكنني التّحليق دون أن أخشى السّقوط. لا أعتقد أنّني اختبرت شعورًا مماثلًا من قبل.

لكن للأسف، قطع دخول بائع التّبغ المفاجئ تحليقي، حيث اقتحم الغرفة ووقع على عرضه الجديد بإيماءات غاضبة. وتلاشى الأمل في أن نكون الوحيدات المُتبقّيات.

حان دَورنا. اِقتربنا من المكتب لنقدّم عرضنا

الجديد.

يمزح المحاسب: فريق كرة الطّائرة.

تتيس برشيللا: بل أكثر من ذلك، فريق يرغب في أن يثبت قيمته.

شكرًا برشيللا. أبتسم بيني وبين نفسي، بينما ينظر إلينا بائع التّبغ نظرة حاقدة.

خلال دقائق سيعلَن الحكم. تنظر أديلايده مرتجفة إلى ساعة الهاتف. يظهر أوجينيو تماسكًا كأنّه في المسرح، لكنّه نافذ الصّبر مثلنا.

أبدأ بالتّخطيط ذهنيًا. إذا فشلنا فقد حاولنا على الأقلّ. إذا فشلنا لا نزال معًا. إذا فشلنا سنحاول مرّة أخرى بشكل جديد في مشروع آخر. إذا فشلنا، فهذا يعني أنّ الأمر يجب أن يسير هكذا. إذا فشلنا... يفتح المحاسب الظّرف الأوّل ويقرأ رقمنا. ثمّ يفتح الظّرف الثّاني ويفتح ما قدّمه بائع التّبغ.

مجرّد أرقام. لا يوجد احتمال للخطأ. أرقام وليس تواريخ ولا بذور ولا مساحة للتّفسير. نتيجة واضحة وحاسمة، أبيض في أسود، في ضوء الشّمس.

وها هي النّتيجة: يتجاوز عرض بائع التّبغ عرضنا، بقليل جدًا.

ألتفت نحو برشيللا بأمل أخير، ربّما يمكنها عمل شيء ما؟ هل هناك استئناف؟ القانون ينص...

ولكن تعبير صديقي واضح أكثر من ألف كلمة. لا توجد طريقة للمحاولة مرّة أخرى. إنتهى الأمر ورفع المزاد.

لا يحتفل بائع التبغ كما توقّعت، ولا يتدخّل، ولا حتى ينظر إلينا. يمكنه أن يبدأ عملية إفراغ المتجر وابتياع آلات اللعب، وإغلاق الواجهات الزجاجية، ونقل الخزنة لوسط الصالة حتى «يسقط» الزبائن داخلها، وأخيرا يغيّر اللافتة. ها هي السّديلة الحمراء ستختفي. وداعا يا أيها «العالم الجديد»، عالمي الصغير والكبير، مملكتي وملجأي. من اليوم لم تعد لي. يقرأ المحاسب بعض القواعد الإضافية لقانون البيع والشّراء بالمزاد، لكن لا أحد يسمعه.

لقد فكّرت مسبقًا في كلّ شيء، لكنّني لم أستطع التوقّع أن الفشل، في العمق، سيسحقني. أثناء القراءة النّهائيّة للمحضر، شعرت بأنه سواء في داخلي أو خارج منّي، فإنّ الدم يهرب بسرعة إلى الأطراف، كأنني تعرضت إلى حادث.

إستأذنت برشيللا على الفور، وهي تودّعنا مسرعة، عليها العودة إلى المكتب لموعد. واضطرّت أديلايده أن تهرع إلى العمل، ربّما تستطيع سحب استقالتها، من يدري، إذا لم تكن تريد أو لم تستطع أن تتوقّف لتتحدث معي. حدث كل شيء في دقائق، افترقنا دون أن نعلّق. تناثرنا كالنّمل، كل منّا تبحث عن وقت لتستوعب

ما حدث. سيكون الأمر سهلًا: خسرنا المزاد، خسرنا المتجر، خسرنا كلّ ما كان له معنى. سرعان ما سيفتح مكتب رهانات في الحيّ. ماذا يمكن أن يقال؟

أجل، سنستثمر المبلغ الّذي جمعناه في مشروع بياتريتشه. لكن من الواضح أنّه على الرغم من الحماس السّاذج، فإنّ فرص النّجاح في ذلك ضعيفة. فنحن خارج روح العصر، ما نؤمن به على وشك الانقراض، ولا يمكن تحويل مجرى السيل.

أراد أوجينيو العودة إلى المنزل بالأوتوبيس، وطلب من أمّه الذّهاب معه. بدا بالفعل محبطًا.

- سترحل أيضًا من بداية الخطّ، أليس كذلك؟

قلت له لمواساته، وأيضًا لمحاولة مواساة نفسي.

أجابني: على الدّوام.

- أنجلينا، لا بدّ أنّ أقول لك إنّك عملت عملًا عظيمًا مع ابنك.

تسألني قبل أن تبتعد: هل أنت متأكّدة من أنّك بخير؟

- أنا بخير، سأمشي قليلًا.

طمأنتها، ومن يدري كيف استطعت الابتعاد، بكلّ تلك الآمال المهشمة.

هل ربّما هذا ما شعر به أبي عندما استُبعِد

من الحياة الأكاديمية؟ أسأل نفسي وأنا أسير نحو القناة، ونحو المنزل. بماذا شعر؟ بالخجل، أم بالخوف، أم بضياع المستقبل؟ هل هذا ما دفعه ليعتزل العالم، فاخترع الحصن؟ هل حاول حمايتي لأعوام من إعصار انفعالات الخوف من العزلة؟

وماذا يحدث إذا استطعت إجتيازها؟ إذا قبلت أن أخفي كلّ نقطة ارتكاز؟ أفكّر، ها أنا الآن في مفترق طرق. أفكّر في هذا تماماً، وأنا أقف أمام مفترق طرق كبير في وسط المدينة، حيث أصبح أكثر فوضى، ومن الصعب اجتيازه بسبب أشغال مترو الأنفاق.

يمكنني الانغلاق على نفسي في المنزل، ومحاولة نسيان كلّ شيء، في انتظار أن تمضي العاصفة، وبعدها أخرج من حين إلى آخر، فزعة. أو، يمكنني الوقوف ثابتة في وجه العاصفة، أستقبل ما سيجيء منها بثقة، وأواجه الخوف. فالأمطار تنتهي إن عاجلاً أو آجلاً. أحدهم يذكّرني ذلك بكثرته كلّ يوم.

أعبر المدينة سيراً، تماماً كما فعلت أول مرّة عندما وصلت بمفردي إلى ميلانو. اليوم أيضاً مشمس، لكنّه أكثر حرارة. الشوارع مزدحمة. لم أعد أنا، أو ربّما أكتشف جيا الأخرى. لا أحمل حقيبة نوم على ظهري، لأنّ ثمّة منزلاً في انتظاري. لا أشعر بالوحدة في العالم، لأنّ بجانبي أشخاصاً جديرين بالاعتماد عليهم. يبقى المستقبل ضبابياً،

لكنّه أقلّ ظلامًا، وهذه هي المعجزة الحقيقيّة بالنّسبة إلي.

شوارع المدينة صاخبة. أمواجٌ من النّاس تتّجه نحوي، كثير منهم ينظر إلي، وبعضهم يصدمني. فأنا كجذعٍ وسط التيار. فجأة، يصلني صوت هاتفي من بعيد، أشعر به يهتزّ في جيب الأوفرول. أرغب في تركه يرنّ دون حتّى أن أعرف من يتصل، تمامًا كما فعلت منذ بضع ليالٍ عندما لم أفتح الباب. لكنّ الرّنات تستمر، بينما أفكّر من جديد في ما قلته لنفسي منذ لحظة. هل سأقف ثابتة وسط العاصفة؟

أُخرج الهاتف من جَيْبي، يُضيء على الشّاشة رقم غير مسجّل في القائمة. أتمنى من داخل أعماقي أن يطلبني أحدهم لعمل. أريد أن أغوص في أي نشاط عملي، وأن أعيد إصلاح شيء ما، أجد حلولًا، أشغِل عقلي.

- متى الافتتاح؟

- أوه، لقد خسرنا يا أكيله.

أجيب، وأنا أحاول ألّا أبدو مُحبَطَة بشدّة.

أكيله يتّصل بي؟

- أنا أيضًا رسبت في امتحاني الأخير، شكرًا على سؤالك.

- لم أكن أعرف أنّه اليوم.

- يمكنني أن أعيد الامتحان مرّة أخرى، لكنّ

متجراً كهذا!! حسناً... لعمل واحد مثله يستغرق الأمر فترة طويلة من الزّمن.

- على الأقلّ عُمُرٌ بأكمله.

- لكنّ الأمر يستحقّ.

- أكيله... هذا مستحيل، هذا كلّ ما في الأمر.

- لم أكن أعرف أنّه توجد مستحيلات بالنّسبة إليكِ.

أبطئ لأستمتع بالمديح. فجأةً، لا أشعر بالحرّ أو الاضطراب. أبحث عن نظرات الآخرين، وألقي بابتسامات حولي: إنّك تعطيني أكثر من حجمي.

يمرّ زوجان على درّاجة بجواري، هي تجلس على ماسورة العجلة مثل الأزمنة القديمة. نفحة من الرّومانسيّة الّتي تجاوزها النّاس في عصرنا. أفكّر في إينزو والرزّ واللّبن في حاملة اللّفائف في درّاجته ومعه داليا حبيبته.

يسألني أكيله: هل أنت قريبة من المنزل؟

- لا، أنا في الخارج، وللدّقّة، في ميدان لاسكالا.

- مبكّرة بعض الشّيء.

- بأيّ معنى؟

أشعر به يتردّد، ولكنّه يقول في النّهاية: بمعنى أنّك موجودة... في المكان الّذي يجب أن تكوني فيه... بعد خمسة أيّام.

- هل أنت تسافر للمستقبل؟

أشعر بابتسامته: لنعتبرها هكذا... لقد ابتعت تذكرتين لعرض باليه «ساحر أوز».

- آه.

أجيب بخيط الصّوت الّذي تبقّى لي.

أقف في وسط الميدان بجوار حَوض زهور، أجلس على مقعد وأفرد قدمي.

أهمس: إذن، أكاد أفكّر في أن أمكث هنا في الانتظار.

تسيل دمعة على وَجْنتي. أتمنّى أنّه وراء الهاتف يشعر فقط بابتسامتي.

- ربّما ليست فكرة سيّئة. في نهاية الأمر، الزّمن موجود فقط لأنّ كلّ شيء يقع في اللّحظة نفسها. قال أحدهم.

- أنت؟

- أينشتاين. ولكن شكرًا على المجاملة.

أبتسم مرّة أخرى، وأشعر به أيضًا يبتسم. لم نتحدث قطّ عبر الهاتف. ولأقول الصّدق، لم أثرثر قطّ في الهاتف هكذا من قبل مع أيّ شخص. إنّه شيء مسلّ، وكأنّني أعلّق لوحة. أفكّر، كم أتمنّى أن يكون المسمار مثبتًا جيدًا. أعقد أصابعي متمنية لنفسي الحظّ السّعيد، دون أن يراني أحد.

(50)

بينما يعمّ الصّمت أرجاء المكان، يومض النّور الأزرق للتلفاز خلفي، حيث يشاهد تروفيو صراعا بين تمساح وسيد قشطة، وهو يضم قبضتي يديه، ويبدو منهمكا.

حاول بنظرته القلقة أن يسألني أكثر من مرّة عن الموضوع، لكنّني لم أتحلّ بالشّجاعة الكافية لأخبره عن نتيجة المزاد. أثناء تقطيع الكرنب، حاولت البوح أكثر من مرّة، لكن دون جدوى. في النّهاية، أعتقد أنّه فهم، فهو بارع في تفسير الصّمت. الآن، أعرف أنا أيضا ماذا يعني أن يفقد المرء كلماته: شيء يشبه مشاهدة التلفاز بلا صوت، الحياة العارية ذات المستوى الأحاديّ.

الشّيء الّذي أتمسّك به بالفعل، هو ألّا أحبطه. لا أعتقد أنّه سيتحمّل هذا، ولا أنا أيضا. إن كان من الممكن للكلمات أن تعود إليّ، أو على الأقل لديّ أمل في ذلك، فهي لن تعود إليه، وكلانا يعرف هذا. وهنا تكمن قيمة «أحسنتِ» الّتي قالها لي. عشت تلك اللّحظة في ذهني آلاف المرات. تمنحه صداقتنا رضا ونفرا وراحة ممّا يجعله يشعر بأنّ الانتصار انتصاره هو أيضا، فيهم صائحا باسمي، ومشجّعا إيّاي كلّ ذلك الوقت دون أن أدرك ذلك. «أحسنتِ». لو أتيح لي أن آخذ معي ذكرى واحدة فقط، وشعورا وانفعالا معيّنين من

كلّ هذه القصّة، سأختار «أحسنتِ» لأحتفظ بها.

بينما أملأ صحن بيليه بقطع من مكرونة بصلصلة البيستو، يرنّ هاتفي. أجفف كفي سريعًا بقطعة قماش على سطح المطبخ، وأرى من المتصل. إنّها باتريتشه. مرّ يومان حتى الآن دون أن نتحدث. أفكّر وأصيغ الكلام، وأعيد صياغته، ثمّ أفكّر ثانية. أحاول مواجهة نفسي، لكن حتّى في هذه الحالة، أشعر أنّني أفقد الكلمات.

لكنّني الآن عند تروفيو، حيث لا يمكن أن يحدث لي أيّ مكروه. حتّى إن كان لديها خبر بشع، وحتى إن أرادت أن تقول لي إنّها ستتراجع عن المشروع الّذي اقترحته، في النهاية لن أكون وحيدة أثناء تلك المحادثة. ليست المرّة الأولى الّتي تتصل بي فيها باتريتشه اليوم، لكنّها المرّة الأولى الّتي أمتلك فيها الشّجاعة لأجيب عليها.

- كدت أتصل بالنّجدة.

- آسفة، لكنّني احتجت إلى بعض الوقت لأهضم... أحتاج لـ...

- سأقاطعك قبل أن تهضمي أكثر ممّا ينبغي، هناك تغيير في البرنامج، إذا أمكن القول. أو ربما نستطيع أن نقول: مفاجأة قلبت المشهد؟ تبدو أفضل!

تتسارع دقّات قلبي. بالنّسبة إليّ، المفاجآت الّتي

تقلب المشهد تعني كوارث، لا بدّ أن نستعدّ لها، وأنا، بكلّ صدق، لا أشعر أنّني مستعدّة على الإطلاق. ألقي نظرة على تروفيو لأتشجع. يتوقّف عن مشاهدة الفيلم الوثائقي، وينظر إليّ كأنّه يشترك معي في المكالمة.

عندئذ أسأل بياتريتشه: ماذا حدث؟

- شكرًا على السّؤال.

أقنع نفسي أنّها أخبار جيّدة، لكنّني أتجنّب ظهور ذلك حتّى لا أحبط تروفيو الّذي لا يزال يحاول فكّ شفرة المحادثة من تعبيرات وجهي.

تستمرّ بياتريتشه: بفضل بحث قامت به بريشيللا، اتّضح أنّ جارنا المحبوب – شخص فاضل كما نعرف – لديه تهمة معلّقة، بالإضافة إلى قضية مفتوحة للتأخّر في السّداد. لهذا السّبب، فإنّ عرضه يعتبر لاغيًا.

أقول بدهشة: لاغيًا؟

يعقد تروفيو حاجبيّه، لا يستطيع أن يفهم.

أساعده أنا، وأتمتم: إذن المتجر... لنا؟

- إي نعم، لنا!

تصرخ هي، وقد شعرت أخيرًا بالحرّيّة في التّعبير عن حماسها. ثمّ أسمع أنفاسها: إعتذر لي أبي، وتراجع عن قراره. لكنّني شرحت له أنّني أريد مواصلة مشروعي كما سبق وتحدّثنا. وهل تعرفين ماذا قال لي؟

- ماذا؟

- إنّه يستحقّ ما حدث له...

أبدأ بالضّحك، وأضحك من كلّ قلبي، أضحك وأبكي من الانفعال والسّعادة والارتياح. أخذ صديقي تروفيو بيليه ووضعه في حجره، ثم التفت نحوي بكرسيه ليستمتع بالعرض.

تصرخ أديلايده من الفرح، وتقفز، ثمّ تنادي أريا وتصرخ وتغنّي: أوه، كم هنّ جميلات بناتك يا مداما دوريه.

تريد أديلايده أن تشرب نخب الخبر قبل أن ننزل إلى المتجر، حيث تنتظرنا بياتريتشه. في غياب الشّمبانيا، نكتفي بعصير الفاكهة الّذي تشربه أريا.

أقول لنفسي: إذن، تحدث بالفعل نهاية العالم عندما يصارع المرء للحصول على السعادة، لكن ليس بالمعنى الّذي كان يقصده أبي، بل النّهاية الّتي تؤدي إلى حياة جديدة.

- كدت أنسى!

تصيح صديقتي فجأة. تهرع إلى غرفتها، وتخرج بعدها بقليل، وفي يدها لفّة في ورق شفّاف أصفر ناعم، وتسلمها لي: أخيراً جاهز.

أتجمّد في مكاني: من أجلي؟

- كيف إذن ستذهبين إلى لاسكالا؟ بأوفرول

الشّغل؟

بخَجَل، أرفع اللّاصق بأظافري. أبعد الورق الشفّاف، وأجد بين يديّ قماشا ناعما وانسيابيا، لونه ذهبيّ قديم. أرفعه: حولت أديلايده الثّوب ذا التنورة، إلى طقم ذي قطعتين: توب وبنطلون.

تشرح في انتظار ردّ فعلي: يبدو لي أنّه سيُناسبك أكثر هكذا.

أغوص بوجهي داخله: شيء جنونيّ، جنونيّ.

رائحته رائحة الأشياء الجديدة، لا أعرف هل سأجد الشّجاعة لارتدائه، لكنّني سأجدها، حتى لو كان ذلك آخر شيء أفعله.

عندئذ أقول: أنا أيضا لديّ شيء لكما.

أذهب إلى المدخل، حيث تركت لفّة ضخمة من ورق الصحف.

تلقي الطّفلة بنفسها عليه، فقد فهمت على الفور ما هو، من ناحية أخرى فهي تنتظره منذ فترة.

- رائع!

تصيح بحماس، بعد أن نزعت الورق كلّه عن بيت الدمى: يوجد مطبخ وصالون، وغرف نوم، وجراج... وتوجد أيضا حجرة ورشة مثل حجرتك! جيا! أنا أيضا أردت واحدة.

تنهض أديلايده: الآن سيكون لدينا المتجر.

لا بدّ أنّها أدركت ذلك فقط، عندما نطقت

هذه العبارة، لذا فقد مكثت في مكانها. حتّى أنا شعرت بالتأثّر، وكأنّ الأمر أصبح حقيقة للتو.

تصيح أريا: توجد أيضًا دميتان بالدّاخل. سأسميهما جيا وأديلايده، وستصبحان صديقتين.

تنظر إليها أمّها بخليط من الحنان والإعجاب. ثمّ ترفع عينيها نحوي كأنّها تسألني لو هذا حقيقيّ.

- صديقتان وشريكتان.

أنطق الكلمتين ببطء، وأنا أستمتع بهما.

- وكلّ هذا بفضلك.

- لا، بل الفضل فضلك أنتِ.

- إذن، وأنا أيضًا قليلًا، لكن...

- لنقل النّصف بالنّصف، كشريكتين ماهرتين؟

أشدّ على يدها، وعندئذ أخبرها أنّني سألحق بها في «العالم الجديد». لا بدّ أن أقوم بشيئين أوّلًا، ثمّ أرحل مسرعة.

أنزل السّلالم، وأنا أقفز قفزتين تلو قفزتين، أعبرُ الفناء وأجري لأدقّ على باب السّيدة داليا.

لكنّها، وهو الشّيء الغريب، لا تظهر على العتبة على الفور. أدقّ مرّة أخرى، وأنا أخترع نغمة ما. لا شيء. أدقّ وأدقّ من جديد. وفجأةً، تجتاح رأسي أفكار بشعة.

- سيّدة داليا؟

يدقّ قلبي بسرعة وترتعش نبضاتي: سيّدة داليا؟

لكن في اللحظة الّتي بدأت فيها صياغة الاقتراض الأوّل، يفتح أخيرًا ستار، ومنه تظهر عين وأنف.

- هل أنت جيا؟

- أجل يا سيّدة داليا، لماذا تسأليني؟

وأتنفّس بارتياح.

- أتذكّرك أكثر حزنًا.

- لأنّني هنا ومعي خبر جيد.

أنتظر بصبرٍ حتّى تفتح لي، لكن يبدو أنّها لا تنوي هذا.

عندئذٍ أسألها: هل يمكنني الدّخول؟

لحظةٌ من التّردّد: هل يمرّ أحد؟

ألتفّت يمنة ويسرة، الفناء فارغ: لا أحد.

تفتح السّيّدة داليا السّتار أكثر لتظهر عينها الأخرى، وتضع أنفها في الخارج لتتأكّد بنفسها. عندما تقتنع أخيرًا، تجذبني إلى الدّاخل وتغلق الباب بسرعة. تستريح نظرتها القلقة.

- لا يجب أن يعلم أحد.

- ماذا؟

بعد سؤالي مباشرة، ألاحظ أنّها ترتدي مريلة مبقّعة بالدّهان هنا وهناك: فصلة باللّون الأزرق الكوبلت مرسومة على وجنتها، تمامًا أسفل نظّارتها، تبدو مليئة بالحيويّة. تشير إليّ لكي أتبعها في الممرّ. أزاحت الأثاث عن الجدران. الأرض

مغطّاة بطبقة من البلاستيك. رائحة الدّهان قويّة جدًّا. أصفر هنديّ، أحمر قانٍ، بنفسجيّ معدنيّ فاتح، أخضر.

- كان يمكنك طلبي لمساعدتك.

- أوه، كان لديك شيء أفضل لتفعليه يا فرحتي. لكنّ المنزل بدا فارغًا وحزينًا جدًا دون اللّوحات. وشعرت بالوحدة. كان لا بدّ أن أفعل شيئًا بهذا الصّدد، بكلّ ألوان الزّيت المتبقّية.

أبتسم، وأنا أرى المطبخ قد ظلّ على حالته تمامًا، لمن لا يسمح له بدخول عالمها الشّخصيّ. أنا فخورة بأنّني من القلائل المسموح لهم بالدّخول.

نشرب الكينا نخب الخبر الجميل.

تتنهّد بعد أوّل رشفة من الكينا: إذن سيتحتّم عليّ زيارتكم، أحيانًا، لكن أتمنّى أن يكون لديّ الوقت لأضع الصّبغة.

أصارع بين الرّغبة في أن أكون بالفعل في المتجر، وبين التّأخر في الوصول قدر استطاعتي لأزيد الشّعور بالتّرقّب. أذهب، وأنا تقريبًا أجري إلى «اللّاشيء».

أجد أنجلينا جالسة على مائدة في وضع مسترخٍ. عندما أقترب منها، أراها تضع أمامها المجلّة التّاريخيّة الإنجليزيّة Horse & Hound. على الغلاف صورة بورتريه للعائلة المالكة، بابتساماتهم المتألّقة.

أسألها من الخلف: هل تفهمين أيّ شيء؟

- الصّور تشرح أفضل من آلاف الكلمات. في طريق العودة إلى الأوتوبيس، رأيتها في كشك صحف في وسط البلدة، ولم أستطع مقاومتها.

ألقي بنظرة على الطّاولة، حيث يربض زوجها خلفها. جفّف فمه للتوّ، لكنّه بدا كأنّه النّادل.

تمدّ لي أنجلينا يدها بالمجلّة قبل أن تنهض: إحتفظي بها، إنّها طريقة مسلّية لتعلّم اللّغة الإنجليزيّة. أمّا أنا، فسأعود إلى عملي. لقد منحت بالفعل فترة راحة أطول بكثير ممّا كنت أتمنّاه.

- أرى أنّه لم يكن هناك داعٍ لتدخّل مسؤولي النّقابة.

- قام ابني بالواجب! آه بالمناسبة. لقد ترك لكِ هذا.

تُخرج من جَيب المِرْيَلة ظرفًا أزرق ترابيًا، وتسلمه لي.

أفتحه دون أن أضيع ثانية واحدة. أجد داخله صورة شاحبة بالأبيض والأسود، لكنّني أتعرّف على نفسي على الفور. أنا في الأوتوبيس، أقف أمامه، وتعبير وجهي متشكّك وقلق. مرّت فقط أيّام قليلة على هذه اللّقطة، لكن جيا الّتي ذهبت لتبحث عنه ذلك الصّباح فريسة الفزع، تبدو لي الآن مجرّد صورة في ألبوم الذّكريات. كتب خلفها أوجينيو: أشكرك. الآن أبي يعرف. الآن هو أيضًا

يقوم بِدَوره.

بابتسامة حزينة بعض الشيء، أعاود التفكير في شماعة الملابس الخالية في شقتي. لم يعد عليها أي زيّ لنحفظه سرًا، ولا أي استراتيجية لمساعدته في أن يكون نفسه. وصل أوجينيو لذلك مبكرًا.

أقول بصوت مرتفع: أنا فخورة به. ومن يدري كم ستكون الجدّة أيضا فخورة.

أصحب أنجلينا إلى طاولة التقديم: هاتفتني بياتريتشه للتو بخبر جميل: يبدو أن بائع التبغ خارج اللعبة. مسائل قانونية، ديون، وتأخر في السداد...

أستمتع بتعبيرها المندهش قبل أن أوضح: المتجر لنا.

تضع أنجلينا يدها على قلبها. في تلك اللحظة أفكر: توزيع الأخبار الجيدة أيضًا نوع من أنواع الاقتصاد الدائري في الحي. يعجبني بشدة.

تقول أخيرًا: أيتها النجمة، سأعدّ، دائمًا وللأبد، الطعام من أجل حفلاتكم.

لديّ واجب أخير لأكمله قبل أن أصل إلى المتجر.

أتوقف أمام محلّ بائع التبغ، وأُخرج من حقيبتي شريحة الذاكرة التي تحوي التسجيلات التي تجرم صاحبه. أربطها بخيط في المصراع المغلق. مفاجأة صغيرة من جاراته الجدد، على الأقل يعرف الآن

مع من يتعامل.

عندما أجد نفسي أمام «العالم الجديد» وأنا أعرف أنه الآن ملكنا، أنفعل. أتشبث بإوزة دوروثي، وأخيرًا يمكنها أن تعود إلى مكانها، وأنا أيضا عثرت على مكاني.

أن تسير الأمور بهذه الطريقة هو أمرٌ لم يكن في استطاعتي تخيله، إلا أنه حدث، وها قد وصلنا. بداية جديدة، جميلة ومخيفة بالتأكيد. لكنني الآن أعرف أنه لا فائدة من البقاء على أهبة الاستعداد، يجب أن أرخي قبضتي قليلًا، وأتحلى بالثقة. الرحلة الآن رحلتي، ومن يدري إلى أين ستأخذني. ماذا إذا كان الأفضل، بالفعل، لم يأت بعد؟

بياتريتشه وأديلايده تقفان بالداخل، أراقبهما من خلال الواجهة الزجاجية. يحركان أثاثا، وينظمان المساحات. بينما أقف وأنظر إليهما، تتشكل فكرة داخلي: الحياة لا تكتفي بشيء واحد، بل ترغب في كل شيء. لا يمكن أن نتجنب العراقيل، ولا أن نفكر في أننا لن نفشل أبدًا، لكن محدوديتنا هي ثراؤنا: فهي تخبرنا عمن نكون، وإلى أين يمكننا الوصول إذا تحلينا بالشجاعة. تحكي قصتنا وتساعدنا في كتابة ما يتبقى منها.

نخطئ أحيانًا لنحمي أنفسنا، وأحيانًا أخرى لنجد لأنفسنا مكانًا، ونؤذي الآخرين، وكثيرًا ما

تؤذي أنفسنا، لا نستطيع أن نترك الماضي فنفقد الحاضر، ونفقد الأمل في المستقبل، لكننا نعرف أيضًا كيف يسمع أحدنا الآخر، وكيف نمدّ يدنا، وكيف نؤمن بمشروع ما، وربّما نحاول أيضًا تحقيقه. لكن في كلّ الحالات، الأهمّ أن يكون كلّ منّا موجودًا من أجل الآخر.

أعلم الآن أنّ تلك هي الأشياء الّتي تنقذنا.

آخذ نفسًا عميقًا، الآن أنا على وشك أن أخطو الخطوة الأولى في «العالم الجديد»، لكنّني ألاحظ في نهاية الشّارع سيّارة باندا بلون ورق السكّر.

تقترب. محرّكها، القديم بعض الشّيء، ينطفئ بصخب. يفتح البابان في الوقت نفسه. ينزل رجلان منها ببطء، واحد بلحية وقميص مربعات ينظر حوله تائهًا بعض الشّيء، والثّاني، أكثر شبابًا، هو أيضًا بلحية، وخطوته حاسمة أكثر. من صندوق المتاع، يخرجان حقيبة من النّسيج، مغلقة بحزام.

أفكّر في الدّفعة الأخيرة الّتي وضعتها في خطابي لأضعه في فتحة البريد. ومن أجل كلّ الجهات الأخرى، وكم أوشكت أن أتراجع وأسحبه. لو كنت فعلت ذلك لَمَا أتى هذان الرجلان إلى هنا، يسيران نحو منزل الجدّة، حيث يمكنني الآن أن أطلق عليه منزلي، إذا لم أصب بشعور غريب بالدّوار عندما أفعل هذا.

بعيدان، ولكنّهما مألوفان بشدّة. ترغب الطّفلة بداخلي في أن تجري نحوهما، ولكنّ الانفصال شديد جدا ومتضارب. خمسة أعوام. هل تغيّرت؟ هل تغيّرا؟ هل يمكننا أن نبني فلكًا يتّسع للجميع؟ لا يمكنني العودة إلى الوراء وتغيير البداية، لكن ربّما يمكنني أن أبدأ من حيث أنا وأغيّر النّهاية.

حقيبتهما تبدو كبيرة، ربّما ينويان البقاء لفترة. أتمنّى أن تكون فترة كافية لنستطيع خلالها التّطرّق إلى كلّ المواضيع.

أتحرّك، أنجز خطوتي الأولى وأتّجه نحوهما.

جدول التصويبات

عزيزي القارئ، ساعدنا كي نصبح أفضل لخدمتكم، نرجو منك تعبئة الجدول التالي، في حال وجدت أيا من الأخطاء المطبعية في هذا الكتاب، ومن ثم قم بتصويره وإرساله إلى رقم الواتس أب التالي من فضلك 0096599879733

الأشياء الّتي تُنقِذنا

رقم الصفحة	التصويب / الملاحظة	مسلسل

الاسم (اختياري): ------------------------

البريد الالكتروني (اختياري) :-------------
----

(1) اسم المقهى يعني «اللاشيء».

(2) مَقُولة بلهجة ميلانو تعني: فلتنسحق أرضًا لتتجنَّب المشاكل.

(3) «Gettone» عملة إيطاليّة رمزيّة كانت تُستخدم قديمًا في الهواتف العامّة وخدمات أخرى.

(4) Downton Abby.

(5) «Monte Napoleone» أحد أشهر شوارع التّسوُّق في ميلانو.

(6) لوتشانو بيانشاردي Luciano Bianciardi: كاتب إيطالي ومؤلّف فيلم «الحياة الصّعبة».

(7) All you can eat, olliuchenit «بالإيطاليّة».

(8) «Kew Gardens» في لندن، إنجلترا.

(9) الكلمة بالإيطاليّة تعني هواء.

(10) Ada Lovelace.

(11) متجر لبيع مُنتَجات تدور حول مفهوم مُعيّن أو نموذج حياة مُحدّد.

(12) أغنية إيطاليّة للأطفال تتحدّث عن السّيّدة دوريه وبناتها الجميلات.

(13) https://www.youtube.com/watch?v=VdEKKmJauFkd.

(14) Crowdfunding.

(15) «Sailor Mercury» شخصيّة رسوم مُتحرّكة يابانيّة، عن فتاة ضمن فريق للدّفاع عن الأرض والقمر ضدّ مملكة الظلام.